سيكولوجية الطفل

(علم نفس الطفولة)

الفت حقي

أستاذ علم النفس الاكلينيكي

جامعة الاسكندرية

١٩٩٦

مركز الإسكندرية للكتاب

٤٦ شارع الدكتور مصطفى مشرفة

ت: ٤٨٢٦٥٠٨ - الإسكندرية

اهداءات ٢٠٠١

ربان / حمدي عبد المنعم غالي

الإسكندرية

صفحة

فهرس

الموضوع

مقدمة ٧

سيكولوجية الطفل ٩

النمو ١٠

النمو بعد الميلاد (الطفولة المبكرة) ١١

النمو الجسمي والحركي ١٢

نمو الوظائف الحسية ١٦

نمو الوظائف الفيزيولوجية ١٨

نمو الاتصال ٢١

النمو الانفعالي ٢٥

النمو العقلي ٢٦

العمليات النفسية ٢٨

العمليات النفسية الاساسية ٣٠

الحس ٣١

الادراك ٣٤

التعلم الشرطي ٣٩

الدافعية ٤٣

العمليات النفسية المعقدة ٥٠

التعلم ٥٠

التذكر ٥٤

السلوك اللفظي ٥٩

المعرفه ٦٣

المواقف والاستجابة لها ٦٦

الاحباط ٦٨

صفحة

الصـــراع	٦٩
الوجدان والانفعالات	٧٠
التكيـــــف	٧٤
سوء التكـيف	٧٥
الحيل الدفاعية	٧٦
العـــــدوان	٧٩
محددات السلوك	٨١
التطور النفسي في الطفولة المبكرة	٨٥
أول الطريق الى المعرفة	٨٦
الارتباط النفسي	٨٨
القلق	٩١
الثقه والشك	٩٢
الغيرة	٩٢
اللعب	٩٤
مظاهر العدوان عند الطفل	٩٦
تطور نظام الرموز	٩٧
تطور التخيل	٩٩
التطور المعرفي	١٠٠
تطور فردية الطفل	١٠٣
دافعية الانجاز	١٠٥
الروابط الاجتماعية	١٠٨
الطفل والمجتمع	١١٠
الثقافة	١١١
وسائل الاتصال	١١٢
الميراث الثقافي	١١٣

صفحة

قواعد السلوك ١١٥
المادة الثقافية ١١٧
الفروق الفردية ١١٨
العوامل المساعدة ١١٩
البيئه الاجتماعية ١٢٢
التغير الاجتماعى ١٢٤
لغة المجتمع ١٢٥
المثل ١٢٧
العوامل الفيزيقية ١٣٠
الاسرة وثقافة الطفل ١٣٠
الطفل والتربية النفسية ١٣٥
الشخصية ١٣٥
التطور ١٣٦
نظريات التعلم ١٣٧
العمليات النفسية والتعلم ١٤١
التعلم تفاعل ١٤٢
التعلم والنمو ١٤٤
القدرات العقلية ١٤٦
الاستجابات النفسية ١٤٩
كيف نتعلم التكيف ١٥٠
أهداف التربية ١٥٣
بعض اضطرابات الطفولة ١٥٤
اضطرابات التعلم ١٥٥
اضطرابات النوم ١٥٦

صفحة

العادات الملازمة للتوتر ١٥٨
الكذب والسرقة والهروب ١٥٩
الافراط فى العادة السرية ١٥٩
المرض العقلى فى الطفولة ١٦٠
للطفل حقوق تربوية ١٦٠
راشد يدين حياة طفل ١٦١
تسخير الوقت ١٦٢
الاثابة قبل العقاب ١٦٣
تقدير الطفل لذاته ١٦٤
رفع الدافعية للانجاز المثمر ١٦٦
العناية بالمعلومات ١٦٨
ملء الفراغ ايجابيا ١٧٠
التطويع الاساسى فى الطفولة ١٧٢
الاخرون أولاً ١٧٣
الطفل الاجتماعى ١٧٥
الرقيب المختار ١٨١
الصراحة والوضوح ١٨٣
للطفل أن يقول لا ١٨٤
أن يتعلم الطفل التخطيط ١٨٦
الوقاية من اضطرابات تحرضها تغيرات جسمية ١٨٧
التخلف العقلى الغير - ولادى ١٨٨
النقص الغذائى ١٩٠
مراجع ١٩٣

مقدمة

ظهر هذا المؤلف (في طبعته الاولى) تحت رقم ايداع ٥٥٣٢ / ١٩٨٦ وعنوانه آنئذ « سيكولوجية النمو » .ويعد خبرة عشر سنوات فى تدريس المادة ، قررت المؤلفة أن تنقحه ، بحيث ترفع منه اللغة العلمية المتخصصة ، حتي يلائم القراء فى كل المجالات . وكان أن بسطت لغته، ثم اضيف الى المؤلف الاصلى ما يحتاجه القارئ (الغير متخصص فى علم النفس) من معلومات تفيده فى التعامل مع الاطفال . وهذه المعلومات تخص بعض المشكلات التي يعاني منها الطفل ، بالاضافة الى اسلم المناهج التي تؤدى الى تأمين صحة الطفل النفسية ، والى رفع تقديره لذاته وحكمه علي المواقف منذ طفولته المبكرة . هدف هذا المؤلف إذن هو التوعية البناءة ، التي نأملَ أن تضيف مادة ذات جدوى الى حصيلة القارئ الثقافية .

وكعادتها عند الانتهاء من أى من مؤلفاتها ، فإن الكاتبة تود لو أبدي القارئ رايه فيما يفتقده من جوانب اخري تخص الموضوع ، بحيث تفيدها عند تنقيح العمل فتجعله أكثر شمولا أو أوقع إفادة . وهى لكل مساهم في ذلك شاكرة .

الفت محمد حقى

١٩٩٦

سيكولوجية الطفل

اذا كنت مقبلا علي هدية الانجاب لاول مرة ، أو كنت طالبا أو مواطنا يحب التثقف وتود أن تعرف شيئا عن علم نفس الطفولة ، فأنت تتصفح مؤلفا نأمل أن يفيدك .

معجزة تطور المخلوقات من أجسام ووظائف أولية بسيطة في بداية حياتها الى أنظمة معقدة شديدة التركيب عند نضجها مازالت هدف بحث العلماء ورصدهم . وسواء تكلمنا عن ميلاد الكون كله أو ميلاد طفل، ثم استمرار كل منهما علي الحياة لارتباطها بالبيئة و بالزمن ، فاننا فى كل الحالات نتكلم عن مهيئات هذه الحياة . واذا كان للجوامد فى الطبيعة بداية وأجل ، فما بالك بالكائنات الرقيقة التي تعتمد علي الرعاية والعناية لكي تستمر في النمو نضرة سليمة بدون معوقات ؟.

موضوع الطفولة إذن هو النمو والنمو معناه الارتقاء الكمي والكيفى للاشياء . فالطفل الوليد والقطة الصغيرة كلاهما يزداد حجما أولا . ويحدث ذلك عن طريق تناسل كل الخلايا بجسميهما . وهذا هو الازدياد الكمى (طولا وعرضا ووزنا) . ثم تتسع وظائفهما ثانيا وتتعقد بمرور الزمن . فالطفل يتعلم كيف يتكلم وكيف يبحث وكيف يستجيب ، والقطة تتعلم كيف تفتش عن غذائها ومأواها ومتي تتسلق ومتي تهاجم . وهذا هو التطور الكيفي . ازدياد الحجم وعدد الوظائف فى الكائن الحى النامي إذن هو النمو .

وللنمو اتجاهان واضحان . نمو فيزيقى (جسمى) ونمو سيكولوجي (نفسى) . وتتعلق سيكولوجية الطفولة بهما معا ، لاننا نادرا ما نشاهد

أحدهما يستقل عن الاخر الا في حالات قليلة . فيحدث ذلك نفسيا في التخلف العقلي أو الثقافي ، أو يحدث جسميا في النضج المبكر precocious maturity أو في النضج المبتسر physical immaturity. ففي المثل النفسي نجد أن جسم الطفل ينمو بالسرعة المعهودة إلا أن تفكيره وانفعالاته وتصرفاته ينقصها النضج المرتقب بالتقدم في العمر ، فلا يوازي نضجة الجسمي . أما عند المثل الجسمي فيكون العكس صحيحا . لان الطفل يسبق الاخرين في وصوله الي النضج الجسمي وعقله مازالا طفلا (النضج الجسمي المبكر) أو يبقى جسمة ضئيل الحجم بينما يتقدم عقله نحو النضج بنفس سرعة أقرانه (النمو الجسمي المبتسر) . إلا أن معظم الاطفال (٩٩ ٪ من تعدادهم) لا يتعرضون لهذه الاحتمالات . النمو في الطفولة اذن مظهر وردى لا تلزمه إلا الرعاية السليمة .

النمو

يتحدد السلوك الآدمي عن طريق عاملين اساسيين هما طبيعة تكوين الفرد وطريقة نموه أولا . ثم نوع تفاعل هذا الهيكل الحي وكل وظائفة مع العوامل الاخري خارجة ، والتي تعرف ببيئته . وهذا المحيط المتحرك (بيئته) لن يكون مصدر غذائه الجسمي فقط ، بل غذائه العقلي والنفسي ايضا (ثقافته) . لذلك يهمك أن تعرف أولا كيف يرث خصائصه من والديه والاجيال التي سبقتهما ؛ ثم كيف تلعب الوراثة دورا كبيرا في نوع هذا التكوين الحي وخصائص هيكله ووظائف أعضائه ، ليس هذا وحسب بل يهمك أيضا أن تعرف كيف تتحكم البيئه التي يعيش فيها هذا الكائن الحي في تطوير خصائصه الوراثية ، بحيث تصيبها إما بالتحسن إن كانت غير سليمه (عن طريق غذاء مصحح أو عقاقير معالجة) أو بالتدهور حتى وان كانت سليمة اصلا (بالافتقار الى

ضروريات الحياة المادية أو النفسية) . والان تتعلم كيف ينمو الكائن الحي الصغير ، حتي تتعرف علي العوامل التى ستصنع منه كائنا أفضل، بدلا من كائن حي ينمو ولا غير .

نمو الكائن الحي لا يبدأ عند ميلاده ، ولكنه في الحقيقه يبدأ عند تكوين الزيجوت (أول خلية مخصبة) . فتتقرر عندئذ الشفرة التي ستخضع لها عمليات التطور المستمر طول حياته . لذلك يعتبر علم الاجنحة أو مرحلة فى دراسة النمو ، دراسة النمو هنا فى مظاهر تطوره عند الوليد .

النمو بعد الميلاد
(الطفولة المبكرة)

إذا رأيت طفلا بعد ميلاده وادركت كم يكون لاحول له ولا قوة ، ثم تابعت التطورات التي تطرأ عليها أسبوعا وراء اسبوع ، لأيقنت أنه يتغير بسرعة فائقة في كل وظائفه .وهذا التغير هو مظاهر النمو التى تمر بها كل الكائنات الصغيرة من نوعه . ويمكنك أن تسميها الازدياد والكيفي لشكله وتكوينه ولوظائفه . وأن تعرف أن هذا الازدياد يخضع لمسطرة زمنية تحدده . وبذلك يمكن التنبؤ ، عن طريق ارتباط الازدياد بالعمر ، عن مدى نجاح أو سلامة صحة هذا الكائن ، وعن القيم المترقبة لتقدمه بالنسبه لاقرانه .

النموا لجسمي وا لحركي

يولد الطفل الآدمى بعد تسعة أشهر من النمو قبل الولادة ، يمضيها

داخل رحم أمه ، في وسط مائي يساعده على التمتع ببيئه متماثلة فى الضغط والحرارة . ولايواجه أى صعوبات أثناء نموه هناك ، إلا اذا كانت ناتجة عن ضعف أو اضطرابات في تغذية الام ، أو تناولها أو تعرضها للسموم (العقاقير - السجاير - المخدرات - الكحول - الكيماويات أو الاشعاع) ، أو اصابتها فى الحوادث أو بالميكروبات ، وبالتالى تسببها فى اصابة أجهزته العصبية أو أعضائه النامية بتلفيات دائمة لا يمكن تصحيحها أو تعويض ما أتلفته من أعضاء أو وظائف (كالسمع أو الرؤية الخ ....) . وبانتهاء مدة الحمل الطبيعى ، يخرج الجنين الي الهواء ، ليمارس عددا كبير من الانشطة لاول مرة . ولا يتوقف اى منها الا إنذارا بإنتهاء حياته . وهذه الانشطة الواضحة هي التنفس ، التغذى ، والطرد . ويصاحبها نوع أخر من الوظائف الداخلية غير المرئية ، مثل هضم الغذاء والاستنفاع به ، وافراز المواد الخاصة بكل جهاز ، ثم القدرة على عزل وطرد العادم والفائض ، وأخيرا النمو .

وزن الطفل الطبيعى عند الميلاد يتراوح بين ١/٢ ٢ و٣ كيلوجرامات ، يفقد منها حوالى نصف كيلو جرام فى الاسبوعين الاولين . ثم يعوض هذا النقصان بسرعة بعد الاسبوع الثالث . ويضاعف وزنه الذى ولد عليه في نهاية الشهر الثالث . ويستمر نموه الجسمى بحيث يصل الى ما بين ١٠ - ١٢ كليوجراما فى نهاية عامه الاول ، وما بين ١٥ - ١٨ كيلو جراما عند اتمام السنه الثانية . ولا يتمسك الاطباء بحدود الوزن بصرامة ، حيث أن بعض الاطفال يولدون ولديهم استعداد لطول العظام وبعضهم لقصر القامة. وما يهم الطبيب والوالدين هو عدم التطرف الشديد فى زيادة الوزن أو فى قلته ، حيث أن لكلاهما ضرر على صحة الطفل فى حينه وفيما بعد عندما ينضج . وبالتالى يهمهم ملاحظة نسبة الزيادة أو النقصان ، التي تدل فى كثير من الاحيان على نوع الاضطراب الذى يعاني منه الطفل جسميا أو نفسيا .

يولد الطفل المتوسط وطولة ما بين ٤٥ - ٥٥ سنتيمترات . ويزاد بما يقرب من ٢٥ سم فى السنه الاولى ، وعشرة سنتيمترات فى عامه الثانى. وتتضاءل نسبة الازدياد بحيث لا تتعدى خمس سنتيمترات كل عام الى نهاية السنة العاشرة من عمره . ولعل الظاهرة الاوضح من نموه وطول عظامه ، هي ظهور اسنانه . ففى حوالى الشهر السادس (وأحيانا أثناء الشهر التاسع) تظهر قواطعه السفلى المتوسطة ، تليها الاربعة العليا ، ثم القواطع السفلى الجانبية . وتظهر بعد ذلك الضروس الاولى وعمرة الان حوالى ١٨ شهرا ، ثم الانياب وعمرة عامان ، وأخيرا مجموعة الضروس الثانية وهوفى الثانيه والنصف من العمر . ويصاب الطفل اثناء هذه الفترة الطويلة بالمعاناة من الارق وبالقابلية للاثارة والبكاء بدون سبب، وغالبا ما يفقد شهيته فيقل وزنه أحيانا ، مما يرفع قابليته للاصابه ببعض الامراض لانخفاض مقاومته .

وأكثر مظاهر النمو التي تلى وزنه وطوله وضوحا ، هى تلك التى تتعلق بحركة الطفل . فهو عند الولاده أشبه بالدمية التي تتحرك اذا حركتها . فقدرته على استعمال عضلات اطرافه تكون منعدمة فى الايام الاولى . وألحركات القليلة التي يتضح أنه قادر على القيام بها هى المص والاخراج فقط . وكلاهما استجابة فطرية ، لانه سيوجه رأسه مثلا نحو أى شئ يمس فمه بحيث يتمكن من مصه . وهذه حركات لن يتعلمها من أحد ، لانه مجهز بها قبل الميلاد . ولا يتوقف المص على استعمال عضلات الشفتين واللسان فقط ، ولكنه يعتمد ايضا على تشغيل عضلات اللهاه والبلعوم لتمرير السائل الممتص عبر المرئ . وحيث أن الانسجة العضلية محكومة بالجهاز العصبى ، فإن دلائل سلامة الطفل هي قدرته على المص (لانه فى هذه الحالة يستعمل جهازيه العصبى والعضلى) .

ولا يستقر بالطفل المقام في هذه المرحلة طويلا . لانه سرعان ما يتحكم فى عضلات يديه ثم ساقيه . فيستطيع أن يتشبث بأي شئ يمكن أن

يقبض عليه . ولا يستعمل في هذه العملية سوى اصابعه الوسطى وأسفل كفه في الاشهر الاولي . لانه لا يجيد التحكم فى ابهامه وبنصره الا بعد الشهرالعاشر من عمره . وعلاوه على ذلك فإنه مزود بانعكاس القبض closure reflex منذ الميلاد حتي نهاية الشهر السادس . وهو استجابه تلقائية بالقبض علي أى شئ بمجرد الضغط الخفيف على راحة يده . ومزود ايضا بانعكاس التعلق - clinging reflex الذى يستمر من الميلاد الي نهاية السنه الاولى . وهي استجابه تلقائية أيضا بالتعلق بأى شئ يشد أوتار اصابعه . فاذا علقت راحة يده على سبابة يدك وجذبت قليلا ، فانه يشدها تلقائيا مما يساعده بالتالى على رفع جسمه متعلقا بما هو قابض عليه . ثم هو يضرب الهواء بساعديه وسيقانه في الاسابيع الاولى بعد الميلاد ، ولا يتوقف عن هذا النشاط الا عندما يتعلم المشى . وتساعده هذه الحركة المتواصله على تقوية انسجتة العضليه بالاطراف تمهيدا لاستعمالها في الجلوس والمشى والتسلق في عامه الثاني .

أما حركة الوليد العامة ، فتتصف بالجمود أو التعيث في الشهر الاول ، لانه يبقي علي الوضع الذي يترك عليه . ويتسم شكله فى معظم الاحيان بالوضع الجنينى fetal position داخل الرحم . ويلاحظ النكوص اليه عند النوم في حالات الاكتئاب والفصام والتخلف العقلى أو الالم في البالغين . وعندما يتم الوليد شهره الاول يكون أكثر تحكما فى عضلات رقبته ، فيحاول رفع رأسه . ثم يرفع كل صدره معها فى الشهر الثاني . وفى الشهر الثالث تجذبه الالوان والاصوات فيتناول بيده ما يثيره . ويستطيع الجلوس بمساعدة فى الرابع وبمفرده في الخامس أو السادس. وفى نهاية العام الاول ، بعد شهرين من الحبو ، يكون قد اتقن الوقوف مستندا الى الاشياء لانه يجيد الان رفع نفسه بيديه والتعلق بما يساعده علي الانتصاب (فرد آخر أو منضدة أو كرسى) . ثم يتعلم التسلق (تلقائيا بدون مساعدة) بعد السنة الاولي مستعملا يديه وركبتيه ، والمشى بمفرده بعد الشهر الخامس عشر تقريبا . ولا يدل

الخروج عن هذه الحدود الزمنية علي شئ ، الا اذا تأخرت أكثر كثيرا عن هذه التوقعات العامة . وهنا تشير الى تخلف عضلى يعني تخلفا عصبيا أصلا ، وبالتالى تخلف عقليا أوضح فيما بعد .

نمو الوظائف الحسية

مع أن الوليد لا يفصح عما يحس به ، الا أن استجاباته التلقائية للمثيرات الحسية تعتبر خير مؤشر على حدة استقباله لها . فهو يستجيب للالم (وخز - ضغط - أو حرارة غير عادية) عن طريق خلاياه العصبية الجلدية من ايامه الاولي . ويدرك الاصوات فى اليوم الثاني (بعد جفاف السائل فى اذنه) بحيث ينتفض لها ، أو يبكي بسببها اذا كانت مرتفعة . ولا يستجيب للاضواء الا بعد يومين أو ثلاثة ، عندما تمارس الحدقةوظيفتها التلقائية للضوء ، بالانقباض اذا ما زاد أو الاتساع كلما قل ، وهنا يدرك الوليد مصدر الضوء فيلتفت اليه كلما صدر أو يغلق جفونه اذا زاد . وتماما كما هي الحال في الاذن فإن أنف الوليد يظل متشبعا نوعا بسائل الرحم ، وبالتالى غير قادر على التمييز في الايام الاولي . ولكنه يستجيب للروائح القوية في نهاية الاسبوع الاول. ويساعد الشم براعم الذوق علي ادراك الطعوم فى الاسبوع الاول ، بحيث يستجيب الطفل للسوائل المرة أو الحمضية بحركات عضلية بالوجنتين أو الانف أو الفم تشير الى الامتعاض . وتظل هذه الاستجابة التلقائية ملازمة للانسان ، فلا يتم التحكم فيها الا بعد التعلم وتعمد اخفائها .

وعند بداية الشهر الثالث يميز الطفل بين صوت أمه مثلا وبين أصوات القرع أو الارتطام . لانه سيكون قد تعلم اشراطيا أن الصوت الاول يقترن بالتغذية أو الراحة أو الطمأنينة ، بينما الاصوات الاخيرة لا تفيده بل تقترن بقلقه ، وعندها يستجيب الطفل بالابتسام والمناغاة لاحساسه بالسعادة ، أو بالبكاء لإحساسه بالغضب أو الخوف ، ولا تلعب الاضواء نفس الدور ، لان ادراك الالوان لا يقترن بفائدة مباشرة للطفل ، ولكنه

يشحذ حب استطلاعه فقط . لذلك فهو يفضل « الشخشيخة » وضجيجها على اللعبة الملونة لمدة عام علي الاقل . ولا ينتقل الى تفضيل المثيرات البصرية على السمعية الا بعد مضى ١٨ شهرا من عمرة تقريبا . ويستريح الطفل الوليد خاصة للنغم المقسم وللتوقيت الحركى . ويلاحظ استمرار الارتياح الى المثيرات الصوتية والحركية الموقوتة في الرشد عندما يلجأ الفرد المنهك عضليا أو نفسيا الى التأرجح مثلا أو اللجوء الي النغم أو النقر .

تنمو القدرة على الادراك البصرى بسرعة أقل من السمع . فمع أن شبكية الوليد عاملة منذ اليوم الاول ، الا أن مناطق الابصار باللحاء ينقصها عندئذ الفهم والتمييز . وهو لذلك غير قادر علي ادراك المنبهات البصرية منذ البداية كقدرته على ادراك المثيرات السمعية . فاذا ابصر وجه من يرعاه في الشهر الثالث ، فهو عاجز عن اداركه ، الا اذا اقترن بصوته ، وهنا يتعرف عليه . ثم يتقدم تمييزه البصرى بتكرار تعرضه للمثيرات ، بحيث يمكنه التعرف علي الاشياء المقربة اليه فى حوالي الشهر السادس (و الديه - لعبه - أواني طعامه - الخ ...) ، ويحدث نفس الشيء أثناء الشهر السادس بالنسبه لحاستي المذاق والشم ، بحيث يستاء الطفل من بعض الاطعمة فليفظها ، أو يجعد أنفه اذا لم يقبل الرائحة . وتتطور حاسة اللمس عند الطفل بسرعة أكبر ، لانه يستحسن كل شئ حوله منذ الشهر الثالث ، بحيث يميز بين الناعم والخشن ، ويحس بالاجسام القريبة منه ، فيقبض عليها أو يهزها أو يضعها في فمه. وأسرع الاستجابات اللمسية تطورا عنده هو الاحساس بالحرارة الشديدة . وهو يستجيب لها عن طريق الانعكاس البسيط reflex arc.

يتطور نمو المدركات الحسية عند الوليد ببطء فى شهوره الأولى، فيتعرف الطفل علي الفرق بين صوت أمه والاصوات المختلفة الاخري ، ثم يتعرف علي وجهها بعد ذلك ، ليبدأ مرحلة انتمائه النفسى اليها الذى

ينمو ويشتد كلما زاد عطاؤها النفسى ورعايتها له . وبحلول عامه الثاني يكون الطفل قد تعلم التمييز الحسى ، بحيث يتعرف علي معظم الاصوات والاشكال التي تعرض لها الي الان . ولكن ادراكه لن يتقدم بحيث يعرف الفرق بين الضار منها والمفيد الا فى العام الخامس . و هو لذلك فى حاجة الى من يرشده ويذكره باستمرار بعواقب بلع كل الاشياء، أو بتقدير المسافات و الارتفاع و السرعة . فكلها عمليات تتصل برموز أكثر تجريدا وا قل اتصالا بادراكه الحسى البسيط .

نمو الوظائف الفيزيولوجية

تتحكم وظائف الاعضاء تحكما كبيرا فى نوع السلوك الذى سيتبناه الصغير النامي . فالهرمونات المختلفه التي تفرزها غدده تنشطه ، وجهازه الحسى يعرفه بما يدور حوله ، وجهازه العصبي يتحكم فى كل أنشطته . وبهذا نعاود النظر في هذه الوظائف لنعرف كيف ومدى تبدأ وتنضج ، لتصل الي التكامل الوظيفى الذي سيؤهل الكائن للاستقلال والاعتماد على نفسه كلية . تتصل الفيزيولوجيا النفسية بثلاثة أجهزة حيوية : الجهاز العصبى ثم منظمة الغدد الصماء و العضلات ثم الحواس ، فالحواس تؤهل اتصال الكائن الحى بما يحيط به ؛ بينما جهازه العصبى يترجم هذا الاتصال ويستجيب له ، بحيث يتحكم في جهازيه العضلى والغددى لتتكامل الاستجابة . والاجهزة المذكورة سابقة التجهيز قبل ميلاد الطفل ، لانه يرث صفاتها وكفاءة وظائفها عشوائيا من الاجيال التي سبقته . ولا تتغير هذه الخصائص الا اذا اصيب بمرض أو بحادثة ، أو اذا عولجت بأي من اشكال العلاج الجراحى أو العقاقيري .

حواس الوليد (نظام الاستقبال) عبارة عن أعضاء مكتملة التكوين عند الميلاد ، الا أنها « غير متعلمة » . لانه اذا كان طبيعيا عند الولادة فإنه يقتنى عينين وأذنين ولسان وأنف وجلد لا ينقصهم أى من خصائص النشاط العصبى ، ولكن ينقصهم رصيد الخبرة والتعلم ، الذى سيحقق

للطفل القدرة على استعمالهم لفائدته فيما بعد ، لذلك فهو بالنضج يصبح أكثر حساسية وأحد استقبالا للمثيرات عنه وهو طفل حديث الولادة .

أما الجهاز العصبى (نظام التوصيل) المتكون من بلايين الخلايا العصبية ، التي لا يتغير عددها منذ ميلاد الطفل الي مماته بعد الشيخوخه ، فانه يوصل ما استقبله بأمانة الى مراكز المخ . فإذا كان للطفل أي خبرة سابقه فأنه سيفهم ما استقبله (لون ، شكل ، بلل ، صوت ، الخ ...) أما اذا كان فى أول مراحل خبرته بالحياه ، فهو جاهل ولن يدرك » ولا يستمر جاهلا لمدة طويلة ، لان نشاطه العصبى الدائم ، والتقدم الزمني المستمر ، يضيفان الى خبراته أرصدة من المعلومات تتصاعد بدون توقف . وللمرة الثانية نجد أن جهازه العصبى ايضا يكون مكتمل التكوين عند ميلاده ، ولكنه « خام » غير مصقول بعد ، وبالتالى غير قادر على الاستفادة من كل إمكانياته . لانه سيوصل مثلا شكل لعبه الحمراء الي مراكز الرؤية ، وعمره شهران ، فتتوقف عملية التوصيل هناك .

أما اذا كان عمره سنة ، فستتقدم العمليه الى ما بعدها (نظام الحركة) لان جهازه العصبى المركزي سيثير السمبثاوي ، الذى ينشط النخامية ، التي تثير بدورها الادرينالية (كل هذا لانه فرح لرؤية لعبه) . ولن يتوقف الامر عند هذا الحد ، لانه الان منفعل فهو يريد أن يمسك بلعبته الحمراء . وينتقل التنشيط من منظمة الغدد الصماء المتكاملة الى انسجته العضلية الارادية ، عن طريق الجهاز العصبى ايضا ، فيتحرك ليتناول لعبته . وقد يصيب ويقبض عليها وتبقي فى يده . ولكن هناك احتمال فى وقوعها بعيدا عنه اثناء تحركه نحوها . وينفعل مره ثانية ، فينشط جهازة العصبى السمبثاوي ، ولكنه في هذه المرة يعمل بطريق آخر ، لانه سيضيف الى اثارته ارتفاع ضغطه الدموي واحتقان وجهه

وسرعة نبضه وتنفسه (استجابات الغضب التلقائية) . وتتحول بعد ذلك الحركة من عضلات اليد والاذرع الى عضلات الوجه وأوتار الحنجرة ، لانه سيعبس ثم ينفجر باكيا .

تنفرد العضلات والغدد الصماء بعدم النضج عند ميلاد الطفل . بينما وجدناه بالمقارنة يولد وجهازه العصبى وحواسه مكتملة النمو و النشاط وان كانت غير قادرة على الفهم بعد ، لانها لم تصل الى المرحلة الوظيفية الموسعة التي ستصل اليها بعد نضجه العقلى بتعرضه لبيئة تثرى خبراته. فالطفل بعد شهرين من ميلاده لا يستطيع الوقوف أو المشى لان عضلات سيقانه أضعف من أن تتحمل ثقل جسمه ، حتي وإن ساعدناه على الوقوف . لانه اذا ما رفع من ابطيه فى وضع رأسى سيقوم فعلا بتحريك ساقيه وكأنه يمشى فى الهواء ، ولكنه بمجرد أن يضع ثقل جسمه علي قدميه فإنه يتقوض وكأنه لا سيقان له . ومن الوسائل التجريبية لتحديد النضج ، ثبت أن تخدير الامبسلتوما لم يؤخر وقت نضج عضلاتها لتسبح ، ولم تتأثر التوائم الادمية بالتدريب أو عدم التدريب على التسلق ، لانها كلها تسلقت السلم فى نفس الوقت ، سواء تمرنت أو لم تتمرن . يعني أن انسجة الوليد العضلية لا تكون كاملة النمو، وأن لنموها ونضجها توقيت معين لا يمكن أن يعجل أو يؤخر . التوقيت الحيوى خاصية يتبعها نمو ونضج الغدد الصماء ايضا . فبعضها يعمل منذ الميلاد والبعض الاخر يؤجل نشاطه الى مراحل تصل الي سن المراهقة . فالنوع الا ول يتصل بالوظائف الحيوية التي يعتمد عليها بقاء الطفل حيا . لذا فهي تعمل منذ أن يولد ، لانها تحافظ علي المكونات الكيماوية لدمه ، كنسبة السكر فيه أو مستوي الحموضة أو معدل الاحتراق .

والغدد التي تعمل منذ البداية بكامل كفاءتها للحفاظ علي التوازن الحيوى هى : (١) النخامية (ومسئوليتها قيادة كل الغدد الصماء

الأخري ، عـلاوة على افراز هرمون سوماتوترويين محفز النمو) (٢) والادرينالية (ووظيفة نخاعها تنظيم حيويات الجسم أثناء الانفعال ، ولحائها تصحيح منسوب الصوديوم والبوتاسيوم وبالتالى تأمين سلامه الارسال العصبي) (٣) والدرقيه (ووظيفة هرمونها أكسدة المواد واستخراج الطاقه ثم (٤) البنكرياس المسئول عن حرق السكريات وتنظيم منسوبها بالدم) . وتعمل جارات الدرقية من الساعات الاولى ، ولكنها تحتاج الى الى فيتامين (د) لمساعدة مهمتها . لذلك يكون من الضرورى تعريض الطفل لاشعة الشمس منذ الاسابيع الاولي . ولا تقوم النخامية بكل مهامها منذ البداية . لانها تفرز هرمونات الجونادوتريين أثناء وبعد فترة المراهقة ، والبرولاكتين بعد الوضع . أما الغدد التناسلية فتعد الكائن لانتاج جاميتاته (خلاياه التناسلية) بحيث تنضج عند بلوغه. هذا علاوة عى افراز الهرمونات الجنسية (اثناء المراهقة)وهي المسئولة عن النضج الجنسى وظهور الخصائص الجنسية الثانوية ؛ بالاضافه الي تلك التي تساعد على التأهب الجنسى وعلي التغيرات المطلوبة بالرحم سواء عند الطمث أو عند الاخصاب .

نمو الاتصال :

الى الان والكلام يتعلق بأشياء تحدث داخل الكائن الصغير ، أي أنها أحداث تتطور داخل تكوينه الحي ، ولا تتصل ببيئته الخارجية ، هذا اذا استثنينا حاجته الى الغذاء . والان ننتقل الي نموه المتصل بضرورة احتكاحه بالاخرين .

سنضطر الى تعريف دواعي السلوك الانساني باختصار . الطفل الجائع يبكي لانه يتألم ، ويكف عن البكاء اذا اشبع . وهو يبكي أيضا لانه فقد لعبته ، ويبتسم لانه استردها . أى أنه يستجيب لقوي نفسية تدفعه الي القيام بنشاط هدفه مصلحته . وبعض مصالحه حيوية (الغذاء

والنوم) وبعضها الاخر ليس ضروريا لبقائه حيا ، ولكنه يكتسبه رغما عن ذلك ، لانه ضرورى لبقائه اجتماعيا (الكلام والملاعبة) . أى أن دراسة نمو وظائفه الحيوية الجسمية والحركية والحسية والفيزيولوجية ، لا تستقل عن دراسة نمو اتصاله الاجتماعى social contact الذى يعتبر فى الحقيقة أول مدخل يخص ديناميات النفس بمفهومها بعد-الحيوى.

السلوك الذى يعتمد علي النمو والنضج الجسمى ، يحدث فى الوقت المحدد له تطوريا ، كالمشى أو التسلق أو القدرة على مضغ الطعام . ولا يعرقل ظهور هذه الانواع من السلوك الا أنواع خاصة من الاصابة . أما السلوك الذى يعتمد علي ما تقدمه البيئه للكائن النامي فهو رهن بثرائها، و ضحالة مثيراتها ، والطفل الوليد مفلس اجتماعيا . لانه لا يعرف أحدا ولا يفهم كيف يتم الاتصال بالافراد الاخرين . لذلك يعتمد تطبيعه الاجتماعى socialization علي من يحيطون به كلية.وكل ما سيساهم به من ناحيته سيكون دوافعا ثانوية كحب الاستطلاع والتحسس والاحتماء والمحاكاه .

يتصل الوليد بالعالم الخارجى منذ أول ساعات حياته عن طريق تغذيته. ويكفينا ملاحظته إذا ما هم بالرضاعة بعد طول انتظاره ، أو اذا تأخر عليه طعامه وهو جائع ، لنعرف مدى السعاده أو الغضب أو الألم الذي يمكن أن يخبره .لذلك يعتبر موقف اطعامه من أول مكونات اتجاهاته النفسية نحو العالم المحيط به . وتكون النتيجة أن يبث فيه من يطعمه كل صفاته الانفعالية بدون استثناء ، فقد أجرى Kulka سنة ١٩٦٨ قياسا بالبوليجراف (رسام المؤشرات الحيويه المتعددة) على أطفال وأمهاتهم أثناء اطعامهم (رضاعه طبيعية وصناعية) . ووجد أن الوليد يمر فى معظم الحالات بنفس الانشطة العصبية التي تمر بها الام . ومن هنا تظهر أهمية الهيئة النفسية التي يوليها الوليد من يطعمه ، بحيث يحس بالدفء والحنان وعدم التسرع أو الضجر من القيام بالمهمة . وبذلك تربى السعادة فى الطفل منذ ميلاده عن طريق من يرعاه عند اطعامه وتنظيفه ،

لانه يحس بالدفء والحنان وعدم الضجر من القائم بالمهمة فتنعكس على انفعالاته وسلوكه المبكر والمتأخر .

النظافه الشخصية ثاني أنواع الاتصال بالعالم الخارجي بالنسبة للوليد . فهو يتغذى ولذلك فهو مضطر الى الاخراج . والعملية فى حد ذاتها لا تعتبر مشكلة ولكن الاحتكاك بمن سيتولى تنظيفه أو تمرينه فيما بعد على التبول والتبرز الاراديين هو المحدد الثاني لا تجاهه نحو حاجاته الشخصية ومعاملة الاخرين له بسببها . وتخطىء كثير من الامهات فى الاعتقاد بأن اخراج الطفل الارادى مبكرا هو خير اساليب تعليمه النظافة الشخصية . لان من حق الطفل أن يكون مستعدا أولا للتحكم فى عضلات مثانته وشرجه ، وأن يكون قادرا ثانيا على الافصاح عن رغبته فى قضاء حاجته . والا فإن التعجل فى تعليمه سيصيب كلاهما بالاحباط. وعلاوة على هذا ،فإنه تماما كما كانت الحال عند اطعامه ، فإن لتنظيفه واستحمامه ايضا نفس قواعد المعاملة الحنونة ، حتي تولد فى نفسة قبولا لعالمه الخارجى وميلا الى التعامل مع أفراده .

ثم يولد اعتماد الطفل على الاخرين دافعا جديدا فيه ، هو الرغبة فى الارتباط بآخر ، ويكون غالبا فرد يرعاه أو يشبع حاجاته . ويبدأ هذا النوع الجديد من الاتصال فى حوالى الشهر السادس . ويليه بعد شهر أو أكثر دافع آخر هو الخوف من الغرباء . فيستطيع الطفل الآن أن يميز بين الوجوه والاصوات المألوفة وبين الغريبة عليه . فيقطب أو يبكي أحيانا لمجرد قدوم فرد حديث عليه ، بعد أن كان يبعثر ابتساماته في كل اتجاه وعلى كل من يراه ، ولا يرتبط الطفل بأمه فى كل الحالات ، لانه كثيراً ما يجد الراحة مع أبيه أو جدته ، فيعزف فعلا عن الرغبة في احتضان أمه ، ويفضل غيرها عليها . ومن التجارب الطريفه المعضدة لهذا الاستنتاج ، تلك التى أجريت على قردة مولودة حرمت من أمهاتها البيولوجيات ؛ ولكنها أمضت اسابيعها الاولى مع دمى لا تشبه القردة كثيرا . وفى سنة

١٩٧٠ وضع Harlow and Suomi أجهزة تدر اللبن للقردة الصغيرة من دمي مصنوعة من السلك العارى بينما أحاط دمى أخري (لاطعام لديها) بمناشف كثيفة طرية . وكانت النتيجة أن فضلت القردة الصغيرة احتضان الدمي المغطاه الدافئة عن تلك التى تناولها طعامها .

تشكل اللغة نوعا آخرا من انواع الاتصال الذى يمارسه الطفل مع مجتمعه . وهى تسهل له التحكم في الاخرين وابداء رغباته ومعرفة مطالبهم . وتتحكم مكوناته البيولوجية في استعداده ومقدرتة على النطق أولاً ، بينما تضيف اليها ثقافة مجتمعه عناصرها من رموز الى اصوات الى قواعد لغوية . وينطق الطفل أول كلمة مفهومة (اسم في الغالب) قبل مرور عامه الاول . وفى نهاية العام الثانى يكون قد اقتنى عددا كبيرا من أسماء الافراد والاشياء واوصافها ومن الافعال ايضا ، ولكن النمو اللغوى الاعظم يحدث ما بين العام الثالث والرابع بحيث يتم الطفل عامه الخامس وهو يستعمل ما يقرب من سبعة آلاف كلمة فى جمل سليمة التكوين . وقد ثبت أن الفتيات يتحدثن قبل الصبية وبطلاقه أكبر . وأن الطفل الوحيد اسرع فى النطق وفى اتقان اللغة عن الطفل كثير الاخوة .

ويتم بهذا الاتصال التام بين الطفل وبيئته . ويبقى عنصر أخير هو نوع الحدود التي سيجدها عند التعامل مع الآخرين . فنظام الضبط الذى يقابله يشكل هو الاخر اتجاه الطفل نحو الاخرين وازاء السلطة . وقد يتخذ الضبط شكل العطف ؛ بحيث يكون الثواب مزيدا والعقاب تقليلا منه. أو يتصف بالمادية فيكون الثواب اشياء ينالها الطفل والعقاب اما حرمانا أو جزاء جسميا (كالضرب أو مواجهة الحائط) ، وتتجه التربية النفسية المعاصرة الى الغاء الجزاء المادى خاصة عند العقاب . لان الاحصاءات تدل على أن العائلات التي تمارسه ، تضاعف الصعوبات التي تقابلها فى تنشئة أبنائها . فالطفل المعاقب جسميا مثلا يفتقر الى احترام ذاته ، وكثيرا ما يلجا الي العنف هو الاخر ، أو نادراً ما يكون صداقات دافئة دائمة .

النموالانفعالى:

الانفعال الوحيد الذى يخبره الطفل الوليد هو الغضب ، لان الدافع الوحيد الذى ينشطه هو الألم . ويظل هكذا لفترة تتراوح بين ثلاثة وستة أشهر . ثم تبدأ عملية تعلمه وتطبيعه الاجتماعى . فيتعلم السرور أو الابتهاج لانه اشبع أو احتضن ، أو الامتعاض لان المثيرات لا تروق له . ثم يتقبل ويرفض الاشياء لانه يميل أو لا يميل لها ، بعد العام الاول أو فى منتصف الثانى . لانه الان يعرف كيف يلفظ الطعام من فمه ، أو كيف يطيح الاشياء أو يضربها بيده ، أو كيف تروق له فيجذبها نحوه أو يضعها فى فمه . ولانه تعلم الحب أو الكراهية ، فان سلوك الاقتراب والتحاشى يلاحظان عندما يحتضن لعبته ويصر على النوم وهي بين ذراعيه مثلا ، أو عندما يدير رأسه بعيدا عن ملعقته اذا كان الوارد عليها طعاما لا يقبله . وفى نفس الوقت (بعد سنة ونصف من العمر) يكون الطفل قد تعلق ببعض الافراد والاشياء لانه تعلم الانتماء ولكنه تعلم الانانيه أيضا . وحبه لمقتنياته ، سواء كانت والديه أو لعبته ، يزيده تعلقا بها ، لانه الان مدفوع بالخوف من فراقها ، لذلك فهو ينظر بعين الحذر الى الدخلاء الجدد ، أو يعتبر الاطفال الاخرين أعداء له ، إما لانهم سيشاركونه فى والديه أو فى اشياء أخري تخصه . وتتولد الغيرة لاول مرة لتحكم معظم سلوكه من الان فصاعدا . وتظهر احيانا فى اتجاهه للتفريق حتي بين والديه اذا ما فضل أحدهما على الآخر أو اذا أحس أن أحدهما ينتقص من وقته أو من انتباه الاخر اليه . وغني عن الذكر ،كم يؤثر حب الاقتناء هذا فى الطفل الصغير ، إذا ما حل بالعائله أخ آخر يشاركه فى كل شيء ويتقاسم معه كل امتيازاته وحقوقه .

وحيث أن الانفعالات نتائج الدوافع ، سواء كانت فطرية أو مكتسبة ، فإن الطفل فى عامه الثاني ، يتعلم كل أنواعها ، لانه من الان فصاعدا يمر بخبرات تضيف الى اصناف الدوافع التي يكتسبها ، فتكثر اهدافه

عن ذي قبل ، وبالتالى تزداد انفعالاته تعقدا أو تخصصا ، ويفيده التعليم الاجتماعى هنا فى ممارسة التنازل عن بعض اهدافه (حتى وان تألم لذلك) لان المربى يعده من الان فصاعدا للموازنة بين ما يريده وما لا يجب أن يأخذه ، لانه سيواجه حدوداً اجتماعية جديدة سيضطر الي الامتثال لها عند خروجه الى المجتمع الاكبر .

النمو العقلي:

أكبر المساهمين في دراسة التطور العقلى هو Jean Piaget السيكولوجي السويسرى ، الذى اهتم لسنين عديدة بملاحظة الاطفال لتحديد نمو قدراتهم الادراكية . فبعد أن لاحظ التداخل الشديد بين الحركة وبين الادراك أفرد السنتين الاولى والثانية من عمر الطفل على أنها المرحلة الحس - حركية وفيما يميز الطفل بين نفسه وبين الاشياء. وحيث أنه لم يتعلم اللغة بعد ، فإن اسلوبه فى فهم الاشياء هو معاملتها بيده . ومن العام الثاني الى الرابع ينتقل الطفل الى مرحلة التفكير الانانى ، بحيث يتعذر عليه فهم وجهة نظر الاخرين ، وكل همه ما يريده هو . ومن العام الرابع الى السابع يمر الطفل بمرحلة الحدس . وفيها تظهر قدرة الطفل على التمييز بين تقسيمات الاشياء ورتبها ، ولنه يصل الى هذا التفريق بالحدس والتخمين لا بالقياس أو المناظرة ثم يتطور بحيث يمكنه الحكم على الفروق في الاحجام (٥ سنوات) والاوزان (٦سنوات) والسعة والمسافات (٧ سنوات) . ويكون بهذا قد انتقل الى العمليات المحسوسة (٧ - ١١ سنه) حيث يستخدم المنطق ، ويمكنه استعمال العمليات الحسابية الاكثر تعقيدا ، وتصبح له القدرة على تصنيف الاشياء وسلسلة الحوادث أو الرتب. وأخيرا يصل الى مرحلة العمليات المعقدة (١١ - ١٥ سنه) وفيها تظهر قدرته على التجريد ، وتكوين المفاهيم بالاضافة الى البرهنة على النظريات .

والعمليات العقلية تعتمد على عدد كبير من القدرات . وترأس القائمة

قدرة الطفل الوراثية على الانتباه والتركيز والاستقبال وبالتالى الادراك .
وكلها تعتمد على مستواه الخاص من الاستعداد للنشاط العصبى والقابلية للاثارة أو الفهم . وهى وظائف عصبية تختلف من طفل الى لآخر، ولكنها تتفق في أنها من أساسيات النشاط العقلى المتصل بالواقع الخارجى ، والبادئ لكل العمليات العقليه المعقدة بعد مرحلة الطفوله المبكرة . أما النوع الثانى من القدرات ، فلا دخل له بالواقع الملموس ، ولكنه يتصل بالقدرة على تكوين الصور الذهنيه المتخيلة . وتنمو هذه القدره بعد العام الثالث . فيلاحظ علي الطفل نوع جديد من اللعب . بحيث يتخيل نفسه ممتطيا جوادا ، وهو يلعب بعصا المكنسة ؛ أو تتخيل نفسها أما لاطفالها بينما تداعب دميتها . وتتقدم هذه القدرة عند الطفل بعد الخامسة بحيث يبدأ فى الخلط بين الواقع والخيال . ويختلق كثيرا بنسج قصص من خياله عن أحداث أو أقوال لم تقع . ويعاقب أحيانا على أنه يكذب ، ولكنه فى الحقيقة يمارس عملية عقلية يمر بها كل الاطفال في سنه . وكل ما فى الامر أن بعض الاطفال يكون أوسع وأخصب خيالا عن الاخرين ، أو أكثر إفصاحا لما يدور بمخيلته . توقع ويقظة الطفل الطبيعى تقوده الى الاستطلاع المستمر لما يدور حوله . فهو بذلك يطوف بعينيه وأذنيه بكل أنحاء محيطه . بل ويتوقف فجأة اذا ما سمع أو رأى حدثا جديدا ، حتى وان كان ما هو قائم به أكثر جذبا (كاللعب أو التغذية) .
وبانتهاء الشهر السادس ، تكون هذه وسيلته فى جمع المعلومات . وتبدأ عملية التذكر فى الوضوح عند نهاية السنة الاولى ، لانه يشير الان الى فمه أو أنفه اذا ما سميا ، أو يزحف ثانية الى مكان اللعبة الاولى .
ويصبح تذكره أكثر حدة بعد ١٨ شهر تقريبا ، لانه الان يدخر مفرداته اللغويه الاولى ، ويعرف طريقه الى الاشياء المخبأة . وفى نهاية العام الثالث ، لا يفوت الطفل أى شئ حادث ، بل ويركز انتباهه على أقل الاشياء وضوحا أو اثارة ، لانه الان فى أوج عملية جمع المعلومات .
وباقتراب السنه الخامسه من عمره يكون الطفل قد اتقن الملاحظة وخزن

المعلومات ، بحيث يكون من المحرج أحيانا سماع كثير من الاطفال يرددون الطرائف والخبايا التي تدور في منازلهم ، لا لشئ الا لان الكبار يقومون بها عفوا ويدون انتباه ، بينما الاطفال لهم بالمرصاد ، لان قوة ملاحظتهم تكون قد وصلت الى حدتها القصوى . وهذه القدرة هي سند الطفل النامي في عملية التحصيل الدراسي التي سيبدؤها في الحال .

العمليات النفسية

psychological processes

عندما يولد الطفل ، يكون مجهزا بعدد كبير من الاجهزة والانظمه التي تؤهله منذ يومه الاول للبقاء على الحياة ، ثم الاستمرار فيها بكل ما تتطلبه من إستعداد وتيقظ . لانه سيلاحظ الاحداث والاشياء ؛ ليبني على ملاحظاته هذه طريقته في الحياة واسلوبه في التعامل معها ومع مشكلاتها ؛و مع ما يريد أن يخوضه من خيال أو استكشاف أو اختراع. واذا اردت أن تقارن ما يمر به هذا الطفل الوليد ، صفر المعارف والخبرات ، بما أنت قادر عليه اليوم وأنت بالغ ناضج لان معارفك وخبراتك المتراكمة قد زادت حياتك ثراء وتفكيرك خصوية ، فما عليك إلا أن تتمعن في نوع العمليات النفسيه التي ادت الي حالك اليوم . ولذلك تجد معظم الكلام في الجزءين التاليين يخاطبك كراشد ، حتى تدرك ما مررت به لان معظم قدراتك في رشدك لم تتغير عما كانت عليه وأنت طفل، الا في المهارة والخبرة والتعقيد .

العمليات النفسية التي يمر بها الكائن الحي ، سواء كان الطفل

أوالراشد ، ليست وقفا علي قدراته العقلية (اي ذكائه) فقط . لانك قد تسمع شيئا (تحس) فتريد (أنت الان مدفوع) أن تتذكره (مستخدما جهازك العصبى) ولكنك تنساه بعد ساعه لتصاب بالاحباط . فستضطر الى الرجوع الى منبع المعلومة لتكرر محاولة التعلم ولكنك تجده قد انصرف ، لتفشل اخيرا فى استعادة ما اردت استرجاعه . فى كل هذه الاثناء أنت استخدمت تجهيزات عصبية (عقلك) ونفسية (شخصيتك) ، لكي تصل بسلوكك الهادف الى حقيقة اردتها . وسنسمى ما مررت به الان : - العمليات النفسية .

استقلال العمليات النفسية أو استمرار واحدة منها دون الاخريات أو إمكان عزلها عن الباقيات أمر مستحيل الحدوث . لذلك ليس من السهل اختيار نقطة البداية عند الكلام فى موضوع العمليات النفسية التى توصل الفرد منذ ولادته الى التعرف علي الاشياء حوله لتحدد تعامله معها وسلوكه العام فى باقى محيطه . فأنت عندما تقرأ هذه السطور لابد وأنك ترى الحروف السوداء على الصفحة البيضاء . ولابد وأنك قد تعلمت تفسير هذه الحروف ، وتجميعها فى الفاظ ومعاني تخص هذه اللغه بالذات . ثم اذا وردت أفكار ترتبط بأخري سبقتها فى نفس الكتاب فانه مطلوب منك أن تتذكر ما قرأت منذ لحظة . أو اذا أشارت جملة الى معلومات بسيطة سابقة ، درستها وأنت فى القسم الثانوي ، فلابد وأنك قادر على تذكر معلومات قديمة . أى أنك كنت فى الحقيقة حائزا علي قسط كاف من الذكاء لكي تنتقل من المدارس الى الجامعة . وهكذا يمكننا أن نضيف الى هذه العمليات والصفات قائمه طولها صفحات هذا الكتاب، ان أردنا ، ولكننا سنتناول قواعدا بسيطة من العمليات النفسية التي تعتبر مسئولة عن نشاطك فى الحياة . وعليك أن تفهم أنه من المستحيل أن تستقل واحده من هذه العمليات بذاتها ، لانك عندما تنشط فى صحوك فانك تعتمد عليها كلها فى نفس الوقت .

العمليات النفسية الاساسية

يتمتع الطفل الصغير بعدد من القدرات النفسية الولادية (المستعده للعمل منذ يومه الاول) . وهذه القدرات هي ذاتها التي تتمتع بها اليوم وأنت راشد لانها ركيزة نشاطك . و يمكن تقسيم العمليات النفسيه الاساسية الى اربعة : الحس - الادراك - التعلم - الدافعية . فالحس مسئول عن استقبال الانواع الاساسية من الاثارة . ولدى الانسان أجهزة خاصه تمده بالمعلومات الخاصه بكل مثير . ولكن الحس وحده لا يكفى . لان احساسك بالضوء أو الصوت ينتظم بعد استقباله في مجموعة مدركات ترتبط بأشياء أخري ادركتها قبلا . فاذا سمعت أول الفقرات الموسيقية في السلام الوطنى ، فانك ستقف توا ، لانك تعرفت عليه ، لا كحروف موسيقية فقط ، ولكنه كمعزوفة كاملة لها معناها الخاص . وهذه العملية تسمي الادراك (الذى يلي الحس) . ولا يفوتنا أن نذكر هنا ، أنك لن تدرك ، فى هذه الحالة ، اذا لم تكن قد تعلمت . وتعلمت معناها أنك تعرضت للشيء مرة أو مرات من قبل ، حتي تربط ما تحس به وتدركه هذه الاونة بما خبرته فى الماضى . وليس التعلم اكاديميا فى كل الحالات. لانك تتعلم احيانا كيف تقفز الحاجز بدون اصابة ، أو تكتب على الآلة الكاتبة بدون النظر الى مفاتيحها ، أو تصيب الهدف المتحرك بالبندقية ، أو تخرج من مأزق بقصة كاذبة محكمة. وفى كل الحالات نجدك مدفوعا لان تفعل الشيء الذى أنت بصدده . وليست الدوافع كلها اساسية مثل الجوع والعطش والجنس ، لانك تعطى ما كنت تهم بأكله وأنت شديد الجوع . لذلك نجد دراسة الدافعية أكثر العمليات النفسية غموضا وتعقيدا .

الحس Sensation

نحن محاطون بمثيرات تتغير باستمرار . فما سمعته الان قد لا يتكرر مرة أخري اليوم . أو الظل التى تقف تحته فى هذه الدقيقة لن يكون هناك بعد ساعة . وما تراه أحمرا أو اصفرا بالنهار ستراه رماديا بالليل. أو الالم الذى يسببه لك جوعك الشديد سيزول بمجرد تناولك للطعام ، وهكذا . وحيث أن العالم حولنا في حركة دائمة ، فاننا مطالبون بالانتباه الى هذا التغير ، والا فان سلوكنا فى الحالة بعد التغير لن يكون مناسبا ، وبذلك اما يصيبنا الاذى ، أو يعتبرنا الاخرون غير طبيعيين .

الاحاس بالشئ أو بالتغير الحادث له يعني الاعتماد على عمليتين . الاولى هى التوصل الى وجوده أو عدم وجوده . كأن تحدق نظرك لتتأكد مما ترى ، أو ترهف سمعك لتواصل متابعة حديث هامس . والثانية هي التفريق بين الاشياء ، كأن تفهم أن هذا عود قصب يابس وذلك طازج ملىء بالعصارة ، لان لون الاول قاتم وملمسة رخو ، بينما الثاني ممتلئ وردى اللون . وفى كل الحالات تلزمك الاجهزة الخاصة بالتعرف على هذه الصفات . والحواس المعروفه خمس : الابصار والسمع والشم والمذاق واللمس . ولكن العلوم الحديثة تميل الى إضافة احساسات أخرى تعتمد على أكثر من واحدة من الخمس السابقه وهي : الاحساس بالاتزان (ومركزه الدهليز بالاذن) والاحساس بالضغط (ومعظم مراكزه بالجلد وبعضها بالاحشاء والمفاصل) والاحساس بالالم (كل الخلايا العصبية) والاحساس بالحرارة والبرودة (أجهزة اللمس) والاحساس بالحركة (العضلات والمفاصل) والاحساس الكيماوي (الشم والذوق فى الاحساس الواعى - والاورطى والهيبوثلاموس فى الحس الكيماوى التلقائى بالجسم) - ويترك شرح الوظائف الحسية بالتفصيل لدارسى فيزيولوجيا السلوك . ولا نتكلم هنا عن الحواس الا باختصار .

تعتمد الرؤية فى معظم الاحيان على الضوء . نقول في معظم الاحيان لانه يمكنك أن ترى اشياء حتي عند انعدام الضوء ولكن فى حالات نادرة جدا منها أن تقفل جفونك ثم تضغط مقلة عينك بأحد أصابعك . عندئذ سترى ضوءا داخل عينيك مع أنها مقفله . وكل ما فى الامر أنك بضغطك قد اصبت عصب ابصارك فى قاع العين ، فصدر بدوره هذه الاثارة الى مراكز الرؤيه بالمخ ، فرأيت أنت ضوءا . وأحيانا أخرى ، يمكن اتمام الرؤيه تجريبيا باثارة مركزها بالمخ مباشرة . ولكنه كما قلنا . فهذه حالات نادره لا تمارسها أنت فى العادة . وعليك أن تطالع فيزيولوجيا الابصار لتعرف كيف تتم هذه الوظائف . وحيث أننا تكلمنا عن اشياء تراها (وردة ، لون قميص صديقك) ، وعن عوامل تساعدك على هذه الرؤيه (الضوء) فاننا نستطرد فنعرفك بأن الضوء وحده لا يكفى لان هذا الشيء قد يكون بعيدا جدا فلا تراه ، أو يكون من نفس لون الخلفية ولا ظل له فلا تراه ايضا . أي أن متطلبات الرؤية الجيدة ، بالنسبه للشيء المرئى، هي أن يكون قريبا منك نوعا ، واضحا من حيث التباين فى اللون والحدود والتضاريس ، وأن يكون حجمه من التفصيل بحيث يمكنك أن تميزه عما حوله ، وأن يكون ثابتا نوعا ما حتي لا تتسبب سرعته في طمس معالمه . ويقى الطرف الاخير والاهم فى عملية الرؤية وهو المستقبل الحسى المسئول عن ابصارك : العين . وعلى سلامتها تتوقف حدة ابصارك . فانت ترى جيدا لأنك لديك عضو كروى فى مقدمة رأسك، لا ترى من سطحه الا جزءا صغيرا ، يسمي المقله . جزء العين الامامى به عدسة شفافة هي نافذتك المطلة على الاشياء حولك . وجزؤها الخلفى بداخل الرأس تبطنه شبكية ملآى بخلايا عصبية من نوعين . نوع يستقبل الرؤية بالنهار ونوع يستقبل الرؤية بالليل . وتتجمع كل هذه المستقبلات فى بؤرة عصبية عظمي اسمها العصب البصرى ، الذى يرسل المعلومات المجمعة الي مراكز الابصار فى مؤخر الرأس ، حيث يفهمها المخ ويشرح لك محتواها . وهنا فقط ترى . واذا كان عضوك هذا

سليما تماما رأيت بوضوح . ولكنه اذا تخلف فى بعض وظائفه ، لانه غير مضبوط التكوين أو لأن غذاءه غير سليم أو لان ضغط سائله مرتفع ، فانت تواجه اضطرابات فى الرؤية تتدرج من خاطئة الى ضعيفة الى منعدمة .

والسمع ، تماما كالابصار ، يتيح لنا الفرصة للتعرف على التغيرات الصادرة حولنا . ومع أن اعتمادنا علي حاسة السمع أقل بكثير من اعتمادنا على حاسه الابصار ، الا أن تلف هذه الحاسة يجعل صاحبها معزول عن عالمه بطريقة تقلل من انتباهه العام وادراكه للتغيرات ، حيث أن الاصوات تعتبرمن أوائل المنبهات التي توجه الرؤية والشم بعد ذلك . وجهازك المسئول عن سمعك هو الاذن . ولا تري من هذا الجهاز سوى طرفه الخارجي ايضا ، لان جزءه الاعظم داخل الجمجمة . ومن الطريف أن الجزء الذى تراه ليس ضروريا للسمع بتاتا ، لاننا نستطيع أن نسمع بدونه . وكل ما يلزمنا في الحقيقه هو الجانب الداخلى من القناة الهوائية التى تظهر فى مؤخر الاذن . وهذا الجزء هو الطبلة . لأن موجات الصوت تطرق هذه الطبلة فتحرك عظيمات صغيرة وراءها (المطرقه - السندان - الركاب) ونحن الان فى الاذن الوسطى ، حيث يتسبب اهتزاز هذه العظيمات فى اهتزازات بالقوقعة ، ونكون قد وصلنا الى الاذن الداخلية ، وانتقلنا الى حيز مائى بدلا من الحيز الهوائى بالاذن الوسطى . وفيها يستقبل عضو كورتي هذه الاهتزازات عن طريق خلايا شعرية متخصصة تنثنى فى السائل لترسل بطريقتها الخاصة ، المعلومات الصوتية كلها الى العصب الدماغى الثامن الخاص بالسمع . وعندما يفهم المخ ، فى منطقته السمعية ، فحوي هذه الرسالة ، عندئذ فقط تسمع أنت . أو على الاقل تفهم وتميز ما سمعته . وتماما كما كان الحال فى حاسة الابصار فللمقدرة على سماع الاصوات بوضوح متطلبات متماثلة . جزء منها يخص المثير وهو أن يكون واضحا ، مرتفع ،

ومستقلا بما فيه الكفاية ؛ ثم جزء آخر يخص المثار وهو أن يكون عضو سمعه سليما وأن يكون قريبا من المثير بما فيه الكفاية لتمييزه عن باقى المحيط وأن يكون مفيقا ومنتبها وعاقلا بما يكفيه لهذا التمييز .

والحواس الثلاث الباقيات أقل أهمية بالنسبة للانسان عن سمعه وبصره . فحاسة اللمس تنبهه الى اشياء تمس جلده مباشرة ، فيميز بين ملمسها وقوة ضغطها ودرجة حرارتها ومدي ما تسببه من ألم له . وحاسة الذوق تنبهنا كيماويا ، عن طريق حلمات تكسو اللسان ، الى تغير الطعوم المذابة في فمنا ، وهي أقدم الحواس من الناحية التطورية ، فإن الانسان لم يعد يعتمد عليها اليوم كما كان في حياته البدائية . ولكنه يرتبط بها فى حالات كثيرة عند اعادة التعرف علي بعض الاشياء التي تعلمها . كمعرفة الفرق بين رائحة زهور البرتقال وبين القرنفل ، أو سيولة لعابه عند شم رائحة الشواء ، أو التنبه التلقائى عند شم رائحة الحريق ، بل ونجد أحيانا أننا نربط بين روائح معينه وأحداث تخصها ، بحيث نسترجع الاحداث بمجرد اثارة الروائح لذاكرتنا .

الادراك Perception

أنت لا تعبر الطريق اذا رأيت النور الاحمر . أنت تعرف توا أن المتحدث فى التليفون هو والدك . أنت تقول أن هنا مخبزا لانك شممت رائحة الخبز الساخن . أنت تؤكد أن قطعة القماش هذه من الصوف وليست قطنا . كل هذه عمليات تقوم بها ، لا لانك رأيت لونا أحمرا أو لانك سمعت صوتا أو شممت رائحة أو لمست شيئا ، ولكن لانك ترجمت هذه الاحساسات الى مدركات : اشياء تفهمها علاوة على الاحساس بها

يعني أن الخطوة الاولي هي استقبال reception بينما الثانيه هي ادراك الشيء الحادث perception .

الاداك هو العمليات التي يقوم بها الفرد عندما يحس ، حتى ينظم المتجمع لديه من احساسات فى صيغة كلية لها معناها الخاص بها ، ولها صلتها بغيرها . فاذا أنت رأيت طبقا موضوعا على منضدة فى مستوي نظرك فانك ستعرف أنه مستدير ، ولو أنك فى الحقيقة ستراه بيضاويا. أي أنك ستتجاوز ما استقبلته فعلا (طبق بيضاوى) لتدرك أنه طبق مستدير ، لان هذا المثير له صلة بمعلومات قديمة تشير الي حقائق أخرى غير التي تحس بها الان . وستمر بنفس الخبرة اذا رأيت اخاك مقبلا من أخر الشارع وطوله قياسا الان لا يزيد على عشرة سنتيمترات .

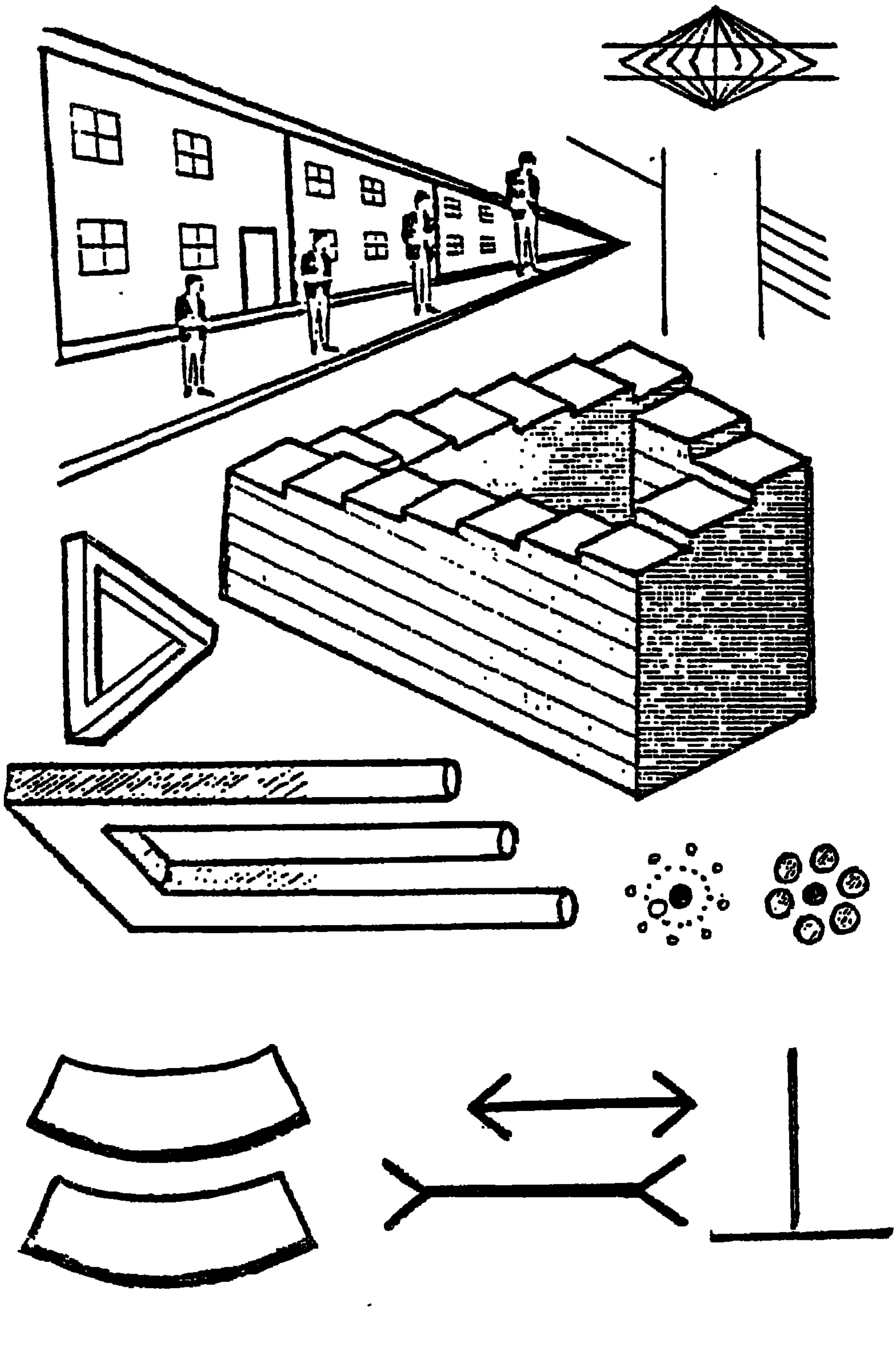
ونحن نربط ادراكنا للشئ من حيث الحجم أو القرب أو القوة الخ .. بقوانين نختار منها ما يناسب سرعتنا أو اسلوبنا فى حل المشكلات . فنحن ندرك أولا الاشياء الاقرب والاوضح والاكثر استقلالا والاشد قربا من معارفنا . ونميل الى تجميع المتشابهات فى وحدات أكبر ، وتفريق الاشياء التى لا تتماثل الى مجموعات أصغر متشابهة . وأخيرا نحاول ادخال عنصر الاستمرار فى اشياء متقطعة أو ناقصة . فاذا قرأت الكلمات التالية جهورية مصر العربية ، فانك ستدركها صحيحة ، حتي وان كان حرف الميم ناقصا فى كلمه جمهورية . واذا مررت تحت اعلان مضيء داخل دائرة ، وكانت إحدى لمبات الدائرة مطفأة ، فانك ستدركها ايضا على أنها دائرة كاملة . واذا انقطعت مكالمتك التلفونية لجزء من الثانية ، فانك ستستطيع أن تفهم بالرغم من ذلك إجمالى الجملة التى تاه جزء منها .

وللرؤية قواعد تساعد على ادراك مرئياتها . فالعلاقة بين أحجام الاشياء المتقاربه تعضد الادراك السليم . وقد تخدعه احيانا كما يظهر فى خداعات ميولر – لاير البصرية . وعلاقة الاججام ببعضها تظهر واضحة

عندما تلاحظ أن قرص الشمس يصبح أكبر عندما تغيب في الافق ، عنه عندما يكون وحيدا فى منتصف النهار . والعلاقه بين الاوضاع ندركها بوضوح أكبر عندما نري شيئا يحجب آخراً ، لان وضع الاول يتقدم على الثاني من جهتنا . ولا ندركه بنفس السهولة اذا كان متقدما عنه بدرجة كبيرة ولا مؤشر بينهما يشير الى مدى بعد الواحد عن الاخر . ويحدث هذا الخطأ فى التقدير في الصحراء أو مياه البحر ، أو في الجو . فقد تظن أنك اقتربت من الشاطئ وانت مخطئ . أو يسيء الطيار تقدير المسافات عند اختلال أجهزة ارشاده الالية فيرتطم بطائرة أخرى أو بجبل أو بالارض .

وللسمع ايضا عوامل تساعد على ادراكه بوضوح غير قوة ووضوح واستقلال المثير الصوتى ، منها زاوية انطلاق الذبذبات الصوتية . فاذا كان مصدر الصوت أمامك أو خلفك تماما ، ولم تعلم بذلك ، فانه من الصعب عليك تحديد مكان صدوره . أما اذا انحرف المصدر تجاه واحدة من اذنيك فان ذلك يسهل عليك المهمة . واذا كانت أحدى أذنيك ضعيفة السمع ، فانك ستظن كل الاصوات قادمة من ناحية السليمة ، لانك تسمع بها بنسبة أكبر .

الادراك فى حد ذاته عمليات تتطلب منك أنت أيضا بعض الشروط . فعلاوة علي سلامة أعضاء الحس التي تستقبل المثيرات حولك لتوصلك الى ادراكها ، عليك أن تكون أيضا مفيقا ، متنبها ، مستعدا للادراك ، ملما ببعض المعلومات السابقة عن المطلوب ادراكه ، قابلا لأن تحرك أجهزتك العصبية بين حس وتذكر وربط واستنتاج . لانك قد تكون مفيقا فى صحبة اصدقائك ولكنك لا تسمع اسمك ينادى . وذلك لانك فى عالم آخر حتى وإن كانت عيناك موجهتان الى محدثك ، أو كنت تتظاهر بالانصات .



ثم هناك عامل آخر هو الدافع للادراك . هل هناك ما يدفعك لان تلتفت لتصغى الى برنامج اذاعى عن أحدث الطرق في تطويع الطاقة الشمسية. أم أنك تترك المذياع يثرثر لنفسه . ومع ذلك فالطاقة الصوتية صادرة ، وهى لغة غير غريبة عليك ، ولكنك عازف عنها فلا تدركها ، لانه لا دافع لديك لادراك ما يطرق اذنك فعلا . وفى هذه الحالة انت تسمع ولكنك لا تدرك .

وللادراك الحسى عتبات فيزيقبة محددة يترك المجال للكلام عنها فى شرح فيزيولوجيا السلوك فى غير هذا الكتاب ، وهي الحدود الدنيا والقصوى للاثارات الحسية . فانت لا تدرك صوتا لم تصنع الاذن الانسانية لسماعه لانه فى العتبات الدنيا للمسموعات . ولن تدرك جسما صغيرا يسقط عليه الضوء وينطبع علي شبكات عينيك ، ولكنه من الصغر والبهتان فلن يمكنك ادراكه . ولن تراه الا بمجهر أو بعدسة مكبرة ، وعندئذ تكون قد خفضت عتبة حسك البصرى الى ما هو ادنى من الطبيعي لتصل الى هذا الادراك بمساعدة اشياء اخرى (العدسات المكبرة) .

ولا نخفى عليك القول بأن الانسان يخطئ احيانا فى ادارك اشياء واضحة ، حتى وان كان ذكيا أو ركز انتباهه الى أقصى حد . ولنأخذ على سبيل المثال الاشكال المصورة بالصفحة السابقة . فاذا أنت نظرت الى الرجال الاربعه بالصورة العليا ، لاستنتجت أن الايمن أكثر طولا من الباقين ، فى حين أن أطوال الاربعه واحدة . ثم قد تصدق أن السلم المرسوم على سطح الجدان الاربعة حقيقى ، في حين أن استمرار نزول درجاته المتصله شئ مستحيل . تماما كالشكل التالى الذى يتكون طرفه الايمن من ثلاث انابيب تنتهى الى ضلعين متوازيين . وبنفس الاسلوب ، نتعرض اثناء انفعالاتنا وادراكنا للمثيرات المحيطة بنا، لنفس الخدع احيانا فنصدقها ونبنى عليها سلوكنا . ألم تتهيأ أحيانا أن الاسم الذي

سمعته ينادى هو اسمك ، ثم صحح غيرك ؟ وهل احسست بالغضب لما فهمته مما قاله الغير ، ثم بعد شرح ما قصدوه غيرت رأيك وانفعالك ؟ وهل كدت تنزل من منزلك مسرعا يوما لتكتشف أنه يوم عطلة ولا أحد يعمل ؟ وما ألعاب الحواة الا مثال بسيط يتصل بالمهارة فى خداع حواس النظارة .

التعلم الشرطى Conditioning

الطفل مثلك تماما ، أو بالاصح أنت مثله تماما . وكل ما فى الامر أنه ينقصه التكرار. فمنذ صغرك وأنت تمر بخبرات لا تعد ولا تحصى ، تخرج منها مكتسبا شيئا جديدا يسهل لك أمورك اليومية أو يفتح لك أبوابا لاشياء أخرى تكتسبها . فانت اليوم تعقد رباط حذائك وتفكه بكل سهولة يوميا . وتستطيع أن تتخاطب بلغتين على الاقل . ويمكنك أن توصل سلكا كهربائيا بآخر ، أو تقود سيارة ، أو تناقش نظرية النسبية . وقد عرفت ايضا أنواع السلوك الحسن والردىء ، واستطعت أن تفرق بين اللياقة وعدمها . باختصار : تعلمت . ومهما حاولت ، فانك لن تدرك عمق واتساع معني هذه الكلمةالتي تتصل بكل شىء فى حياتك . وقد نساعدك على معرفة قيمة التعلم هذا اذا ما افترضنا أنه بالامكان مسح كل آثار التعلم الذى اكتسبته منذ ولادتك . يمكنك أن تتخيل اذن فردا في العشرين من العمر مثلا يعتمد على الاخرين فى كل شىء ، لانه لا يتكلم ، لا يعرف كيف يتناول طعامه ، أو كيف يحضره ، أو كيف يتلافى الارتطام بالاشياء أو الوقوع من السلم ، أو فهم الاصوات والالوان والطعوم والروائح ، أو التعرف على الاصدقاء والاماكن والاخطار .

وحيث أن التعلم من العمليات النفسية ذات الاهمية القصوي بالنسبة للمفكرين في كل مدارس علم النفس ، فاننا نجد الميدان زاخراً بكل

الاتجاهات فى دراسته . فقد درست قواعد التعلم ، عملياته ، دوافعه ، متطلباته ، نجاحه وفشله ، طرقه ، نتائجه ، وانتقال آثاره . لذلك لن تقابل كل هذه التفاصيل هنا ، ولكنك ستتعرف على ملخص عام عن الموضوع.

تعريف التعلم باختصار هو : « اكتساب معرفة نتيجة للتمرين » فالتعلم يشير الى المرونه التي تفرضها الخبرة على سلوك الفرد . وهذه الخبرة معناها اكتساب الفرد لمعرفة جديدة . وقد تكون المعارف واضحة يهدفها الفرد ، مثل التعلم الاكاديمي ، أو غير واضحة وغير محسوسة ، كالحركات التي يتبناها الانسان واحدة تلو الاخري وهو يتعلم لعب التنس أو تدخين السجارة أو ركوب الدراجة . وخير وسيلة لدراسة التعلم المركب هي تقسيمه الى ابسط وحداته . واستنتج علماء النفس أن ابسط صور التعلم هو الاستجابة المباشرة لمثير بسيط (غير مزكب) .

وكان الحدث البادئ لهذه الدراسات عام ١٩٠٤ هو تجارب ايفان بافلوف ، الفيزيولوجي الروسى (١٨٤٩ - ١٩٣٦) . فبينما كان بافلوف يدرس الغدد اللعابية فى الكلب لاحظ أن بعض كلاب معمله تدر لعابا أكثر من المعتاد ، في غياب مسحوق اللحم الذى كان يستعمله لادرار غددها تجريبيا . وبما أن الظاهرة اثارت اهتمامه الى درجة كبيرة ، فانه غير اتجاهه فى التجريب وبدأ يبحث عن السبب فى زيادة لعاب الكلب . وتوصل الى أن غدد لعاب الكلاب تفرز اذا هى سمعت أو رأت من يقدم لها طعاما أصلا . وتأكد من ذلك بعدما قرن مثيرا جديدا مع الطعام عدة مرات ، ثم قدمة منفردا فسال لعاب الكلاب بنفس الطريقة . وظهر فى الميدان مصطلح جديد لاول مرة هو التعلم الشرطى . ومعناه الاستجابة لمثير ، لا لانها تتبعه أصلا ، ولكن لانه اقترن بالمثير الاصلى لهذه الاستجابة لمدة كافية ، وجهت الحيوان الى نفس السلوك تجاه المثيرين الاصلى ، وقرينه الذى سمى هنا : المثير الشرطى . وحيث أن السلوكين فى الحقيقه لسبب واحد ، فقد سمي جريان اللعاب للطعام استجابة غير

مشروطه unconditioned response وجريانه عند غياب الطعام استجابة مشروطة conditioned response. وهذا المثير الغير اصلى (الدخيل) conditioned simulus . ولم تتوقف تجاربه عند هذا . لانه وجد أن تكرار تقديم المثير الجديد بدون طعام ادى الى انطفاء extinction الاستجابة ، لانها لم تدعم بالطعام . وعند تدعيمها reinforcement مرة أخري ظهرت تماما كما كانت فى البداية .

لم تتوقف تجارب التعلم الشرطى على الحيوان . فقد درست مثلا استجابة الجفن المشروطة عند الانسان . والمعروف أن الجفن ينسدل ، بفعل انعكاس عصبى بسيط ، إذا ما تعرضت العين لدفعة هواء . فقرنت التجارب ومضات ضوء مع دفعات الهواء وكانت النتيجة أن تعلم الافراد الاستجابة لهما معا بنفس الطريقة . وعندماتوقف الهواء استمرت الاستجابة للضوء على نفس المنوال .

ثم وجد سكينر (١٩٣٨) أنه فى تجارب التعلم الشرطى . لا يمكن أن تقوم الاستجابة الشرطية للمثير الشرطى اذا لم يكن وراءها اصلا مثير حقيقى ينتظر الحيوان (الطعام) . لذلك قرر أن يوجه هذا النوع من التعلم الى وجهه أخرى . فبدلا من انتظار الطعام ، أو توقعه anticipation من المحيط ، كما هو فى التعلم الشرطى ، قرر سكيز أن يبحث فيما يفعله الحيوان ، اذا كان الطعام موجودا فعلا طوال الوقت ، ولكنه ليس سهل التناول . أى كيف يغير الحيوان محيطه للوصول الى طعامه . أو كيف يتعامل مع الاشياء حتى يصل الى جائزته :reward .

هذا التعلم المجزى instrumental conditioning الذي يبحث فيه سكينر لم يكن حدثا جديدا فى علم النفس . لان ثورندايك نشر سنه ١٩٢٨ فى Psychological Monographs ، ورقة خاصة عن دراسته التجريبية لذكاء الحيوان ،وضح فيها أن الاستجابه التي تتبعها حالة جديدة بالمثار ، هي نوع الاستجابات المحتمل تكرارها (تعلمها) . وسمى هذه القاعدة :

قانون الاثر ، ولكن سكينر فى الحقيقه لم يبحث في الخطوة الاخيرة فقط وهي اتمام التعلم ؛ لانه بحث في كل الخطوات التى تسبقها ، كالحركات الهادفة : الخاطئة منها والمصيبة ، وسرعة الوصول الى الهدف بعد تكرار الحركة السليمة ، وتغير الدفع والسرعة اذا لم يكن راغبا فى الوصول الى هدفه أو اذا كان مجهدا .

وبهذه الطريقة نستطيع أن نقارن بين التعلم الشرطى الكلاسيكى (البافلوفى) وبين التعلم الشرطى المجزى . ففي الاول يتحكم المجرب فى زمن تدعيم التعلم (اعطاء الطعام) . أما فى الثاني فان الحيوان هو المتحكم فى تدعيم تعلمه (تناول الطعام) . وبذلك ننتقل الي النوع الثالث والاخير وهو التعلم الشرطى الآلى .

التعلم الشرطى الآلى operant conditioning يختلف عن المجزى فى ناحية واحدة ، هو أنه لا يكون هادفا فى محاولاته . لان الحيوان في هذه الحالة يوضع فى علبة سكينر وأمامه واحدة أو أكثر من القضبان أو الاقراص التي يمكنه أن يضربها أو يدقها لكي تعطيه طعامه . فهو يستجيب بطريق التعيث ، أى المحاولة والخطأ ، ليكتشف أى يجد هدفه . وفى هذه الحالة تسجل عدد محاولاته ، ومنحنى سرعتها لمعرفة مستوي الالية فى استجاباته .

وقد تظن فى نهاية الامر أنك تدرس شيئا لا طائل تحته . ولكنك فى الحقيقه عرفت الان أولى أنواع التعلم التي مررت بها وأنت طفل . والتى تمر بها أحيانا كثيرة وأنت فرد راشد . فهل تعرف ما الذى منعك من الاستمرار فى القاء كوب الماء أو اطباق الطعام والتلذذ من الاصوات الصادرة من تكسرها ؟ وهل تعرف لماذا تستذكر محاضراتك حتى وإن كان الجزاء مرتين أو مرة فى العام الواحد (نتيجة الامتحان) ؟ وتصور ماذا كنت تفعل لو كانت امتحاناتك مرة كل شهر ؟ أو مرة كل اسبوع كما هو الحال فى كثير من الجامعات بالعالم . ثم ألم تقل احيانا : دعني

أصلح هذه الآلة ، ربما نجحت (مع أنك لا تفهم فيها شيئا ولكنك قد تتعلم) . وستجد ، عند الكلام عن التعلم في الجزء التالى لهذا ما يفيدك بالعمليات الاكثر تقدما والاقل بساطة عن التعلم الشرطى .

الدافعية Motivation

لمعظم السلوك سبب . فالطفل يبكي حتي تطعمه ليتخلص من آلام الجوع . والقطة تحتك بك لكي تداعبها . وأنت الان تقرأ هذه السطور لانك لا تريد أن تحصل على مزيد من المعلومات . ومعظمنا لن يدخل منازلا أصحابها غائبون . باختصار نحن نفعل الشئ لاننا مدفوعون لفعله. ومعظم أفعالنا لها هدف . ومعظم ما نفعله أيضا لهدف . والوصل الي الهدف يجب أن تسبقه قوة خاصة ، تسمي الدفع .

لهذا الدفع (أو الدافعية) متتالية خاصة . وهي تبدأ دائما بدافع (جوع أو ألم أو توتر) يتسبب في استجابة هادفة ، باعثها incentive هو تخفيف الدافع drive reduction (اشباع أو ازالة الالم أو التوتر الخ). وعليك أن تتعرف الان على معاني المفردات التي استعملت فى الفقرة السابقة . فكلمة دافع معناها الحالة التى ينشط بسببها السلوك والتى تتسبب في توجيهه . ولا يعني هذا أن الدافع . شيء واضح ملموس كالقلم الذى تكتب به . ولكنه شئ يقودك بينما أنت لا تراه ولا تلمسه . ومع ذلك ينتهي الامر أن تهدف الي اشياء ملموسة فى معظم الاحيان ، لكى تخفف من حدة هذا الدافع . فانت غير قادر على وصف العطش (دافع) . ولكنك تبحث (استجابة هادفة) عن كوب ماء (هدف) لان كل ما تريده الان (باعثك) هو الارتواء (تخفيف الدافع) . يعني الهدف

والباعث شئ وحالة فى مقدورهما ازالة أو اشباع تخفيف هذه القوة الدافعه . فالسرير مثلا هدفك وأنت متعب . والنجاح باعثك على الاستذكار . وهكذا .

والدوافع نوعان : دوافع توازن حيوى homeostatic drives ودوافع مكتسبة أي متعلمة Learned drives والنوع الاول هو المعروف ايضا باسم الدوافع الفزيولوجية ، أي الناتجة عن مطالب وظيفية بالتكوين الحيوي (الجسم) . وهذه هي الجوع - العطش - الالم - الجنس .

كان المعتقد سابقا أن للجوع سبب رئيسى هو تقلصات المعدة عند خلوها من الطعام لمدة طويلة . ولكن تمبلتون وكويجلى وجدا سنة ١٩٣٠ انه عند اتمام نقل دم كلاب جائعة فى اجسام كلاب أكلت لتوها ، نتجت نفس التقلصات المعدية التي تحدث عند الجوع . وكان العكس ايضا صحيحا . فعند نقل دم الكلاب الشبعة فى أجسام كلاب جائعة توقفت تقلصات معداتها . معني ذلك أن بدء أو توقف هذه التقلصات رهن بالحالة الكيماوية التي يكون عليها الدم عند الجوع وعند الشبع ، من درجة حرارة احتراق سكريات الي نسبة مخزون الدهنيات الخ .. ثم انتقل البحث في السنين الاخيرة الي دور غدة الهيبوثلاموس (بالمخ) في الدافعيه عموما وفى الجوع بالذات . فالاستئصال الجراحي لفص باطنى صغير به ، تسبب فى البدانه المفرطة في الحيوانات التجريبية ، مما دعي الى الاعتقاد بأن هذه المنطقة هي المسئولة عن الشبع ، ولس امتلاء المعدة ، لان الفئران لم تتوقف عن الاكل حتي عندما اصبح وزنها أضعاف وزنها الاصلى . وعلاوة على ذلك ، فان اثارة هذه المنطقة كهربائيا ، بدون استئصال الجزء ، تسبب في توقف الحيوان عن محاولة الاكل ، مع أنه جائع ومع أن الطعام أمامه، حتي يموت . أى أن هذه الاثارة أعطته إحساسا بالشبع (غير حقيقى) يستمر طوال مدة تطبيقها. أى أن التباين هو تفريق بين منطقتين مختلفتين في الوظيفة

هنا . لان جزءاً صغيرا من الهيبوثلاموس يبدأ استجابة الاكل فقط ، وجزءا آخرا منفصلا يعطى الاحساس بالشبع . وكلاهما مثبت علميا بعمليات الاستئصال أو الاثارة التجريبية المفارقة . أما دافع العطش فيختلف عن دافع الجوع . لأن بمقدور الانسان أن يعيش بدون طعام عدة اسابيع ، ولكنه لا يستطيع الاستغناء عن الماء سوى عدة ايام . فالجسم يتطلب منسويا معينا من السائل به ، اذا انخفض عنه فانه يفني . والاحساس بالعطش يسبقه جفاف الحلق وأنسجة الفم السطحية . ولكن تماما كما كانت الحال فى تقلصات المعدة اثناء الجوع فان هذا الجفاف ليس الا اشارة ، ولكنه ليس السبب ، لان الحيوانات التجريبية التي انتزعت غدد لعابها لم تشرب أكثر ولا أقل من الحيوانات السليمة وهي عطشى . ودلت التجارب التي أجريت على الهيبوثلاموس مرة أخرى أن ضبط كمية السوائل التى يهدفها الفرد رهن بتوجيهه الوظيفى . إلا أن المنطقة المسئولة لم تحدد تماما . فحقن الحيوانات بمنبهات الكولين ضاعفت شربهم للماء ، وكذلك حقنها بمحاليل ملحية ، حتى وان كانت الحيوانات قد توقفت عن الشرب لانها ارتوت دقائقا قبل الحقن باحدى المادتين . والارتواء لا يتم بالماء فقط . لان هناك أفراد يمر يومهم بدون جرعة ماء لانهم يعوضون حاجتهم للسائل عن طريق الاطعمه والخضر والفاكهة الطازجة التي تحوي متطلباتهم اليومية منه . ومع ذلك فان العمل بهذا الاسلوب لا ينصح به طبيا علي الاطلاق .

ثم يختلف دافع الالم عن الدافعين السابقين في نوع الاستجابة . فللجوع وللعطش طريقه خاصة للاشباع هي الاقتراب من الشيء الذى يخففهما . واذا أنت فكرت قليلا فانك ستجد أن كل أنواع سلوكك تدور حول نوعين متضادين من الاستجابات . الاول (كما قلنا فى الجوع والعطش) هو سلوك الاقتراب approach response والثاني هو سلوك التحاشى avoidance response كما هو الحال في دافع الألم . لانك هنا

ستبتعد عن المثير الذى يتسبب لك في الالم حتي تخففه . والألم ، علاوة على كونه دافعا للسلوك ، يشكل أيضا احدى الحواس المركبة التي تكلمنا عنها فى الجزء السابق الخاص بالحس . وهذا الحس ينقسم الي نوعين : الاول فيزيقى يرتبط بالجلد أو بخلايا عصبية عارية أو مقطوعة أو مضغوطة ، والآخر ليمبى يرتبط بالاشارات العصبيه الحادثة في الجهاز الليمبى والتى نسميها سيكولوجية أو إنفعالية . ويمكنك أحيانا التحكم فى هذا الدافع ، اذا كان لديك هدف آخر تعطيه الاولويه في الاشباع . أي أنك تتغاضى عن الألم اذا كان مقابله دافع منافس أقوي بالنسبة لك . ومن الامثلة المعروفة لعبة الفقير الهندى الذي ينام على المسامير أو يمشى على الجمرات حافى القدمين . وأنت أيضا تستطيع أن تتحمل ألما فزيقيا اذا كان هدفك إرضاء فرد تحبه أو التمسك بواحد من مثلك العليا في الحياة .

والدافع الفيزيولوجي الاخير (المتسبب فى كثير من المشكلات للفرد) هو دافع الجنس . ويميل كثير من العلماء الي ابعاده عن طائفة الدوافع الخاصة بالتوازن الحيوى ، ليضعوه تحت دوافع خاصة باستمرار النوع. لان الجوع والعطش والألم أهداف أشد الحاحا عن هدف الاشباع الجنسى ، بحيث يعتمد استمرار بقاء الكائن حيا علي إنهاء التوتر المصاحب لها . وهذا يختلف تماما في دافع الجنس . ولهذا الدافع مراحل تطور معينة ، تبدأ عند ابتداء النضج في مرحلة المراهقة . ويتحكم فيها أولا الغدة النخامية ثم مجموعة الغدد الصماء التي ترأسها فى هذه العملية الغدد التناسلية . وقد ثبت تجريبيا أن ازالة الغدة النخامية قبل البلوغ فى الحيوان تسببت فى توقف نضجه الجنسى وبالعكس عندما حقن بخلاصة النخامية قبل البلوغ فإن ذلك اسرع عملية النضج عنده . وكذلك غير حقن الحيوان بهرمونات الجنس الآخر خصائصه الجنسية الاصلية بحيث أمكنه عبور الحاجز بين الجنسين وتبني صفات الآخر (باستمرار الحق الهرموني المقابل) .

تفهم من الشرح السابق للدوافع الاربعة أنها تحدث تلقائيا ، وأن أهدافها واضحة ، وأنك لا تلجأ الى قسط كبير من التعلم لكي تشبعها ، وكل ما أنت محتاج اليه هو التحرك الجسمي ، سواء نحو هدف أو بعيدا عن مثير . أى أن هذه الدوافع في الحقيقة غريزية ، ولدت معك المعرفة الخاصة باشباعها ، وهى فيزيولوجية لان تولدها يحدث بداخلك من حاجات خاصة وعامه لاعضاء جسمك . وينتهي بذلك الكلام عن دوافع التوازن الحيوى .

ننتقل بعد هذا الى مجموعة الدوافع التي تتعلمها بتعرضك للبيئة حولك ، ويفرضها عليك احتكاكك بالافراد والاشياء الموجودين بها . فدافعك للاستماع الى نوع معين من الموسيقى ، أو لتعليم الصغار ، أو لرعاية الحيوانات ، أو للقاء اسبوعى مع أصدقائك ، أو لمطاردة لص ، لا يتوقف عليه بلقاؤك حيا ، ويمكنك الاستمرار بدونه . ومع ذلك فبعضنا يصمم على سلوك يهدف الى واحد من هذه الاهداف مهما كلفه ذلك من جهد أو من وقت أو من قلة راحة . ولم يحدد العلم بعد كيف نتعلم هذه الاستجابات ، أى كيف نتبني هذه الدوافع بالذات دون الاخريات . وبالرغم من أن هذه الدوافع المكتسبة كبيرة العدد متفرقة النوع ، الا أننا سنختصرها الى المجموعة الواضحة منها ، وعليك أنت بعد هذا أن تربط شيئا بآخر تجد فيه قوة دافعة ترتبط بواحدة أو أكثر من الدوافع الاتي ذكرها .

اذا كررنا القول بأن الدوافع هى حاجة يولدها فيك نقص أو توتر وأن هذه الحاجة تزول اذا أنت توجهت الى هدف يشبع هذا النقص أو يزيل التوتر ، فاننا في الحقيقة نتحدث عن حاجات تلزمك ، لكى تستقر نفسيا . ويجب أن تلاحظ هنا أننا لم نعد نتكلم عن حاجات فيزيولوجية (وظيفة جسمية) حادة كما كان الحال عند شرح الجوع والعطش والألم،ومع ذلك لا تظن أن موقفك من هذه الدوافع المكتسبة يبتعد عن

النشاط الفيزيولوجى با لجسم . لأن أي وظيفة عقلية أو انفعاليه (وكلاهما سيكولوجى - أى نفسى) تتسب فى أنشطة عصبية وحشوية سنتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد .

الدوافع المكتسبة (الواضحة) تشمل الخوف : الاحتماء - الانتماء - الاتصال - الاستكشاف - التحسس - التودد - العدوان . والى وقت قريب كان العلماء يفرقونها ايضا الى دوافع شعورية وأخرى لا شعورية ، ولكن لم تعد هناك حاجة الي هذا التفريق ، حيث أن النقيضين يتواجدان في كل واحدة منها تقريبا . وهناك أيضا بعض الاختلاف في تصنيف الخوف والعدوان بهذه الطريقة . فالبعض يذهب إلى أن دافع الجوع مثلا هو دافع الخوف من الموت أيضا ، وأن دافع الجنس يمكن أن يكون عدوانا أيضا . ومع ذلك نفضل هنا أن نقول أن الخوف والعداون مكتسبان من دوافع أخري أولية تخص التوازن الحيوى للفرد .

أنت تتعلم الخوف اشراطيا ، اي بالطريقه البافلوفية الكلاسيكية . فخوفك من أى شيء ، سببه الحقيقى هو إتصال هذا الشيء بدافع آخر هو الالم . أي أننا اذا حللنا الحالة النفسية (الخوف) نجدها فى الحقيقه مثير آخر غير المثير الحقيقى الذى ستذهب الى كل السبل لكي تزيله أو لكى تتفاداه . ثم دافع الاحتماء يعتمد أيضا على دافع الخوف ، لانك تبحث عن مأوى بعيدا عن عوامل الطبيعة وبعيدا عن المجهول الخارجى ، أو تتغطى بملابسك لكي تحمى جسمك من الاذى ، وتقفل عينيك أو اذنيك عندما تصل الاثارات الى حدود لا تتحملها . ثم دافع الانتماء affiliation احساس أو حاجة جديدة تكتسبها لانك أصبحت كائنا اجتماعيا . وتتفرع منه حاجات أخري تعززه منها القيادة أو الانقياد ، حب الظهور ، تقمص شخصية الجماعة ، الولاء ، الطاعة الخ ... ودافع التودد ايضا وثيق الصلة بدافع الانتماء . لاننا كما قلنا فانك كائن حي

اجتماعى . وبما أنك أصبحت جزءا من جماعة ، فانت تخاف من الانعزال أو الانسلاخ عنها ، الا اذا كانت هذه هى صفتك (فلا تكون فى هذه الحالة ما نسميه طبيعيا) . وحيث أن الكائن الحى معناه أنه كائن نشط ، فانه بعد ذلك سيتبنى دوافعا أخري تساعده على التعرف علي البيئه المحيطة به . ولنقل مثلا أننا وضعناك فى حجرة معصوب العين وتركنا لك حرية التصرف . ولاننا لم نعطك أوامراً محددة أو صريحة بما يجب عليك أن تفعله ، فإن أول سلوك تقوم به سيكون رفع العصابة عن عينيك لانك تريد الاتصال بما حولك . أما اذا كانت الحجرة مظلمة ، أو لسبب ما لم تستطع الرؤية ، فإن سلوكك التالى سيكون التحسس . وحتي اذا كانت الحجرة مضيئة واستطعت أن تري الاشياء حولك ، فانك ستنقر الحائط مثلا ، أو تلمس ذلك الجسم الذي لا تتعرف عليه بكل حذر ، واذا لم يصبك أذى منه فانك تتحسسه مترويا وتدقق فيه . ثم هناك الفتحات التي تؤدى الى خارج الحجرة . هل ستتركها وشأنها وتبقى فى مكانك ؟ طبعا ستحاول فتحها أو التعرف على ما وراءها . وهذا هو الاستكشاف بكل أنواعه .

وقد تعمل الانفعالات عمل الدوافع أحيانا كثيرة ، فتكون هى المحركة للاستجابات الهادفة الي حلها . وهنا تحدث الفروق الفردية بشكل أوضح عن أي حالة أخرى . لان ترجمة المثيرات المدركة ، وربطها بخبرات الفرد الذاتيه كلها عوامل تختلف من شخص لآخر اختلافا كبيرا .

واضح مما سبق من كلام عن العمليات النفسية الاساسية أن الطفل يولد بها سابقة التجهيز ، الا أن خبراته البيئية وتقدمه في العمر عوامل تغير من حدة وشدة الطاقات النفسية . وتثبت لديه هذه القدرات النفسية بشكل يختلف نوعا كلما تقدم في العمر ، فهو يصقل معظمها لانه يرقى الى الرشد (فيصبح أكثر نضجا وثراء معرفيا) .

العمليات النفسية المعقدة

ناقش الجزء السابق أربع عمليات نفسية اساسية تولد مع الطفل فهو لا يتعلمها ، وتعتبر فى الحقيقة القاعدة التي ترتكز عليها باقى العمليات النفسية الاكثر تعقيدا . الا أنه سرعان ما يتقدم فى العمر ليكتسب مهارات جديدة تستخدم كل طاقاته الولادية التى شرحت فى الجزء السابق . وهذه هي التعلم (العام المركب) ، ثم التذكر ، ثم سيكولوجية اللغة وأخيرا المعرفة بكل ما تحويه من جوانب كالتفكير والاستدلال وحل المشكلات .

التعلم Learning

سبق أن عرفت أن التعلم هو تغييريحدث نتيجة للتمرين
أن ابسط طرقه هو التعلم الشرطى . ولكن التعلم الشرطى بالنسبة لعلم النفس يساوي الفراغ بالنسبة للفيزيقيا . فكلاهما مصطنع ، بحيث يكون من النادر حدوثهما منفردين فى الطبيعة . وبالرغم من هذا فان التعلم الشرطى (الساذج) ليس الا طريقة أولية مبسطة لما سيخبره الطفل النامى من تعلم معقد بعد سنته الاولى . ولكنه لن يتخلص من كل اثار التعلم الساذج الاولى الذى مر به ، فسيستمر على نهجه أحيانا كثيرة حتي الموت . فقد تعلم اشراطيا أشياء كثيرة مثل الخوف من المجهول ومن الأذى و كل اساليب الاشباع (البكاء أو الصراخ عند الحاجة) ، الى آخر الحيل .

أنت تتعرض للتنبيه (أو ما يسمى علميا : الاثارة) فى كل ثانية من ساعات صحوك . وكل اثارة لابد وأن تتبعها استجابة . فاذا استيقظت من نومك فان أول شئ يقابلك سيكون منظر حجرتك ، وهذة اثارة بصرية. ولا تقل أنك لا تستجيب هنا . لانك أولا ستفهم أين أنت ، أى تدرك ما ترى ، ثم تتحرك بحيث تتفادى قطع الاثاث ، أو تتناول منشفتك ، أو تصلح وضع الحذاء الذي تركته بعيدا عن نصفه الاخر . وهذه بداية الطريق فقط . لان أمامك مئات الاستجابات بعد هذا ، ولمجرد الرؤية . فما بالك اذا سمعت أحدا يخاطبك بعد دقيقة ، أو ذهبت لتعد لنفسك الشاى فلم تجد السكر ، أو نظرت الي الساعه فوجدت أن أمامك عشرون دقيقة فقط تكون فيها في محل عملك .

للاثارة الواحدة ، اما عدد من الاحتمالات للاستجابة لها ، أو عدد من الاستجابات كله يجب أن يتم . وقبل التعلم ، يمكنك أن تستجيب بطريقة خاطئة فتكرر المحاولة ، أو بطريقه صائبة فيدعم تعلمك . وهذه هى طريقة المحاولة والخطأ فى التعلم . وعلاوة على تجارب الحيوان ، نجد البحث علي الاطفال فى هذا المجال شديد الشعبية عند السيكولوجين ورجل الشارع ايضا . فاذا وضع طفل صغير (أقل من عام) خلف حاجز زجاجي بحجم جسمه ، ثم وضع خلف هذا الحاجز(من الناحية الاخري) مكعب ملون وترك الطفل وشأنه ، بحيث تلاحظ حركاته وسلوكه الموجه نحو الوصول الي المكعب الملون . المنتظر منه فى هذه الحالة أن يمد يده الي الامام لتناول المكعب فيصده الحاجز الزجاجي . ويحاول مرة وأثنتين ليصطدم بنفس العرقلة . أى أن استجابته (مد يده) للاثارة (المكعب الملون) لم تنجح في توصيله الى هدفه (امساك المكعب) . ولكن هناك شىء واضح يمكننا أن نقول أنه تعلمه ، وهو أن مد يده الى الامام يسبب له ألما عند اصطدامه بالحاجز الزجاجي . أي أنه عند خطئه قد تعلم أولا أن شيئا فى الطريق يؤلمه . وأن هذا الاسلوب لم يوصله للمكعب . وأخيرا أنه يحس بالاحباط . ولذلك يغير اسلوب المحاولة . فقد

يضرب الحاجز بيده . أو يتحرك يمينا أو يسارا (وكلها الآن محاولات استكشاف) . وهو فى هذا الاثناء يضيف الى حصيلة خبراته أنواعا جديدة من المعلومات هي في حد ذاتها مفردات تعلم . وهذا التعلم الان حادث عن طريق التكرار . ولا يفوتك أنه للآن لم ينجح فى الاستجابة السليمة لانه عندما ينجح فعلا سيكون وصوله الى المكعب أسرع فى المرة الثالثة عنها في الثانيه وهكذا . بل قد يظل ملازما للجانب الاخر من الحاجز الزجاجى (حيث هدفه) لانه تعلم أن هذا الموقع هو الافضل .

للتعلم عوامل مساعدة كثيرة ، وأخري معرقلة . فانت تتعلم بسرعة أكبر اذا كانت هناك دوافع تدفعك لان تكتسب المعرفة أو القدرة الجديدة التي أمامك . ففى علم النفس التجريبى نجد أن الفئران العطشى تتعلم الخروج من المتاهة فى وقت أقصر من الفئران المرتوية ، اذا كان الماء ينتظرها فى مخرج المتاهة . واذا قلنا لك أن تعلمك للغة أوربية ثالثة سيضيف الى مركزك الادبي والمادي ، فانك ولا شك ستتعلمها بسرعه خاصة ،عما اذا كنت تضيف اللغه الثالثة الى معارفك لمجرد قتل الوقت.

ثم نجد أن للمثير الواحد ، كما قلنا ، عددا من احتمالات الاستجابة له، ترتص هذه الاحتمالات في نظام هرمى يبدؤه أكثرها احتمالا للحدوث . فقد يكون هذا الاحتمال الاول أسهل الاستجابات ، أو أقربها أو اسرعها. ولكنه لا يكون أفضلها أو أنجحها فى كل الحالات . وبالتكرار ، يتعلم الفرد ما يراه أوفق الطرق وأنجحها فى حل مشكلته ، فيعيد ترتيب نظامه الهرمى ، بحيث تجئ الان فى المقدمه الاستجابة الانجح . ونكرر أنها لا تكون دائما هي الافضل أو الاصح . ولكنها ستساعد الفرد على الوصول الي هدفه . ويسمى هذا التنظيم بالاولويات فى التعلم « تنافس العادات » habit competition . وحيث أن الترجمة هنا حرفية ، فانك قد تفهمها بطريقة أوضح لو أحدثنا بعض التحريف بها لنسميها تنافس الاستجابات.

ويلى عنصر التنافس هذا عامل آخر يساعدك على التعلم هو تسلسل الاستجابات . واذا ترجم حرفيا هو الاخر habit chaining فسيكون المصطلح « تسلسل العـــادات » .وهذا يعـــني أنـــك في الحقيقة لا تقوم بأى استجابة باسلوب منفرد . فاذا ضربت كرة التنس ، لانك تعلمت اللعبة، فانت تحرك معصمك ، لتضع المضرب فى زاوية معينة، ثم تؤرجح جسمك وذراعك بطريقة خاصة حتي لا تخرج الكرة عن رقعة معينه أو تطيش تحت الشبكة أو من جانبها . أى أن الاستجابة فى حد ذاتها عبارة عن سلسلة من استجابات أصغر تأخذ كل واحدة مؤشراً من سابقتها . وقد تتعرف على هذا النظام بطريقة أوضح أذا أنت تذكرت كيف كنت تستذكر ابيات الشعر فى قصائد طويلة أو ملاحم صعبة المفردات .

ومن أقوى العوامل المســاعدة علي اتـــمام التعلم عامل يسمى التدعيم reinforcement ولا نعني التعلم السليم دائما . لان الطفل الذى ينطق حروفا خاطئة أو كلمات مقلوبة فتستجيب له أمه بأعطائه ما يريد ، يتعلم شيئا عن طريق الخطأ ، لان أخطاءه مدعمة من جانب الام . فيتم تعلمه بدون تصحيح . وقد تستذكر الوراثه فى مادة البيولوجى وأنت مخطئ فى فهمها . وتصصح ورقة أمتحانك وتنال درجة مقبول. ولكن لا تعرف أين كان خطؤك بالتحديد ، لانك لم تسترجع الورقه المصححة ، أو لم يشر اليك استاذك بموضوع الخطأ . فتنتقل الي الفرقة التي تليها وبطانة معلوماتك مدعمه تدعيما خاطئا . والحقيقه أننا انتقلنا فى هذا الشرح من عامل الى آخر الان . لاننا نتكلم في هذه الحالة عن التغذية المرتدة (أو المعلومـات المرتدة) feedbackعن تقدمك في التعلم أو الاستجابات عموما . فغياب هذا العامل يعطى نتائج محاولاتك فى اكتساب المران صفة الحياد أو السلبية . ولنقل مثلا أنك خضعت لاختبار قدرات ميكانيكية ثم طلب منك أن تغادر الغرفة وتذهب لحالك . ماذا يكون احساسك ؟ أو لنفرض أنك قمت باختراع وتشكيل لعبة صغيرة ،

استطعت بذكائك أن تضع فيها أحجار بطاريات جافة لكى تتحرك على عجلاتها ، ثم أخذت منك اللعبة قبل تجربتها فعلا ولم تصلك أي معلومات عن نجاحها أو مدى استحسان من رأوها .ماذا يكون احساسك هنا ايضا ؟ هل توصلت في الحالتين الى ما يفيدك بأن تعلمك للميكانيكا أو قدرتك على الابتكار قد تخطت مرحلة لكي تنتقل الى أخرى أرقى منها ؟ لا : لانك لم تعرف هل كانت خبرتك سليمه أم لا الى الان . ولذلك فانت لا تستطيع أن تفترض أنك تتقدم ، ولكنك ستبقى فى مرحلة التعيث ، أى المحاولة والخطأ مرة ثانية .

علاوة على العوامل العامه للتعلم كالدوافع - التكرار - المحاولة والخطأ - تنافس الاستجابات - التدعيم - التغذية المرتدة ، فان هناك عوامل أخرى خاصة تساعد علي سرعة التعلم أو تعرقله بتثبيته خاطئا . ومن هذه العوامل العقاب أو الاثابة التي قد تتبع سلوك المتعلم ، ثم التفاوت أو التقارب بين فترات التمرين (أى توزيع التمرين) ، والقدرة على نقل أثر التدريب من حالة الى أخرى .

التذكر Memory

عندما كنت طفلا صغيرا ، كنت مفلس الخبرات . الا أنك لم تبق على تلك الحال طويلا ، لانك منذ ايامك الاولى تلقيت من بيتك معلومات لم تهملها بل خزنتها . فاليوم عندما تتعلم شيئا ، لايعنى ذلك أنك اكتسبت خبرة قائمة بذاتها ، لانك فى الحقيقة تكون قد اتصلت باشياء الى الوراء وستربطها بأشياء أخرى الى الامام ، وكلها تتعلق بهذه الخبرة التى اكتسبتها ..باختصار أنت تمسك بخيط اسمه الذاكرة يمر بكل الاحداث

السابقة والحالية والمستقبلة . هذا اذا كنت قد تعلمت . لانك اذا نسيت فانت فى الحقيقه لم تتعلم ، لان التعلم يعني أنك أكتسبت خبرة بالمران . وما تكتسبه لا يكون مؤقتا ، لانه اذا كان مؤقتا وزال بعد فترة ، فانت لم تكتسبه ، ولكنه مر بخبراتك فقط . فهل تفكر وأنت تمشى ؟ وهل تنسى أن قدمك اليسرى تلى اليمنى وتتناوبان طوال الوقت ؟ المشى تعلم اكتسبته بالنضج . والتخاطب تعلم اكتسبته بالمران . والاكل تعلم اكتسبته بالحاجة . ولن تنسى ما اكتسبته . وتستثنى من هذه القاعدة حالات التدهور الوظيفى بالكائن الحى الذي يتسبب فعلا فى فقدان ما اكتسبه . فعندما تصل الي سن السبعين ، ومن سوابقك الافراط فى تعبئة دمك بالكوليسترول فانك ستنسى أجزاء من لغتك فعلا ، وسترتبك خطواتك لانك قد لا تضع القدم اليسرى بعد اليمنى ، وقد تخطئ فى عادات اكلك . أى أنك فعلا ستنسى ما اكتسبته ، حتى وان كنت قد تعلمته و تمرنت عليه لزمن طويل . ويحدث نفس الشئ بعد اتلاف الحوادث أو بعض الكيماويات أو الحميات والفيروسات .

وأثناء التعلم لابد وأنك تمر بخبرات متسلسلة : بعضها يهمك بشدة ، وبعضها الاخر اما قليل الاهمية أو عديمها بالنسبة لسلسة التعلم التى ستقتنيها . فلنقل أنك تركت منزلك لتنتظم بقاعة التدريس أمس ، وخرجت بعد ساعتين وفى ذهنك حصيلة جديدة من المعلومات . لا تظن أن هذه المعلومات حدثت فجأة ثم توقفت فجأة أيضا فيما يشبه فتح صفحات الكتاب ثم طيها . لأنك دخلت المكان وقابلت فلانا ، ولاحظت اشياء وتبادلت أوراقا ، ثم جلست بمكانك ، ثم استمعت الى المحاضر والى جارك فى نفس الوقت أحيانا ، وكتبت ، وحادثت زميلك ، وسألت سؤلا لم يفدك جوابه لان الجزء المعتمد عليه فاتك أثناء تكلمك مع جارك . أين هي عملية التعلم الاكاديمى من كل هذا ؟ ستضيف اليها غدا ولا شك ، فتقرأ مرجعا أخراً ، وتنقل ملخصه ، ثم تكرر قراءة ما كتبته مرات عديدة حتى يلتصق بما تسميه ذاكرتك . ولكن ، لا تنسى انك انتقلت الي بيئة

أخرى بها كل المثيرات الموازية هي الاخرى ، لانك إما بمنزلك أو بالمكتبة. ولا نطيل عليك القول ، لان التذكر عملية معقدة ، لها أولويات ، وأهداف اختيار ، ودوافع للعملية ، وعوامل مساعدة وأخري غير مساعدة منها الزمن وتكرار المثير وقوته وصلاته وعملياته وصحتك الجسمية واستعدادك النفسي .

وعندما درس لاشلى سنة ١٩٥٠ نتائج تشريح المخ بعد تجارب تعلم (أى التذكر) أجريت على الحيوان ، علق بجملته المأثورة « يظهر من الادلة التي حصلنا عليها أن التعلم والتذكر شيئان مستحيلان » . ولكن ، لحسن حظ العلم تغير هذا الاتجاه فى فهم الذاكرة ، بعدما بحث فيها علماء جراحة الاعصاب ، وكيميا الاعصاب الحيوية ، بعد سنة ١٩٦٥ . فقد ثبت تشريحيا أن الفئران التي عاشت في بيئه غنية بالمثيرات ، زاد حجم بعض خلايا مخها عن الفئران التي عاشت في بيئة جدباء تفتقر الى الاثارة (كالاضواء والالوان الخاصه ، أو الروافع والقضبان والمتاهات ، أو صعوبة الوصول الى طعامها وشرابها وممارستها الجنسية) . وقام بهذه الابحاث كيمبل ، اكلز ، كروجر ، ماكجرو ، هايدن ، روبرتس ، أتلى ، وفون فورستر ، وغيرهم .

ثم ظهر نوع آخر من البحث فى كيميا الخلايا العصبية . وعليك أن تعرف مقدما أن هذه الخلايا نوعان : نورونات وخلايا جليا . الاولى لا تنقسم ولكن الثانية يمكنها أن تتكاثر . وخلايا جليا عشر اضعاف عدد النورونات في أى نسيج عصبى ولها القابلية على تغيير نوع نشاطها الوظيفي تبعا لتغير المثيرات خارجها . أي بمعني أصح فلهذه الخلايا القدره على تغيير مركباتها الجزئية لتخدم المنظمة العصبية ككل . ومن هذه المركبات مادتي DNA ثم RNA . والاخيرة مسئولة عن التصنيع النهائي للبروتنات بالخلية . وهذه البروتينات متعددة الانواع والوظائف . ويهمنا أن بعضها يصنع عند الانفعال فقط ، والبعد الاخر عند التحرك العضلى،

أو عند الاثا رة البصرية أو السمعيه الخ . والتجارب المصممة الان ترمي الى امكان التحكم فى عمليات RNAوانتاجها أو عدم انتاجها لأى من البروتينات المتخصصة فى الوظيفة المرغوبة أو غير المرغوب فيها .

الكلام السابق صعب فهمه نوعا ما ، ونحن بصدد الكلام العام عن علم النفس . ولكنه ضرورى لانه سيوصلك الى مدخل حديث لفهم التذكر. فالاولى من المادتين السابق ذكرهما : DNA مسئولة عن الذاكرة الوراثية من جيل لجيل ، لانها ستعطيك صفاتك الثابته التي ستظل عليها حتي نهاية عمرك . أما RNA فهى مسئولة عن الذاكرة المتصلة بخبرتك فى بيئتك لانها ستقوم بتصنيع البروتينات اللازمه لاتمام وظائف عملية التعلم وغيرها . ولا تظن أبدا أن الرؤية واضحة في هذا المضمار من دراسة التذكر ، لانه من الصعب فهم:عملية الاسترجاع بعد الخزن . ولكننا فى بداية الطريق العلمي هنا -وبهذا نرجع بك الي التفكير المنطقى والسطحي الخاص بالتذكر .

أنت تتذكر الشئ لانك رغبت فى ذلك ، ولانه واضح بالنسبه لفهمك ، ولانه إما كان من قوة الاثارة بحيث يكفيك تعرضك له مرة واحدة ، أو لزمك تكرره حتي تخزنه فى ذاكرتك . وللذاكرة نوعان من الخزانات . الخزان الأول وهو للتذكر المباشر الذى تستقبله الان وتضعه فى مجال قريب سهل التناول والضياع أيضا ، وتسمى هذا العملية التذكر القصير . والخزان الثاني أبعد وأكثر تعقيدا فى تصنيف ورص وخزن المعلومات ويسمي التذكر الطويل . والتذكر الطويل هذا يعتمد كثيرا على خزان التذكر القصير ، لانه سيمرر معلوماته عليه من وقت لاخر حتي« تنتعش » وبذلك يزيد تدعيمها ، أو يسترجعها الخزان القصير من الكبير لانه يحتاج اليها الان retrieval فى عمليات ترتبط بأحداث جديدة .

وهنا نعود مرة ثانية الي الحقائق الهستولوجية (الخاصة بالانسجة)

لنذكرك بأن تشريح أنسجة المخ بالفئران ثرية البيئة (كثيرة التعلم) أثبت أن عدد وحجم خلاياها أصبح أكبر . ونذكرك ايضا أن عدد النورونات لا يتكاثر ، ولكن خلايا جليا بكل أنواعها هي التى يمكنها التكاثر . وبالتالى فمن الواضح أن موقع الذاكرة المخزونة هو خلايا جليا. وهذه اشارة فقط . ولكنها لم تثبت عمليا بعد . ونقطة الانطلاق العلمى من هنا مفتوحة خصبة وما عليك الا متابعة قراءاتك فى السنين القادمة لكى تقف على أحدث التطورات فى الابحاث المتصله بالتذكر .

وحيث أنك تطالع هذا الجزء من الكتاب ، فانت مهتم ايضا بالتطبيق العلمى الذي يمكن أن يفيدك في حياتك اليومية فى كل واحد من الموضوعات المطروقة . و من الواضح أن موضوع التذكر هو من أكثر الموضوعات أهمية بالنسبة للجميع فعليه يتوقف نجاح الناس في التعامل مع الافراد والناس . يهمك أولا أن تعرف أمكانياتك والصعوبات التي تواجهها وأنت فى محاولة التذكر .

مقدرتك على الاستيعاب (هضم المواد وخزنها) أسرع وأدق تفصيلا قبل سن الرشد عنها بعده. ولكنك مقدرتك على الربط الكلى والاستنتاج والحكم السليم تتقدم بتقدمك في العمر . أى أنك مستعد للتذكر فى أوجك وأنت يافع عنك وأنت شاب ، وأقل كثيرا وأنت متقدم في السن . والسبب فى ذلك أن جهازك العصبى أصغر سنا أولا ، وأن خزان ذاكرتك مازال أقل ازدحاما ، وأن معلوماتك أقل تداخلا فى أوائل مراحل التخزين ، وأن تنظيمك العصبى لم يقم بعد بما يسمي التعطيل الرجعى وهو أن تزيل المعلومات الجديدة بعضا من المعلومات القديمة فيفسح المجال للاحداث الاقوى والاهم .

واليك أخيرا بعض الحلول لمشكلات التذكر والنسيان . اذا كان لديك شيء يهمك أن تتذكره ، فعليك أن تهيئ نفسك لتضعه على رأس قائمة

الاستجابات المتنافسة التي قرأت عنها في جزء التعلم . وعليك أيضا أن تكرر تعرضك له أكثر من مرة ، لان للتكرار أثر كبير في الخزن . وعليك أيضا أن تعطي المعلومات أكبر غطاء من الفهم ، لانك تتذكر المفهوم أكثر من الغامض . ويهمك أيضا أن تعرف أن إحاطة مثير بمثيرات أخرى تشتت عملية التذكر . فلا تتباهي بأنك تستذكر بطريقة أحسن لو سمعت الموسيقى أو تمشيت في الحديقة أو ذاكرت مع زملائك ، لان ذلك غير صحيح . وأخيرا تأكد أن صحتك الجسمية من أهم العوامل المتداخلة في قدرتك على التذكر . فاذا كنت مرتاحا (نمت بما فيه الكفاية) مستقرا نفسيا (غير قلق أو متعجل) متغذيا صحيحا (كميات معقولة من البروتينات والسكريات) سليما جسميا (لا تعاني من زكام أو أي من الامراض) مهيئا بيئيا (لا ضوضاء ولا منغصات ، في مكان سليم التهوية والاضاءة) ومهيئا عصبيا (ذكي متنبه قادر على التركيز) - اذا توفرت فيك كل هذه الشروط ، أو حتي بعضها ، فانت في الطريق الى تذكر ما تريد بقدر مالديك من الامكانيات السابقة .

السلوك اللفظي Verbal Behaviour

للسلوك أنواع عديدة . فاذا أنت صعدت السلم ، كان هذا سلوك حركي . واذا عرفت ثمن خمسة أمتار من القماش ، كان هذا سلوك عقلي . واذا قلت لصديقك أنك تريد قلمه بعد أن ناديته ، كان ذلك سلوك لفظي . ويفتخر الانسان عادة بأنه الكائن الحي الوحيد الناطق . ومع ذلك فيمكنك أن تشك قليلا في هذه النظرية ، لان كلبك يحضر مسرعا اذا أنت ناديت اسمه ويصدر أصواتا مبتهجة ، وآخرون من عائلة الببغاء

يمكنهم النطق بجمل كاملة نطقا مطابقا لما يصدر منك . وهناك ولا شك لغة تخاطب بين الحيوانات وبعضها ، تستجيب عن طريقها الواحدة للاخري تماما كما لو كانت تتكلم بالعربية أو بالفرنسية مع صديق . بعضها مواء والبعض الاخر عواء أو صفير أو زمجرة أو فحيح أو أصوات أخرى لا تدركها الاذن الادمية .

وفى سنه ١٩٥١ ثم في سنه ١٩٦٧ نجح باحثان : هيز Hayes وجاردنرGardner في تدريب شمبانزي (كل منهما على حدة) على النطق السليم لكلمات ماما وبابا وكوب (ma,da , cup) في الحالة الاولى ، وماما وآه (ma,oh) في الحالة الثانية . وقد استنتج جاردنر أن القردة لم يكن باستطاعتها التقدم عن ذلك لان مناطق الكلام فى مخها (كقردة) غير مهيأة لاكثر من ذلك . و فى الحالتين وصلت الشمبانزي الى مستوي كلامي لطفل دون الواحد من العمر . ولذلك استمر جاردنر فى تعليم قردته « واشو » على التخطاب بلغة الخرس المتفق عليها دوليا ، فنجحت فى التعامل مع الافراد وابداء رغباتها المنحصرة في الطعام ، الخروج للنزهة ، النوم ، الزغزغة (طلبها للمداعبه) . واستجابت ايضا لاشارات من نفس النوع لاشارات صادرة من آدميين .

ويفيدك ما سبق ، أن عملية الكلام والتخاطب بالاصوات وسيلة غيز صعبة للاتصال الاجتماعى . وأن المتحكم الاكبر فيها هو منطقة الكلام بالمخ (منطقة بروكا رقم ٤٤) ، علاوة على وظائف الترابط العامه به ، وبينه وبين مناطق حركة الكلام بالفم والحلق . ويبداء التعامل بالاصوات بعد ميلاد الطفل عندما يطلق أول صرخة له بعد خروجه الى الهواء من الماء . وبعد ذلك أثناء السنه الاولى من العمر يجرب وينجح في إخراج كل الاصوات المكنه من حنجرته ، حتى وإن لم يكن فى حاجة اليها بعد ذلك فى لغة التخاطب الخاصة ببيئته أى أن أصوات الاطفال حديثى

الولادة موحدة فى كل أنحاء العالم . فهم ينطقون الحروف المتحركة أولا vowels آ - إى - أو ، ثم الحروف الساكنه consonants ، مثل ب - د - ج - س الخ .... وهذا يحير علماء اللغة ، لان الراشد عندما يتعلم لغة أجنبية ، يجد صعوبة عندئذ فى اخراج كثير من الاصوات الخاصة بها ، مع أنه فى سنين تطوره الاولى لم يكن يصدر غيرها - ومن هذه حروف أو (Ü) وغ (الراء الفرنسية والالمانية) والجيم المعطشة .

علاوة على تدخل الذكاء العام للفرد (انتباهه ، ذاكرته ، وباقى عملياته الخاصة بالربط والاستنتاج) وحالته الجسمية (سلامة السمع ، ومناطق الكلام المخية والحركية) ، نجده يتوصل للكلام فى الحقيقة عن طريق التعلم الشرطى ، المعتمد على متلازمة اثارة - استجابة S-R أولا. لانه في بداية المرحلة يستجيب لاوامر صادرة من أفراد يتفوقون عليه في اللغة . وكل سبل التعامل الاجتماعي معه إما تولد فيه سلوك الاقتراب أو سلوك التحاشى . فاذا قلت للطفل « خذ - كل تعـالى - الخ ... » فأنت تطلب منه أن يقترب من الشئ . واذا قلت له « لا - بس - اديني - اوعي» . فانت في الحقيقه تأمره بالابتعاد عن الشيء . ثم في المرحلة التالية مباشرة (وليس لها بداية لانها توازى تقريبا المرحلة الاولى) تتولد عملية التعميم السيمانتيكى . وكلمة Semantic تعني تطور المعانى واتصالها برموزها لغويا . ثم ينتقل الطفل بعد ذلك (أو دارس اللغه) الى التفريق السيمانتيكى . ولنضرب لك مثلا يوجهك لفهم الحالتين . فكلمة أمسك تعنى تناول فى قبضة يده . وهذا هو ما تفعله أنت كطفل . يقال لك أمسك فتمد يدك وتأخذ . ولكنك تتعلم فيما بعد أنك تمسك لسانك ، أو تمسك عن الطعام أو أنكم محققون أمسكتم أخيرا بأطراف الحقيقة .

ولا يتوقف التطور عند هذه المرحلة . لانك ستنتقل الى مرحلة ارتباط المعانى . فاذا قيل لك ليل ، فانك ستربطه في فهمك بظلام و أسود ونوم

وقلق وراحة وأحلام ، أو بعكسه أحيانا فتربطه بنهار ونشاط وأبيض ومنير وعمل الخ ... ولن تفعل ذلك فى كل وقت وبهذا الاسهاب . ولكنك ستقوم بالعملية كثيرا شعوريا ولا شعوريا . وتستعمل أنت عملية ربط المعاني هذه بطريقة مكثفةوأنت فى أول مراحل التعلم . ثم تخف حدتها عند التقدم فيه ، ولكنها لا تتوقف حتي النهاية .

وكما أن للمقدرة على الكلام استعدادات خاصة هى القدرات العقلية العامه (الذكاء) والقدرات الجسمية الخاصة (السمع - مناطق الكلام بالمخ - مناطق حركة الكلام بالفم والحلق) ، فإن لعدم المقدرة على الاستمرار فيه أسباب خاصة .

أفيزيا aphasia مصطلح طبي يعنى اختلال الوظائف بسبب عطل في المخ . ومعظم المصابين به يحتفظون ببعض معارفهم اللغوية التي سبق أن أتقنوها . ويحدث هذا الاختلال فى اعقاب اصابات الرأس في الحروب أو الحوادث (الحالات الحادة) أو ببطء عند اصابة المخ بأورام سرطانية أو بالتدهور الوظيفي المصاحب لتدهور الانسجة بعد جلطات المخ أو انفجاراته الشريانية . وحيث ان الاصابة تختلف من فرد لاخر في المدى وفى الموقع فإن هناك تقسيمات كثيرة لهذا الاختلال يذكر منها :
motor apasia وفيها يعرف المصاب ما يريد أن يقوله ولكنه غير قادر علي التركيب اللفظى لان المراكز الخاصة بتنسيق الكلام مصابة .
ثم agnosia or sensory aphasia وفيها لا يفهم المصاب ما يسمعه auditory وأحيانا أخري ما يراه visual وتسمى الاخيرة أيضا dyslexia.
بالاضافه الى كثير من الانواع الاخري مثل nominal aphasia (عدم القدرة علي تسمية الاشياء) semantic aphasia (فقدان القدرة علي فهم المعاني) ، . syntactic aphasia (فقدان القدرة على تركيب الجمل حسب قواعد اللغة) .

المعـــرفة

(عمليات الفهم - Cognitive processes)

اذا قلنا لك أن مزارعا اسمه مصطفى يزرع خمسة فدادين موالح ، وأنه هذا العام سيبيع لك ربع محصوله ولشركة كبيرة باقى ثماره . و أنه يريد أن يكون صافي ريحه بعد كل المصروفات عشر قروش صاغ في الكيلو الواحد ولكنك ستدفع له نصف القيمة التي ستدفعها له الشركة الاخري كسعر شراء . فما هى مدفوعاتك ؟

كيف تحل هذه المشكلة الحسابية ؟ المعاني مفهومة والارقام واضحة، ولكنك أغلب الظن ستتناول قلما وورقة لتصل الي الحل الصحيح . ولا تظن أن مصطفي الامى سيتوقف أو يخفق فى حسابه . لانه هو الاخر سيصل الى نفس الحل الذى ستحصل عليه ولكن بطريق غيرالكتابة . فهو ذكى مثلك ، وهو قادر علي حل المشكلات مثلك ، وكل ما في الامر أنكما تختلفان في سبل الوصول الى الهدف . ولا نقول لك أنه يستطيع أن يعطيك مكعب ١١٤ أو جذر تربيع ٢١٢٣ ، لانه لم يتعلم هذه المفاهيم بعد . ولكننا نطمئنك أنه (بطريقة أطول نوعا) سيبرهن لك أنك عاجز عن الحساب الذهني (المتخيل) وأنه يتفوق عليك فيه ، فى العمليات الحسابية الاولية كالجمع والطرح والضرب والقسمة . ويزامله في ذلك الكفيف أيضا .

عمليات الفهم التي تنتهي بك الي المعرفة يشار اليها على أنها العمليات السيكولوجية المتداخلة فى تكوين واستعمال الرموز symbols والمفاهيم concepts المتصله بانشطة مختلفة كالتفكير ، الاستدلال ، وحل المشكلات .

تكوين الرموز يلى ادراك الاشياء . أى أنك تستجيب عقليا لمؤشر فيزيقي أو ميتافيزيقى فتخلق له رمزا فى ذهنك هو مجموع الصفات التي يتصف بها الشيء . وتساعده اللغة في معظم الاحيان على اعطاء هذا الرمز جسما لفظيا . ولا يعني هذا أننا نستثني الحيوان من هذه العملية . لانك قرأت بنفسك كيف يرمز الكلب الجائع الي الشبع بصوت جرس مثلا في تجارب التعلم الشرطى البافلوفى . وفى استطاعتك ، بعد التعلم ، أن تستثير هذه الرموز من داخلك ، لترتفع الى مستوى تفكريك الشعورى كأن تتذكر الوقت فجأة وأنت غارق فى قراءة مجلة تعجبك . والوقت فى هذه الحالة لا يعني عقارب الساعة ، ولكنه يعني أيضا تقديرك لما يمكنك أن تنجزه فى فترة زمنية أمامك أو ما فاتك أن تعمله فى الفترة المنصرفة. أى أن الرمز الاصلى كان السرعة . ولكنه اتصل الان بالاسف والخوف الخ ... وقد يتصل رمز السرعة في أحوال أخرى با لحزن (عندما تفارق شيئا أو شخصا تحبه) أو بالملل (اذا كان أمامك فراغ لا يمكنك أن تملأه) .

أما تكوين المفاهيم فيهمنا عند التعلم بالذات . لانك هنا ستقوم بعمليات من نوعين . الاولى هي التعميم والثانية هي التمييز . فإذا وضعنا أمامك ورقه عليها كتابات صينية ، ستتعرف من تنظيم السطور أنها ليست صور حيوانات أو مناظر طبيعية . ومفهومك العام عن الحروف هو انتظامها الخاص في مجاميع (سواء كانت هيروغليفية ، رومانية ، يابانية أو انجليزية) . هذا هو مفهومك العام للغة المكتوبة . أما تكوين المفهوم الخاص هنا فسيجيء بعد تحليل الرموز البصرية الى أصوات خاصة أو مفاهيم أخري أدق ، تتصل بمعاني الكلمات كل على حدة . فالكتابة الصينية التي تراها اليوم على أنها رمز للغة عامة، قد تدرسها فتميز كل حرف وكل معني للحروف فيها . وبعد سنة من الدراسه مثلا ، تستطيع أن تنتقل أثر هذا التدريب الى مواقف جديدة . فتقرأ بدون مشقة كتابا صينيا ، وتفهم

محتواه ، ولو أن الرموز الكتابية فيه تختلف عن الرموز المتقطعة المستقلة التي تعرضت لها اثناء فترة تعلمك للغة جديدة . أي أنك تكون هنا قد وصلت بنجاح الى مرحلة المفاهيم ، لانك تنتقل من مفهوم (قواعد لغة) الى آخر الآن (قصة أو مقالة في جريدة) بدون صعوبة لانك أتقنت تعلم الرموز وكونت المفاهيم السليمة .

وبهذا نكون قد انتقلنا الى المرحلة الهامة في المعرفة . لأن كل ما يهمك بعد الفهم هو إمكان حل مشكلاتك . والمشكلة عبارة عن موقف جديد تجد نفسك موضوعا فيه ومضطرا للخروج منه لاكثر من دافع . الأول أن النهاية الطبيعية لاى توتر هي محاولة إزالته . وقد تنجح أو لا تنجح. ولكنك ستحاول . واذا فهمت هنا أن كلمة مشكلة لا يجب أن تعني شيئا عويصا أو مخيفا أو ضارا ، فقد سهلت مهمتك في فهم موضوع حل المشكلات . لانك قد تواجه مسألة حسابية مثلا ، أو الحاجة لركوب المواصلات ، أو الرغبة فى شراء حذاء ، أو حتي استرجاع قميصك من المكوجي . أي أن المشكلة قد تكون بهذه البساطة ، أو تكون من النوع الاكثر تعقيدا وصعوبة . فتكون المشكلة مثلا كيف يصل الجراح الى كل شظايا عظام الجمجمة بدون اتلاف مراكز الابصار في عملية بمستشفى استقبال حوادث . أو كيف يتعرف البوليس على أفراد سطوا على بنك وهم مقنعون و يستقلون سيارة مسروقة ، ولا تعرف الارقام المسلسة للنقود التي فروا بها .

حل المشكلات يتم بطرق شتى . منها الاعتماد أولا على المعارف السابقة المتصلة بالمشكلة ، ثم الاستدلال reasoning والاستبصار in-sight و المرونة في الانتقال من موقف لآخر ، ونقل اثر التدريب من موقف قديم لآخر جديد ، وسلسلة المعلومات بطريقة مثمرة ، ثم تفضيل الاجدى منها واسقاط غير المفيد في صالح الاهمية العامة . وتتوقف باقى العملية على مستوي ذكاء الفرد في سرعة وجدوي ا لحل .

المواقف والاستجابة لها

سبق لنا وقلنا ، أنك تتعرض منذ ميلادك والى الان ، لما نسميه إثارات مستمرة . أى أنك توضع في مواقف يتعين عليك فيها أن تستقبل معلومات صغيرة وكبيرة عن الاشياء حولك . واذا كنت مفيقا ، مستعدا لادراكها ، متيقظا لما يجب عليك عمله ازاءها ، فلا يسعك الا أن تستجيب . يعني أنك ستفعل شيئا . فاذا سمعت صوتا فسترهف سمعك للتعرف على مصدره وفحواه . ومجرد تركيزك هنا يعتبر استجابة نفسية. لانك بعد ذلك قد تضطر الى الاجابة لان ذلك الصوت ينادى اسمك . أو تضطر الي الجرى الى الغرفة المجاورة لانه كان صوت أختك تبكي فى ألم . وهنا تكون استجابتك عملية (حركية) . وبذلك يقترب فهمك مما يمر به الطفل الصغير وهو يتعرض لشتى المثيرات التى تحيط به ، لانه لا يختلف عنك الان فى شئ الا في ضآلة تجاريه .

ولقد سبق أن تكلمنا عن العمليات النفسية التي تقوم بها كالحس والادراك والتعلم والتذكر . ونكرر عليك القول بأن هناك فروق بين الافراد في مدى تمتعهم بالقدره على هذه العمليات . وهم بذلك يختلفون فى مستوي القدرة على الاستقبال وعلى اختيار نوع الاستجابة . وليست كل الاثارات رؤية أو سمع أو أى من أنواع الحس الاخري . لانك قد توضع فى مواقف لا يتعين عليك الاستجابة لها لان لها لون أو مسمع أو معني معين ، ولكن لانك مضطر الي الاختيار بينها وبين أخريات . وقد يكون الموقف من الصعوبة بحيث يتحتم عليك أن تخرج منه أو أن تغيره كأن تتوه أو أن ينطفئ نور المنزل .

يعنى أنك الان تستقبل نوعا آخرا من الاثارة ، وهي المشكلات . ومشكلات الطفل النامي بسيطة ، ولكنها لا تتنازل عن مطالب الحلول حتى وان تعذر عليه الوصول اليها . لانه هنا سينفعل أيضا لانه محبط أو معرقل .

مشكلات الحياه اليومية كثيرة . بعضها تحله أو تخرج منه دون أن تفطن الى ذلك . ولكن البعض الاخر يستوقفك لانه صعب الحل أو لانه لا خروج منه . وهنا تتخذ الاثارة مظهرا جديدا . لانها لا تكون حدثا بعيدا عنك . فتجند كل قدراتك لكي تقاومها ، أو تهزمها أحيانا . وللطفل الصغير نفس المواقف وإن إختلفت نوعية المثيرات . لانه سيرى أو يتذكر شيئا يريده ولكنه ممنوع عنه . وقد يفضى برغباته فترفض لينتهى به الامر الي الاذعان أو الثورة ؛ أو اذا كان من الذكاء والتقدم في العمر بما فيه الكفاية فسيختلق الوسيلة أو يتحين الفرصة للوصول الى هدفه . وتتعقد المثيرات والمشكلات عند الطفل كلما كبر في السن بطبيعة الحال. والاهم من ذلك هو الاختلاف والتباين بين ما يثير هذا الطفل وآخر ؛ تماما كما يحدث عند الكبار . وهذا ما نعنيه عندما نقول لك أن الفروق بين المشكلات عديدة ، تماما كما أن الفروق بين الافراد كثيرة . ولا يحدث ذلك لان كل فرد يختلف عن الاخر في ميوله للاستجابة فقط ، ولكن لان المواقف أيضا تتباين . وستعرف فيما يلى معني ذلك عندما تفهم كيف يمكن لاهدافك أن تتعرقل فى مواقف أو مشكلة جديدة . ثم كيف يمكن للمثيرات أن تجذبك ، كل واحدة بطريقتها ، بحيث لا تقدر أنت على اتخاذ قرار يحسم الموقف فى كل الحالات .

الاحباط والصراع

يقترب مفهومي الاحباط frustration والصراع conflict من بعضهما

اقترابا شديدا ، لان واحداً منها يمكن أن يولد الاخر . فانت الان تقرأ هذه السطور و تريد أن تنتهي منها قبل نصف ساعة . ولكنك تعرف تماما أن اتمام فهم هذا الجزء من الكتاب يستلزم ساعتين من وقتك . ولكن وراءك ميعاد هام بعد نصف ساعة ، وامتحان هذه المادة غدا . فسواء استمررت فى قراءتك وأهملت ميعادك ، أو فضلت ميعادك وأهملت قراءتك فأنت في الحالتين محبط ، وفي الحالتين ضحية صراع أيضا .

الاحباط frustration :

كلمة احباط معناها حالة ناتجة عن تعرقل السلوك الهادف . أي أنك تريد الوصول الى شئ ولكنك تجد صعوبة فى ذلك . ولن نتكلم هنا عما تفعله لو وجدت هذه الصعوبة ، ولكننا سنتكلم أولا عن الحالة التي تسبق استجاباتك لهذه العرقلة . لان مفهوم الاحباط ينقسم الي ثلاثة أوجه : (١) موقف محبط ،(٢) حالة إحباط هى صفتك في ذلك الموقف ، ثم (٣) استجابة الإحباط وهي نوع سلوكك ردا على الموقف المحبط .

يتعرض الطفل لمواقف احباط كثيرة ، سبب معظمها فى البداية هو إنعدام قدرته على الاتصال بالكبار لغويا . فما يريد قد يكون بعيد المنال أو ممنوعا عنه فيصبح وصوله اليه مشكلة لا يخففها الا مثابرته ، أو قد يزيلها تحويل انتباهه .

منابع الاحباط كثيرة . بعضها يتصل بالبيئة حولنا كأن تطير كرتك فوق شجرة عالية وتستقر فوقها بلا رجعة ، وليس لديك غيرها ، أو أن تنتهى من فهم وتذكر كل موادك هذا العام في شهر فبراير ، ولكن امتحان آخر العام سيكون في شهر مايو مهما فعلت ، أو أن تنتهي من إمتحانك في مايو ولكنك لا تعرف نتيجتك الا في أغسطس . ويتصل البعض الاخر بالعالم الاجتماعي في حياتك - فاذا أنت انضممت الى مجموعة جديدة من الناس (الكلية لاول مرة - أو تزوجت حديثا - أو

وظفت في عمل جديد مثلا) فانك ستحس ولا شك بأنك غير قادر علي الانطلاق كما عهدت . لان الجامعات تمتص أفرادها الجدد ببطء ويتحفظ شديدين ، حتي و ان أظهرت الجامعة ترحابا سطحيا مجاملا يشير الى غير ذلك . وأخيراً قد يرجع الاحباط لاسباب ذاتية personal factors تخص إمكانيات الفرد نفسه . فقد تكون الفتاة غير جميلة ، أو الفتي شديد القصر ، أو الفرد ضعيف الذكاء ، أو لا يتقن سوى العربية فى وسط كل أفراده يتحدثون ثلاثة لغات بطلاقة .

كنا في كل الامثلة السابقة نتكلم عن الموقف المحبط و فى حالة الاحباط النابعة منه في نفس الوقت . والان نتناول موضوع الاستجابة لهذه المواقف وهذه الحالة . ليس لرد الفعل الذي يولده الاحباط خصائص محددة كرد الفعل الذى تحدثه فيك ضربة على ركبتك مثلا . فالعوامل المتصلة بالموقف المحبط كثيرة . منها مدي النجاح أو الفشل المنتظر من محاولة القضاء على العراقيل أو تخطيها . فانت تريد أن تصل (هدف) الى نابولى سباحة ، أو تريد أن تلحق بصديقك في القارب سباحة ايضاء، وأنت معرقل في الحالتين (محبط) ، ومع ذلك فالفروق بين الاحباطين كبيرة . ومن العوامل الاخري المؤثرة في نوع الاستجابة المختارة عند الاحباط مدي ثبات وعلاقة العرقلة بالهدف . فاذا اتصفت العرقلة بالاصرار ، أو لازمت الهدف عن قرب (فيزيقيا أو زمنيا أو كلاهما معا)،غيرت من نوع ودافعية الاستجابة لها عما لو كانت أقل اصرار وأكثر بعدا .

الصراع Conflict :

منذ بداية التعلم ونحن نواجه مواقفا يتعين علينا أن نختار فيها بين نوعين علي الاقل من الاستجابة . بمعني أننا نقع بين شدين : أن نفعل أو لا نفعل الشئ . أى أن الصراع هنا يعني الحالة الناجمة عن تواجد نشاطين متوازيين متضادين يمكن أن نختار من بينهما الاستجابة .

فيكون الصراع بسبب رغبات متناقضة ، تولد في الفرد احساسات جديدة مثل الشعور با لحرمان أو الاخفاق أو الاحباط .

يمكن تحليل الصراع على أنه الجذب (الايجابى) والطرد (السلبى) الحادث بين العوامل الموجودة ببيئة الفرد والخاصة بسلوكه هو شخصيا. وسلوكه بعد هذا يأخذ واحدا من شكلين : الاقتراب أو التحاشى (أى الاقدام أو الاحجام) . ولا تنشأ صعوبة في اختيار السلوك اذا كان جذب احدهما أكبر من الآخر ، كأن تفضل ألا تختلس على أن تكون ثريا. ولكن الصعوبة الحقيقية تتولد عندما يتساوي الجذبان ، كأن تختار بين مهنة الهندسة أو الصيدلة وأنت شديد الحب لكلاهما ، أو أن تعلم أولادك الاستقلال والاعتماد علي النفس وأنت تواق لان يظلوا معتمدين عليك محتاجين الى قيادتك .

و للصراع ثلاث محرضات : مولد لاستجابتى الاقتراب والتحاشى (عندما ينجذب الفرد بنفس القوة الى عمل أو عدم عمل الشيء) ، أو مولد لسلوك اقتراب مزدوج approach - approach(عندما ينجذب الفرد لعمل شيئين في نفس الوقت) . أو مولد لسلوك تحاشى مزدوج avoidance - avoidance (عندما ينفر الفرد من عملين مختلفين عليه أن يختار واحدا منهما) .

الوجدان والانفعالات

Affect and Emotions

لاحظت مما سبق ، أنك تمر بخبرات نفسية لان أشياء حولك تحدث ، وبما أنك متصل بعالمك الخارجى ، فان لهذه الاشياء تأثير عليك قطعا . فانت تراها وتسمعها وتتعرف عليها وتستجيب لها . وستتعلم من

الحوادث وترمز لها لغويا وتتذكر الخ .. وسيكون لهذه الحوادث أو الاشياء وقع خاص عليك ، لانها قد تعرقل هدفك أو تضعك في صراعات الاختيار أحيانا .

باختصار : بما أنك هذا الكائن الحي الذي يتصف بالنشاط الجسمي والنفسى فان لك خاصية أخرى ، وهي ذلك النوع من الاستعداد للتفاعل المسمي بالوجدان affect. والوجدان ، أى عواطفك ، هي تعبيرك الخاص الذي يتصل رمزا بفكرك أو باحساسك . ولنقل أنك تحب الشطرنج ، لانك تحب تنشيط واثارة قدراتك العقلية كالتخيل والاستنتاج والحكم ، ولانك تحب أن تقوم بما يثيرك بدلا مما يقودك ، كقراءة قصة مثلا أثار أحداثها آخرون . وتجدنا استخدمنا في الجملة السابقة كلمة تكررت عدة مرات هى أنك (تحب) . وكان فى الامكان استبدالها بأخري مثل (تكره/ تخاف / تغضب الخ ..) وكلها مصطلحات تشير الى أنواع التعبيرات الوجدانية الرامزة الي أتجاهك النفسى نحو شيء . وهذا هو الوجدان .

إشارتك الوجدانية تنتقل من شيء لآخر لا لأن بينهما اتصال أو تشابه ولكن لان هذا الرمز الوجداني هو الصبغة التى تضفيها على الشيئين . لانك (تخاف) من الموت ، ومن الألم ، ومن صوت انفجار ، ومن لون الدماء ، ولا صلة بين كل هذه الاشياء الا اشارتك أنت اليها . وهذه الاشارة الذاتية هى ما يصلح أن تسميه أيضا : أحاسيسك أو مزاجك ، أو انفعالاتك . ولك أن تتخيل كم تختلف هذه الاحساسيس من فرد لآخر. نقول لك أن فائزة تحب اللون الاصفر بينما محمود يكرهه . أو ان المريض الاول يعاني من الاكتئاب لان كل شئ أسود في عينيه بدون سبب ، بينما الثاني يعاني من الهوس لانه شديد المرح حتي وأن كان الموقف لا يتفق ومرحه . وهنا يتصل المرض بوجدان المصاب .

ويمكنك أن تقدر أهمية الوجدان بالنسبة للحياة اذا استطعت أن

تتصورها بدونه ، وبالتالى خالية من الانفعالات التي يولدها . فماذا تفعل اذا أمضيت حياتك ولا خبرة لك بالفرح والحزن ، أو الامل والفزع ، أو الانتصار والفشل ؟ هل تعلم ماذا يحدث ؟ تعيش كالخضر ، لانك ستنمو وتنضج وتفني ولا فرق بين الايام أو الاحداث . وبذلك تنعدم الفروق الفردية بينك وبين الاخرين . وتتلاشى القيم النفسية للاشياء ولا يبقي فيها سوى قيمتها الحيوية .

جرت عادة السيكولوجيين حتى منتصف القرن العشرين على التفريق بين نوعين من التعبيرات الوجدانية . فوصفوا الضعيف منها بالاحاسيس والعميق القوي بالانفعالات . فكانت الانفعالات مثلا : الرعب ، الاسى ، ثورات الغضب أو النشوة . وكان من الاحاسيس ، الاستياء ، الانبساط ، النفور ، الاستغراب ، أو كل ما يدل على أن الكائن الحى أثير . ولكن الاثارة في الحقيقة تحدث لان الكائن تعرض لشيء ، سواء كان ضعيفا أو قويا . لذلك يميل السيكولوجيون المعاصرون الى تقسيم الانفعالات (مجموعة التعبيرات الوجدانية كلها) الى طبقات من القوة . وذلك لان كل الانفعالات تتسبب فى تحريك الوظائف الفيزيولوجية بالجسم باسلوب واحد ولكن بقوى مختلفة . فاذا قلنا أنك فرح لان استطعت أن تشتري الحذاء الذي أردته ، أو أنك فرح لانك قابلت صديقك ، أو أنك فرح لأن نتائج الامتحان وضعتك فى المرتبةالاولى ، أو أنك فرح لانك فزت فجأة فى سحب الجوائز بمبلغ عشر آلاف جنية . فهل كلمة فرح هنا تساوى نفس الوزن في كل الحالات ؟ يري السيكولوجيون المعاصرون أن الوزن يعتمد اعتمادا كبيرا على النشاط الفيزيولوجى الذي يسببه الوجدان .

وإذا أخذنا على سبيل المثال تنفسك ، فأنت فى غني عن تصويرنا لسرعته فى كل واحدة من الحالات السابقة ، لكي تستدل على قوة انفعالك في كل منها . وستجد في أي جزء يخص الانفعال فى كتب

فيزيولوجيا السلوك ما يفيدك بأحدث النتائج العلمية التي توصل اليها الباحثون في هذا المجال . وليست كل الوظائف المتصلة بالانفعال حشوية (كالضغط الدموي والتنفس وافراز الهرمونات) لانها عصبية أولا . فالانفعال يتأرجح بين الجهازين العصبى الليمبى (ابحث فى الاسس البيولوجية للسلوك) وبين الجهاز العصبى التلقائى المتحكم في الغدد الصماء ، والجهاز الدوري والتنفسى ، وغيرهما من الاجهزة الحشوية بالاجسم . وعلاوة على التقسيم السابق ، فقد فرق السيكولوجيون المعاصرون بين انفعالات الالم وانفعالات السعادة . وليس هذا التفريق جديدا على الميدان ، لأن سيكولوجيو ما قبل الخمسينات رأوا نفس الرأى، الا أنه أصبح الان أشد وضوحا وأكثر تفصيلا . ولانفعالات الألم والخوف والغضب والاذي الحسى الخ .. ، استجابات كثيرة تعتمد كلها علي استجابة التحاشى . بينما نجد أن تلك التي تنتج عن انفعالات السعادة ، أصلها استجابات أقتراب .

وللانفعالات وظائف مزدوجة ، لانها قد تكون مفيدة أو تكون ضارة . فهي في بعض الاحيان تساعد على تكيف الفرد وعلى حل مشاكله ، وفي أحيان أخرى تعرقل أو تتسبب في خطأ نفس العمليات . وتتوقف النتيجة على قوة الانفعال وعلى صعوبة العمل . و يوضح ذلك قانون ييركس – دودسون Yerkes - Dodson : – « خير المثيرات الانفعالية فى عملية التعلم، هو متوسط القوة ، حيث أن ذوات القوة المنخفضة أو المرتفعة لا تجدى ، الا أنه كلما زادت الصعوبة فى عملية التعلم ، كلما افادها إنخفاض الاثارة » . وحيث أنك تنفعل باستمرار ، سواء انفعالا بسيطا أو قويا ، فانت مطالب اجتماعيا بالتحكم فى كثير من انفعالاتك فتمتنع عن التعبير عنها أو تخزينها أو تتخلص منها بأى شكل من الاشكال . وحيث أنها أنشطة قائمة ، فإنك في كثير من الاحوال تجد نفسك في مواقف تأزم نفسى ، هي ناتج هذا الحرمان من التعبير .

التكيف Adaptation

الطفل حديث الولادة لا يعرف التكيف . وهو يمارس هذه العملية بصعوبة وعلى مضض شديد عندما ينتهي من طفولته المبكرة . لذلك نجد هذه الاستجابة متأخرة الظهور . فما هو التكيف ؟ اذا جلست على كرسي وعرفت أنك ستستقر عليه لمدة ساعة أو ساعتين ، فانك ستجد لنفسك أنسب طرق الجلوس التي ستعطيك أقصى راحة . وقد تضايقك الجلسة بعد قليل ، فترفع ذراعك اليمني لتريحها على ذراع كرسيك أو تضع ثقلك على فخذك الايسر الى آخر الحركات التي عهدتها . ما تقوم به فى هذه الاثناء هو محاولات تكيف للبيئة التي وضعت فيها . التكيف اذن معناه التغير لمسايرة البيئة بالحصول على أكثر المزايا نفعا وراحة .

ويحدث التغير بواحدة من طريقتين ، وأحيانا كلاهما معا . فاما أن يكون تعديلا خارجيا ويسمي فى هذه الحالة تقويما مغايرا allopastic أو يكون تعديلا داخليا يخصك أنت فيسمى تقويما ذاتيا autoplastic. فاذا مكثت فى غرفه واكتشفت أن درجة حرارتها مرتفعه ، فانك ستحاول أن تغير وضع البيئة بفتح النوافذ ثم الابواب ، ثم تلجأ الى شئ تهوى به وجهك ، الى آخر التغيرات التى يمكن أن تحدثها في الغرفة لتحد من حدة حرارتها . وفي النهاية قد تجد نفسك أمام الامر الواقع ، وهو أنك مهما حاولت بكل الطرق ، فانك لن تفلح في تخفيف الحرارة الى الدرجة التي ترضيك . وهنا وقد استنفذت محاولات التعديل الخارجى ، فانك ستلجأ الى تعديل ذاتي . ولا تظن أنه لم يقم منذ البداية ، لان جسمك بدأ تلقائيا في صب العرق لترطيب مسطحه الخارجى ، ولكنك الان ستبدأ شعوريا ولا شعوريا فى تقبل الموقف ، بتغيير نشاطك النفسى الذى أدى

بك الي عدم تقبله في أول الامر. وتتواءم نفسيا مع الموقف فتسترسل فى عملك ، أو تتمكن من النوم أو الاسترخاء الذي كان هدفك منذ البداية . ولا يعنى هذا أن محاولتك لتعديل الموقف ستتناول البيئة أولا ثم نفسك ثانيا فى كل مرة ، لانك قد تعكس النظام فتبدأ بنفسك أولا .

أنشطة النفس التي تؤهلك لهذا التكيف ، عبارة عن عمليات مشحونة بالانفعالات والدوافع والافكار فى كل درجاتها (من بسيطة الي شديدة). وهي مستعدة للانطلاق بمجرد استدعائك لها لانك أثرت . وتسمي هذه الانشطة : الطاقه النفسية .

سوء التكيف Maladaptation

يبدأ الطفل في محاولات غير صائبة أحيانا لاظهار تقبله لما يمليه عليه الكبار . وهو لذلك يجد نفسه مضطرا لانتهاج اساليب يظنها ناجحة الا أنه بمرور الزمن وتكراره لهذه الاساليب ستصبح جزءاً من مناهج غير سليمة للخروج من مواقف موتره . فاذا نجحت طاقتك النفسية في توصيلك الى حالة من السعادة أو الاستقرار أو الشبع وانت راشد ، فقد أتقنت التكيف ، أى أنك إخترت الاسلوب الصحيح في التعامل مع الموقف الذي واجهته بحيث تكاملت استجابتك ونفسك وبيئتك في موقف لا يضر أيا منها . وهذا النوع من التكامل لا يحدث دائما ، لان ما يرضيك نفسيا قد لا يرضى في كل الحالات مجتمعك أو الطرف الاخر فى تفاعلك . فاذا كنت مدفوعا لشيء لانك جائع ، ثم لم تجد لديك ما تتناوله فاخذت طعام غيرك ، فانك أرضيت نفسك وتعديت على الاخرين . أو اذا انتابتك الحاجة الى الترفيه عن النفس في منتصف الليل ، فلجأت الى سماع الموسيقى أو الى تمثيلية والكل نيام أو يستذكرون ، فانك اشبعت حاجتك ولكنك تجاهلت راحة الاخرين .

تتعامل معظم المجتمعات باساليب اجتماعية يحددها خط سير دقيق يشبه القوانين ، و لكنه لا يضاهيها في صلابتها ، ويسمى العرف . وهو قواعد اللياقة الاجتماعية التى ينتظر من الافراد أن يمتثلوا لها حتى وان لم يكن للخروج عليها عقاب . وتشكل هذه القواعد وزنا خاصا في استجابات التكيف التي تختارها ، بالاضافة الي الضغوط التي تضعك تحتها القوانين الدينية والاجتماعية . باختصار : تواجهك فى معظم محاولات التكيف ازمات فى القرار . لانك اذا أردت لنفسك شيئا فهو في كثير من الحالات بعيد المنال . مثلا: تريد مالا كثيرا ، تريد حرية مطلقة ، تريد عملا أقل ، لا تريد مسئوليات تثقل عليك ، لا تريد روابطاً ولا هموما ولا أرق . ولكنك تنخرط رغما عن أنفك فى كل ما لم ترد ، أو تبتعد وأنت آسف عن كل ما تريد . أحيانا لان أمنياتك أكثرها خيال ، أو لانها لا تناسب الواقع المحيط بك من أفراد واشياء .

وحيث أنك مضطر الى الاتفاق مع هذا الواقع الضخم ، لانك جزء ضئيل جدا منه ، فانك لن تختار الا ما يمليه عليك في معظم الاحيان . وتكون النتيجة أن تسعي لإرضاء الخارج بينما داخلك متوتر .

الحيل الدفاعية defence mechanisms :

يتساوى الاطفال مع الكبار في رغبتهم في تسوية أمور معيشتهم لكى تؤدى الى استقرارهم النفسى . الا أن الصغير نادرا ما يقتنى الحكمة والخبرة . وهو لذلك يقع فى خطأ الاختيار كثيرا ويستمر فيه حتى الرشد . لذلك نحتكم الى ما تقوم به أنت لانك على استعداد دائما لإزالة توتراتك ، أما باشباعها أو بتخفيفها . لذلك فانك ستحصن نفسك من الاخطاء التي قد تضعك فيها دوافعك أو ميولك الوجدانية (المزاجية) في هذه الحالة . وحيث أن اضطرارك للتكيف معناه أصلا أن الظرف المحيط بك لا يناسبك ، فانت الان تحت وطأة القلق anxiety (أو الحصر) وهو حالة وجدانية غير سارة من خصائصها إحداث تغير في حالتك

الجسمية (ازدياد التنفس واضطرابات الدورة الدموية وبعض الانسجة العضلية والغدد العرقية) ، وتغير في حالتك السيكولوجية (شعور بانهيار القوى النفسية وباقتراب الخطر ثم بالتوتر المتواصل لمواجهة الطوارئ الماسة بذاتك).

وقلقك الان قد يدفعك أحيانا الي انتهاج واحد من السبل اللا شعورية لتخفيفه . وهي طريقة تلقائية غير مدروسة ، تعتبر مناهجا غير سوية للتكيف ، لانها تخفف من حدة القلق ولكنها لا تزيله ، ولانها طرق ملتوية وغير صالحة لعلاج الموقف المقلق . وهذه تعرف بالحيل الدفاعية . ويقوم معظمها على ملاحظات ونظريات مدرسة التحليل النفسي . وهي :

١ - الكبت (repression) وهو أكثر الحيل الدفاعية حدوثا . ويعمل أحيانا على توليد الحيل الاخرى . عن طريق الكبت يستطيع الفرد أن يتجاهل أو ينفى أو ينسى بعض الشحنات الانفعالية القائمة بالذاكرة أو فى الافكار أو فى الرغبات . وكثيرا ما تظهر هذه الانشطة المكبوتة فى اشكال أخرى ، عندما يغيب رقيبك الذاتي ، لتظهر فى أحلامك أو أخطائك أو هفواتك .

٢ - النكوص (regression) وهو تراجع الفرد الى اساليب بدائية أو طفلية كلما قابل توترا نفسيا . ومن أمثلته النكوص الي المرحلة الفمية التى تعنى تراجع الفرد الى الاعتماد على الاخرين ، أو المرحلة الشرجية وذلك يعني الرجوع الى اساليب النفور والعناد والثورة .

٣ - التكوين العكسى (reaction formation) وهو محاولة لا شعورية للتمويه على مشاعر غير مرغوب فيها باظهار سلوك فى عكس الاتجاه. فالفرد الذي يحاول أن يغطى ميوله العدوانية ، يظهر بدلا منها سلوكا مبالغا فيه من الرقة والطيبة . ويحدث نفس الشيء عندما يحس الفرد بالحاجة الملحة للعطف والحنان فيظهر نفسه بمظهر

المستغني عن محبة الناس أو قربهم .

٤ - التعويض (compensation) وهو استجابة يحاول الفرد عن طريقها أن يغطى عيبا عنده . والتعويض شديد الشبة بالتكوين العكسى في مبالغته ولكنه ليس فى تزييفه ، لان الفرد لن يظهر ما يبطن ، وكل ما في الامرأنه سيحطى نفسه بقسط مضاعف من خصال يظن أنها تجتذب الاخرين . .

٥ - التفريج القهرى (undoig) وعليه يعتمد الفرد لازالة توتر عام لا يعرف مصدره دائما . فيقوم بحركات أو طقوس معينة ، بحيث يزداد توتره اذا لم تتم بنفس الاسلوب والتوقيت في كل مرة .

٦ - التبرير (rationalization) وهو أن يجد الفرد سببا يمكن تصديقه لسلوك غير مقبول ، أي إنتحال أعذار غير حقيقية لأفعال يحس أنها موضع استفهام . كأن يعتذر عن فشلة فى امتحان اللغة الاوربية لانه أصيب بصداع عندئذ ، أو أن عدم قدرته علي تذكر الشيء جاءت نتيجة لنومه الضئيل في الليلة السابقة .

٧ - التقمص (identification) أو محاكاة الغير ، لعبة يلجأ اليها الصغار كثيرا . ولكنها هي الاخرى ، حتي فى الطفولة المبكرة ، دلالة على تمنى الطفل للنمو السريع الذي هو واثق أنه بعيد المنال . وهولذلك فى هذه المرحلة من الاحباط يتلذذ من القفز بتهيؤاته التي تضعه فى عالم « الكبار المستقلين » وهى حيلة دفاعية سليمة فى مراحل النموالطفولة والمراهقة ، ولكنها تعتبر مؤشرا للصراعات فى مرحلة الرشد . وفيها يندمج الفرد في شخصية أخري بحيث يتبنى صفاتها ونوع سلوكها صفاتها ونوع سلوكها لتغطية ضعف أو نقص فى سلوكه هو . فيقلد الصبى اباه في القاء الاوامر على أخته أو تحاكى الفتاة زينة الكبريات أو طريقة مشيتهن .

٨ - الاسـقـاط (projection) . الى الان والحيل الدفاعيـة كلها هدفـها النفس. ولكن الاسـقـاط هدفه الآخـرين . و الاسـقـاط معناه القذف . وفيه ينسب الفرد نقائصه أو دوافعه المعيبة الى غيره ، أو لسوء حظه أو للظروف . و من ابرز أنواع الاسـقـاط الشك في الاخـرين . وهـو عدواني الطبيعة .

٩ - الانسـحـاب (withdrawal) . بينما كل الحيل السابقة صور لتفاعل اجتماعي موجب ، نجد أن الفرد هنا يمارس حيلة اجتماعية سلبية . لانه سينسحب للهروب من توتراته . وهو اساس معظم الاضطرابات الاكتئابية . ويظهر أيضا في حالة احلام اليقظة (daydreaming) وفـي الهستريا . ويستعمله الفرد في المرحلة الابتدائية من حيل التعويض و التكوين العكسي . أنت تسيء التكيف اذن عندمـا تـخـادع نفـسـك أوالآخرين باظهار طابع نفـسي غيـر مـا بداخلك ، أو بانتـهـاج سلوك ينافي رغباتك الحقيقة بحيث يتسبب في توليد قلق يتصل اما بحالة احباط أو بحالة صراع تخصك .

ويحدث سـوء التكيف في بعض الحالات لانه الحل الوحيد بين رغـباتك وبين رغبات مـجتمعك ، لانك اذا اشبعتها أغضبته . والاسوأ من ذلك هو أن بعض مـواقف الاحـبـاط أو الـصـراع تنجح في دفـع الفـرد الى القـيـام بسلوك يؤدى الى نفس الغضب.

العدوان Aggression

العدوان رد فعل غـريزى يتـهـذب بالتعلم . ويكون دافـعه واحـد أو أكثـر من انواع الالم الجـسـمـي أو النفـسي . فـاذا اطاحت الطفله فـجـأة بما نجحت زميلتها في الوصول اليه من انجاز ، فهي في الحقيقه تتعدى على

ما تسبب فى ألمها النفسى للاخفاق أو التخلف عن الاخرين . ولن يكون العدوان صريحا دائما أو واضح الاثر فى الحال كما هو في سنين الطفولة الاولى .

العدوان سلوك اما يدفعه الاحباط أو الغضب وهو رد فعل غريزي يتهذب بالتعلم ، أو يدفعه التلذذ فى ايذاء الاخرين . وهو نوع من العنف يتسبب في الالم لفرد آخر أو التلف لاشياء تخص المعتدى أو تخص غيره . ويمكن للعدوان أن يصدر في واحدة من عدد من الصور ، كأن يكون الفاظا عدوانية (سب) أو تعديا جسميا ، أو سخرية (نكت وكوميديا الخ ....) ويكون هدف العدوان واضحا أحيانا فتتعدى صراحة على أخيك بالضرب أو المهاجمة الكلامية . أو يكون مزاحا أو منسقولا displaced فينتقل هدفه الي شئ أخر برىء تماما عما سبب دافع العدوان فتتعدى على الاطار الزجاجي بالحائط أو تقفل الباب بعنف بدلا من مهاجمة أخاك .

ولا تظن أنك تستجيب للصراع أو الاحباط دائما بسلوك عدواني . لانك خلقت وفي جعبتك اشكال أخري من السلوك يمكن أن تخرج بها من المشاكل التي تضعك فيها حالات الاحباط التي تصادفها . ففى إمكانك أن تتبلد apathy فلا تتأثر كثيرا بما يدور حولك من مثيرات فتخضع لحكم الحالة بدون اعتراض . وفى إمكانك أيضا أن تتبنى موقف التبرير rationalization لان مواجهة الحقيقة يتسبب لك فى الالم أو القلق ، أو تحلق فى أجواء الخيال fantasy أو ما يسمى أحلام اليقظة ، متمنيا ، مغيرا لشكل الاحداث ، مطوعا الاشياء لرغبتك ، وهكذا ..

وللعدوان وجهان . وجه هدفه الاخرون و الاخر هدفه نفسك أنت . ولحسن الحظ فان النوع الثاني قليل الحدوث ، لانك قليلا ما تكتئب فتعزل نفسك عن العالم ، أو قليلا ما تعاقب نفسك فلا تأكل أو تشرب

لايام ؛ وربما ارقت أحيانا ليلة أو بعض ليالى لان ضميرك غير مرتاح . وأكثر أنواع التعدى على النفس سوءا الانتحار . أما العدوان الذى يكون هدفه الآخرين فانواعه كثيرة ، منها الانحراف فى الاحداث (الهدف هو العائلة) أو الاجرام فى الراشدين (الهدف هو المجتمع) . وللحدث المنحرف دافع أول هو عقاب أهله لاهمالهم له ولعدم حبهم . ثم يجوز أن يكون مدفوعا أيضا بحب الانتماء الى جماعه (بديلة للعائلة) صفتها الانحراف ، فيتقمص شخصيتها العامة .

محددات السلوك

يتحدد السلوك ، سواء كان سويا أو غير سوي ، عن طريق قوي قوي معقدة أو متداخلة . وتكون هذه القوى بيولوجية ، إجتماعية – ثقافية ، دافعية ، أو تكون كلها معا . ولا يتساوي فردان في مدى خضوعهما لهذه القوى .

الوراثة ، تركيب البنية ،ارتباك الغدد الصماء ، النقص أو الحرمان الجنسى ثم تلف المخ ، كلها عوامل بيولوجية يمكن أن تحدد، الى مدى بعيد ، قابلية الفرد للسلوك السوى أو غير السوى . والعوامل الوراثية ليست سببا مباشرا لانحراف السلوك ، لأن الانحراف لا يورث . ولكن الاستعدادات الموروثة هي المسئولة عن تطور السلوك بحيث يصبح شاذا أو منحرفا . ومن هذه الاستعدادات : الطبيعة البيولوجية للجسم ، والطبيعه الانفعالية والمزاجية . فمن دراسات السلالات الاصيلة تلك التي أجريت على عائلتى جوك وكاليكاك Jukes and Kallikals وجد السيكولوجيون أن عائلة جوك (وأصلها زوجين متخلفين عقليا) ظهر بها ١٢٩٠ متخلف عقلى فى ظرف ١٣٠ سنة . بينما تزوج مارتن كاليكاك مرتين ، فى الاولى متخلفة عقليا ، والثانية امرأة طبيعية . فانجب من الاولي أولادا ظهر عليهم التخلف العقلى ، ومن الثانية أولادا طبيعيين . ولم يتوقف انتقال الصفات عند الجيل الاول بل استمر الى ما بعد . فالى نهاية الجيل الخامس كانت نصف عائلة كاليكاك (من الام المتخلفة)

كلها مصابة بالتخلف العقلي والادمان والمرض العقلى والانحراف . بينما ظل النصف الاخر (من نسل الام الطبيعية) خاليا من تلك الصفات .

ويمكنك أن تقرأ فى أى مرجع خاص بفيزيولوجيا السلوك ، كيف تتحكم الغدد الصماء فى ضبط أنشطة جسمك (سلوكك الداخلى ويليه الخارجى) . فاذا ارتبكت النخامية ظهرت اعراض القزامة أو العملقة . ولا تتسبب هذه الاعراض فى انحراف السلوك ، ولكنها قطعا تتسبب فى اضطرابات التكيف العام للفرد المصاب . واذا اضافت الى ذلك بيئته (كسوء معاملة المحيطين به أو كثرة استهزائهم) هيأت تربة خصبة لانحرافه . واذا ارتبكت الدرقية ، تسبب افراز هرمونها المفرط فى القلق الزائد ، عدم الاستقرار ، التهيج الانفعالى وقلة النوم . واذا قل افرازها خملت الانشطة الجسمية وظهر على الفرد الاكتئاب الشديد . وحيث أن الادرينالية مسئولة عن الانشطة العصبية والميتابولية والجنسية فان زيادة نشاطها يعنى تهيج الوظائف السابقة ، بينما قلته تهبطها . فمن الاضطرابات النفسية الناتجة عن شدة نشاط الادرينالية : شدة وسرعة الانفعال ، عدم ضبط الاستجابات ، والميل للعدوان .

وللحرمان الحسى والجسمي والعاطفى أثر في تغيير سلوك الانسان ، فالحرمان الحسى الشديد قد يؤدى الى الهلوسة والى العدوان أحيانا (العزلة في زنزانة أو العمل في غواصة أو في الفضاء وحيدا) . والجوع والعطش المتواصلين أو عدم النوم لايام يؤدون الى التهيج العصبى والى الخلط (بين الحقيقه والخيال) والى القابلية للعدوان . أما الحرمان العاطفى (افتقاد المحبة والرعاية) فيتسبب فى الاكتئاب أو التحدى الشديدين . وكلاهما شكل من اشكال العدوان ، مختلف المظهر. أما تلف المخ ، بالتسمم أو الاصابة أو الاورام أو الصرع فيمكن أن ينتج عنه أى من انحرافات السلوك أو الاستجابات العدوانية كالهيام أو الهرب أو اتيان أى من الجرائم بعلم أو بدون علم المصاب .

هذا من ناحية المحددات البيولوجية للسلوك . أما من ناحية المحددات الثقافية والاجتماعية ، فنجد عواملاً أخري مختلفة ، مثل تأثير الاسرة ، مشاكل الطبقات الاجتماعية ، كثافة السكان ، وعبور الثقافات . فالانسان يتعلم أولى عاداته فى محيط اسرته . وهناك أيضا يتفاعل مع محيطه ، ويحصل فيه على ما يشبع حاجاته من مأكل وعطف وطمأنينة . ثم ينتقل بعد ذلك الى العالم الخارجي فيعامل الناس حوله بنفس الطريقه التي وجدها فى اسرته . أو اذا لقى نقصا فى اسرته عوضه فى مجتمعه أو عاقب مجتمعه عليه . ولكنه هنا أيضا يلتقي بمثيرات جديدة مختلفة . فقد يلاقى عزلا أجتماعيا (لانه أفقر أو أقل طبقه) . ولا يتوقف العزل الاجتماعى على الطبقات الاقتصادية فقط ، ولكنه يأخذ مظهرا آخرا هو التفريق العنصرى ثم التفريق الدينى .

ومن المشاكل الطبقية الاخري التي ترفع الاصابة بالاضطرابات النفسية وانحرافات السلوك مشكلة الانفصال أو التفريق الحضرى . فسكان المدن تكثر لديهم المشاكل اذا قارناهم بسكان الارياف والقرى . وتكثف السكان في الحضر يضاعف احتكاكهم واحباطهم . وقد اثبتت الابحاث التجريبية فداحة الضريبة التي تدفعها المجتمعات الكثيفة . فقد وصل الاثر في الحيوان الى إلتهام زملائه فى القفص علاوة على زيادة العدوان والتحرك الغير مجدي ، واجهاض الاناث وعدم تماسك الجماعة . واثبتت دراسات مسح لعادات أهل المدن كثيفة السكان أن الافراد تندثر لديهم آداب المعاملة واللياقة فى الطريق .

وكأن الفروق الاجتماعية والاقتصادية لا تكفى وحدها ، فبالاضافة الى ذلك نجد أن العزل بهذه الطريقة يتسبب فى محاولة الكثيرين من أفراد الطبقه المعزولة « الهجرة » الى طبقات أخري أو الانتماء الى طبقة أصلح، فنجد مزارعى القرى يقبلون على العمل الصناعى أو الهجرة من منطقة قديمة الى أخرى أحدث . وهنا تتولد مشاكل جديدة من عدم

التكيف أو الاحباط أو تشاحن الغرباء .

عند استعراض ما سبق ، نجد أن هناك مسببات كثيرة تؤدى الى تغير السلوك أو الى الانحراف أو الى الاجرام . واذا لخصنا المسببات نجد أنها تنحصر فى كونها عواملا بيولوجية أو إجتماعية . فقد نواجه إحتمالات وراثية للتخلف العقلى أو المرض النفسى أولا . ثم نصطدم باسر متفككة أو مجتمعات قاسية أو ضغوط اقتصادية لا خروج منها . ويكون العلاج طويلا ، لانه يتطلب توجيها أسريا ، وتصحيحا إجتماعيا لا يصحح فى يوم وليلة . وبالاضافة الي ذلك فان خدمة الافراد المنحرفين أو متعودى الاجرام تتطلب نوعا خاصا من المعالجين النفسيين ، وجماعات خاصة من المهتمين بصحة البيئة النفسية .

وليس كل التغير الي الاسوأ . فهناك محددات تساعد الفرد على اصلاح سلوكه وتقويمه . أهمها هوالتعلم ، أو بالأحرى إعادة التعليم . ويشكل هذا أولى قواعد العلاج النفسى . فالفرد الذي اتصف سلوكه بالشذوذ ، سواء كان ذلك من ناحية السلوك العملي أو اللفظى أو العقلى، فإن في إمكان المحيطين به اتخاذ واحدة من كثير من الاساليب لتقويمه . كأن يتعلم المنحرف الناشئ فى مدارس خاصة تصلح المعوج من اساليبه، أو تساعده على ملء فراغه أو على تعلم حرفة أو مهنة يجني من ورائها قرشا حلالا . أو أن يعاد تعليم اللجلاج أو المتهته على الكلام بطريقة سليمة . أو تزال حساسية الفرد الهستيرى أو القلوق بحيث يتغلب علي مخاوفه الدقيقة ، ويتعلم نوعا جديدا من السلوك القويم . أو يعتمد المشوه أو المصاب بالبتر أو النقائص على ما تبقى له من قدرات بحيث يصل الى حالة التكيف لنفسه الجديدة . بل يتم التغير فى السلوك أحيانا بتغيير البيئة كلية اذا كان في استمراره بها ضرر عليه . كأن ينتقل من رعاية أبوين مريضين أو ضارين الى كنف اسرة أخرى أكثر نفعا وسلامة للفرد الناشئ . وليس ادل على جدوي التغير بين الراشدين

من الاساليب التى يقومون هم باتخاذها . فمنها اللجوء الى مأوي أمين أو الى سلطات أقوى عندما يصيبهم الخوف أو التهديد . ومنها الانفصال عن بيئتهم التي تسبب لهم القلق أو الضغط النفسى ، كالهجرة من مكان لآخر ، أو الطلاق بعد زيجة غير ملائمة ، أو تغيير أسلوب الحياة بأي من الطرق ، بمساعدة الاخرين (أصدقاء ، أو سيكولوجيين ، أو رجال دين) أو بالايحاء الذاتي .

التطور النفسي في الطفولة

بعد دراسة قواعد العمليات النفسية بكل أنواعها ، ثم هوامشها التي تؤدى بالفرد الى السلوك التلقائى أو المدروس ، ثم السوي وغير السوى، نعيد النظر الان فيما يتعرض له الطفل الوليد من ضرورات وما يواجهه من موجهات السلوك ؛ لكي نربط ما سبق (وبعض العمليات لا توضح لديه الا بعد سنوات من التمرين) بما هو قائم به الآن وهو حديث الولادة

يواجه الطفل المولود نوعين من التحديات : أولها أن يتمكن من التعرف علي المجتمع المحيط به بما فيه من أفراد ، وثانيها أن يتعرف على ما في بيئته من اشياء سيتعامل معها . وطالما هو متمتع بذكاء متوسط علي الاقل، فهو ما يلبث أن يحس أن هناك فردا ما (غالبا أمه) يهتم به وباحتياجاته الضرورية . ويكون نوع الارتباط الذي ينشأ بينه وبين هذا الفرد الآخر مؤثرا الي درجة كبيرة على انواع الروابط التي سيكونها فيما بعد مع الأفراد الاخرين . وفى نفس الوقت ، يعتمد نجاحه فيما بعد علي تطويع المستويات المعقدة لقدراته المعرفية على مدى وحدة قدراته الحس - حركية الآن وهو حديث الولادة . أى أننا في الحقيقة نشير هنا الى كل أنواع العمليات النفسية التى سبق الكلام عنها مجتمعة . لان

الوليد يتعرض للحس وللادراك وللمعرفة وللتذكر وتساعده فى ذلك دوافعه وأعضاء حسه وأجهزته العصبية والحركية والحشوية . ويعبر عن كل شيء بانفعالاته جمعاء ؛ حتي وإن كل طريقته في استخدام العمليات هذه ساذجة ، لانه عديم الخبرة قليل المران . وما سبق ، ولو أنه وصف لما تمر به أنت الان من عمليات نفسية وانت راشد ، الا أن الطفل الوليد مجهز بكل الاستعدادت التي تؤهله للقيام بها هو الآخر منذ البداية ، ويستخدمها فعلا كلها بدون استثناء .

أول الطريق الى المعرفه عند حديث الولادة :

لا شك فى أن جان بياجيه Jean Piaget كان رائد البحث فى النمو النفسى عند الطفل ، وأن افكاره العبقرية صعبة الفهم في بعض الاحيان شأنها شأن كل جديد ثائر . فهي تتحدى نظريات « المعرفة من البيئة » أو environmental learning . لان الطفل بالنسبة لبياجيه ليس صورة طبق الاصل من عالمه ، ولكنه يجني معارفه بجهوده الذاتية وبطريقته الخاصة جدا . وأن لكل طفل خصائصه التي ينفرد بها ويختلف عن طريقها عن اقرانه . وأن كل الاطفال ولو أنهم يمرون بمراحل المعرفة التي سبق الكلام عنها (الحس - حركية / التفكير الاناني / الحدس / العمليات المحسوسة / العمليات المعقدة) وهي ثابتة ، الا أنهم يختلفون تماما فى انواع السلوك اثناءها . ولبياجيه مدرسة ضخمة قائمة للآن يشكلها فلافيل Flavell وفورث Furth وجاردنر Gardner وانهلدر Inhelder ،وغيرهم.

يري بياجيه أن أنانية الطفل الاولي ليست أنانية بمعني الكلمة ، ولكنها تشير الي أن الوليد لا يعرف كيف يفرق بين نفسه وبين الاخرين والاشياء. وأن خروجه من هذه المرحلة طويل وشاق بالنسبة للطفل ، ليصل في النهاية الي مرحلة فك المركزية decentration. وهنا يبدأ باستعمال خططه الخاصة في الالتقاء عقليا بالاشياء . لان هذه الاشياء تبدو دائمة من الآن فصاعدا . وهو لذلك يحيطها بالفهم

assimilation ثـم بالمواءمـة accommodation . فاذا اعطى الطفل ، وعمره الان سنة مثلا ، لعبة رأسها ضخم وأطرافها صغيرة ، فان حبه لوضع الاشياء فى فمه.سيملي عليه عمل ذلك توا . وقد يصادفه الرأس الضخم فى بادئ الامر ، فيحاول أكثر من مرة أن يدخله فمه ولكنه يفشل . فيفتح فمه الى اقصاه فى كل مرة ، وفي النهاية يقلبها رأسا على عقب ليجد ما يستطيع أن يمضغه من الاطراف . وخططه فيما سبق : التعيث والمحاولة والخطأ والاستكشاف .

ويقسم بيجايه مراحل النمو الخمسة العظمي الى انتقالات أخرى بين كل واحدة والتى تليها الانعكاسات المنشطة الاولى التي توصله بعد التمرين الى القبض على الاشياء أو الوصول الى ما يريد . ومن النقلات الاخرى مثلا ربط الطفل بين حركته وبين ما يناله من بيئته . فهو يبدل قدميه وساقيه في الهواء كراكب الدراجة كلما فرح لان راشداً داعبه أو قدم له لعبة . فكلما لوح بساقيه بعد توقف الراشد أعاد إحداث المداعبة أو استجلاب اللعبة . ويسمي بياجيه هذه النقطه « الاستجابة الدائرية الثانوية » secondary circular reaction وتنتقل هذه الي أخري بتقدم الطفل فى العمر شهرين آخرين . لانه بدلا من الاعتماد علي فرد آخر في تكرار شيء يحبه ، فانه الان يأخذ يد الفرد ليحركها حتي يبدأ الفرد من جديد ما توقف عن عمله .

عند الطفل حتي ١٨ شهر ، في رأى بياجيه ، رصيد من الخطط schemes ، هي وسائل تعرفه المتطورة فى التعقد كلما تقدم اسبوعا من عمره . وهذه الخطط توازى العمليات processes عند الكبار ، الا أن عمليات الكبار تتصف بالثبات في معظم الاحيان بعد الرشد (طريقتك فى فهم الشيء أو حل المشاكل الحسابية أو الميكانيكية) بينما خطط الطفل الصغير تتصف بالتغير من مرحلة الى التي تليها ، لانه يكتشف بمرور الايام اللجوءالى ما هو أجدى . علاوة على أن الاشياء الغامضة في

البداية ، تصبح ثابتة دائمة ؛ والاحداث التي يحسبها مقاطع متفرقة لاصلة بينها ، تصير الآن متصلة فيمكنه التنبؤ اين تسقط لعبته ويفتش عنها ؛ بل ويتفتح الان الى التغير ليطارده بسمعه وبصره بدون هوادة ليبدأ رحلة المعارف بكل يقظة وبكل فهم .

الارتباط النفسى

لم يجد دارسو الانسان (الانثروبولوجيون) ثقافة واحدة يولد فيها الطفل وينمو مستغنيا عن ارتباطه الشديد بكان حى آخر . وبديهي أن ذلك مرجعه ، كما نعرف، ان الانسان حديث الولادة مسلوب القدرة على الاستقلال لمدة طويلة . فهو لذلك يعتمد على الاخرين اعتمادا كليا فى السنة الاولى من عمره . ثم تتضاءل هذه الحاجة الشديدة الي الآخرين كلما تقدم في العمر بعد الخامسة ، ولكنها تظل واضحة عندضرورة المحافظة على سلامته البدنية وعلى استمراره حيا ، (لمدة طويلة جدا - ربما حتي المراهقة) اذا ما قورن بصغار الحيوانات أو أي من الكائنات الحية الاخرى .

وعندما درس هاري هارلو Harry Harlow القردة حديثة الولادة وعلاقتها بأمهات بديلة Surrogate mothers ، وجد انها تسعي الي الاشياء الحنونة الدافئة (دمية من سلك تغطيها فوط كثيفة) وتفضلها على الاشياء الجافية حتي وإن كانت مصدر طعامها (دمية من سلك عاري بها زجاجة لبن لرضاعتها) . وسمي هارلو هذا الاحساس « راحة التلامس » . ووجد أن القردة الصغيرة رأت في أي شئ دخيل بعد ذلك تهديد لهذه الراحة (دافع الخوف) بحيث دفعتها لاحتضان الام البديلة بقوة أكبر (دافع الاحتماء) اذا وضعت أمامها دمية جديدة من نوع آخر. وعندما زاد التهديد لشدة اقتراب الدمية الجديدة استجابت القردة الصغيرة بالتلويح والضرب (عدوان) للدفاع عن أمنها .

وفى تجارب أكثر جرأة بعد ذلك ، درس هارلو ما يمكن أن يولده الانعزال فى القردة حديثة الولادة . فحبس كل واحدة منها في قفص به ما يكفيها من طعام فقط . أي أن مكان اقامتها افتقر الي أى مثير . وكانت النتيجة أن حضنت القردة الصغيرة « اليتيمة » نفسها ، أو تأرجحت حتي النوم ، أو وضعت أى شيء في فمها . وعندما خرجت بعد مدة الي العالم الخارجي لم تختلط مع اقرانها ولم تلاعبهم ، وظلت معظم استجاباتها عدوانية نحو الغير ونحو نفسها ، أو إنطوائية بحتة .

تختلف صغار الحيوانات عن اطفال الانسان من كل ناحية . والتعميم عبر الاجناس خاطئ منطقيا وعلميا . ومع ذلك فالحيوان هو الوسيلة الوحيدة للتجريب العلمي ، مع ما يتضمنه من قسوة ، وبالرغم من استحالة التجريب علي اطفال الانسان ، الا أنه ظهرت بعض الابحاث في ظروف خاصة ، منها بحث بَولبى Bowlby ، الطبيب النفسى الذى كلفته هيئة الصحة العالمية في أواخر الاربعينات بدراسة الاطفال الذين فصلوا عن ذويهم . فعكف هو ومساعديه بكوين Bakwin ، ريبل Ribble ، سبتز Spitzثم وولف Wolf ، علىَ دراسة العديد من الحالات تحت كل الظروف ليخرجوا منها بعد ما يقرب من سبع سنوات بما يفيد بأن الطفل المعزول (فقير الارتباط النفسى) لا يتمتع بلذة اللعب وحب الاستطلاع أو الاستكشاف أو تكوين الصداقات . ويستمر ذلك فى معظم الحالات مدي الحياة . وقد اكدوا ، مع ذلك ، أن الارتباط النفسى في اطفال العائلات الدائمة ، لا يظل بنفس القوة بعد السنة الثانية . لان الطفل يبدأ عندئذ فى الانسلاخ عن هذه الرابطة ليستقل نفسيا في أوقات لعبه مع أقرانه أو فى بعض ساعات النهار التي يود أن يترك وشأنه اثناء ها (وهو في هذه الاثناء غالبا ما يقوم بما يمنع عنه وهو في رفقة الكبار) . وهذا المؤشر هو بداية التطلع الى فرد وقته الخاص لنفسه privacy. ومظاهر الاستقلال النفسى عند الطفل بعد عامه الاول تنحصر فى ازاحة الاشياء والافراد بعيدا عنه . أو الاعتراض ، أو الهرب ، أو رفض الاوامر أو

التعدى على أقرب المقربين تبعا للموقف المثير (طعام لا يريده ، أو ساعة نوم يؤجلها ، أو استحمام يرى الحياة بدونه ، أو الرجوع الى المنزل بعد النزهة) . وبذلك نجد أن الصغير بدأ يمل القرب الشديد من بعض من يحب في بعض الاحيان ، بعد أن كان ينتظر ويتلهف علي حدث أو مداعبة تقربه فيزيقيا ممن يرعاه .

وقد ظهر باحثون آخرون إهتموا هم الاخرين بخاصية الارتباط النفسي عند الاطفال ومدي علاقة بيئتهم العائلية بها . منهم شيفر وايمرسون Schaffer & Emerson في سكوتلاندا ، وبروفينس وليبتون Provence & Lipton في أمريكا ، واينزوورث Ainsworth فى أو غندا ، ليخرجوا بنفس النتائج في ثقافات متباينة . حيث دعمت الروابط العائلية السليمة صفاتا إجتماعية صحيحة فى الاطفال ، بينما نتج عن الحرمان منها مرض الاطفال واضرابهم النفسى وعدم قدرتهم على التعايش الاجتماعى الدافئ السليم بعد الطفولة . وظهر أن الطفل المحبوب يكون محبا أيضا ، بل ويواسى أقرانه المحرومين من العطف ، تماما كما لو كان راشدا معالجا، فيقدم لهم من طعامه ولعبه ويعلمهم الاحتضان والتقبيل والمشاركة .

الانتماء أو التعلق النفسى يبدأ فى أول عمر الطفل عن طريق الاحتضان . ويستمر الطفل سعيدا راضيا بهذا الالتقاء الجسمي لمدة سته أشهر وأحيانا الى نهاية العام الاول ، يستطيع بعدها أن يتخلى أحيانا عن هذه الحاجة ليعوضها بمجرد ملاحقة من يحبه بنظره أو بالاستماع لاى شئ يقوله أو يترنم به . لذلك فانه بعد ذلك يحس بالوحدة اذا لم يراه أو يسمعه ، فيبكى معترضا على تركه وحيدا . واذا اجيب الى مطلبه دائما بالتواجد المستمر حوله ، تعود علي ذلك وأصر على مطلبه باكيا في كل مرة . لهذا يري التربويون أن الطفل فى النصف الثاني من سنته الاولي يجب أن يتعرف على دمية أو أكثر حتي لا يطالب من يرعاه بكل وقته ، فيمهد بذلك الطريق الي تكوين شخصية معتمدة فيما بعد . ويتعرفه على لعب وأشياء جديدة يتعامل معها بمفرده يشق أولي الطرق

المؤدية الى التقائة بالعالم الخارجي ، بما فيه من أشياء وافراد آخرين .

القلـــق:

بعد سته أشهر من عمره يخبر الطفل أنواعا معينه من القلق لاول مرة. لانه سيتعرف على قلق الفراق separation anxiety وعلي التوتر من الغرباء stranger anxiety. وقلق الفراق ينتج عند مغادرة من يرعاه (وهو الان صديقه الوحيد) . وقد يغادر الراعي الغرفة بدون انذار فينفجر الطفل باكيا ، أو يغادرها وهو يخاطب الطفل باستمرار ، ويستمر في التخاطب معه حتي من وراء الجدار فيطمئن الطفل نوعا ، ويتعود بهذه الطريقة على عدم وجوده فيزيقيا أمامه ومع ذلك فهو مستمر معه في مكان ما بطريقة ما .

وقلق الفراق عند الطفل في سنته الاولى يختلف تماما عن قلق الفراق عند الراشد . لان الطفل لا يفهم الاستمرارية بعد ، ولن يفهما بالضبط لمدة طويلة (ربما حتي السابعة من العمر) . لذلك فأى شيء يختفى فيزيقيا (حتي الشهر السادس من عمره) فقد انعدم بالنسبة له . وهو لذلك يربط الفراق باللاعودة فيصبح قلق الفراق في الحقيقة الخوف من الموت . والخوف من الموت واحد من المخاوف الغريزية التي تولد معنا. فهو لا يكتسب ولكنه يستخرج كلما دعت الضرورة أو الموقف .

أما التوتر من الغرباء (أو قلق الغريب) فيحل أيضا ما بين الشهر السادس ونهايه العام الاول من عمر الطفل . ومصدره الاحساس بالتهديد ، حيث أن الغريب القادم مجهول للطفل . وكما فهمنا قبل هذا ، فان للطفل الوليد وجهة نظر واحدة تضع الاشياء فى أبيض أو أسود فقط. فانت إما صديق أو عدو وليس بينهما ثالث . وحيث أن الغريب لا يربطه نفسيا بالطفل شئ فهو اذن عدو . وهو غير مرغوب فيه ، الي أن ينجح بلباقته وصبره وعدم ملاحقته فى استقطاب تقبل الطفل .

والغـريا ء عند الطفل صـفـة أخري ، غـيـر كـونهم مـجـهـولين . لان باستطاعة الغريب اخفاء راعي الطفل أو إحتـلال كل اهتمامه و التفريق بين الطفل وراعيه . وهو لذلك عـلاوة على تعديه على بيئة الطفل الفيزيقية فانه أيضـا يتعدي على أمنه النفسي واستقراره.. وبذلك يخبر الطفل ثاني مـخـاوفه المبكرة وهي الخوف من المجهول . وهو وإن كـان من المخـاوف المكتسبة ، الا أنه يتبع مخاوف الموت الغريزية ، ويظهر متأخرا عنها نوعا. و خير ما فيه أنه يخدم دافع الاستكشاف فيما بعد .

الثقه والشك :

طرق المعالج النفسى الامريكى اريك اريكسون Erik Erikson بعد ذلك بابا آخرا بحث فيه عن التطورات النفسية التي يمر بها الطفل منذ عـامه الاول حتي يصل الي النضج ، والتى تشـحن وجدانه بطريقة توصله الى مـا يخـتـاره الآن وفى حيـاته المستـقـبلة من انماط سلوك ومـا يتـبناه من سمات شخصيته . وسمي كل نقطة تحـول في مخـتـلف مراحل عمـره « أزمة الحياة » أو life crisis. ووجد أن الطفل في السنة الاولي يخبر توترا يقـيـمـه على الاحـسـاس بالثقـة أو الشك في المحطين بالطفل ومن يتعامل معهم من قريب أو بعيد . ويقرر الطفل بطريقته الخاصة (الخاطئة فى كثير من الاحيان) ان من يواجهه صديق أو عدو . وقد يغير رأيه بمجرد المداعبة . ورأى اريكسون في كثير من القادة آثار هذه الاصابات أو الازمات في طفولتهم . فـحب غاندى للانسانية نتج عن طفولته المتلئه بالثقة في الانسان وفى حبه لغيره . بينما رأى فى ضراوة هتلر عكس ذلك .

الغيـرة:

تبـتـعـد مـعظم أبحـاث النمـو النفسى عند الطفل عن ذكر أو دراسة الغيرة، [illegible] في الاعتقاد أن التربية الحديثة قد ازالت هذا الاحساس من

حياة الطفل. فالمربى يسعي دائما لطمأنة الطفل ، ويعلمه كيف يشارك وكيف يتقبل الاخرين . وهو لذلك يعلم الطفل الابتعاد عن الظن بأنه يملك كل شيء وأن له حقوقا فقط . باختصار : الا يكون أنانيا .

واذا عرفنا الغيرة على أنها الاحساس بالالم لمجرد التفكير فى فقد شيء أو فرد تعلقنا به ، فان معني ذلك اننا مررنا بتجربة التمسك بهذا الشيء أو الفرد لانفسنا فقط بدون منافس . وهذا الاستحواذ فى حد ذاته اضطراب اجتماعي نفسى ، كما يراه علم النفس المعاصر . ولا يتسع المجال للاشارة الى عملياته التى تؤدى أحيانا الى واحد من الامراض النفسية العظمى فيما بعد عند النضج (البارانويا) . و الغيرة عند الطفل تعني اصراره على التمسك بما تعرف عليه فى بيئته (حب التملك) . وحيث أن للتمسك وجها آخرا هو التهديد الذى يواجهه (الفقد)، فان لهذا الحب بالتالى انفعال مقابل هو الخوف مرة أخرى . وهذا الخوف هذه المرة أيضا يشيرالى الاحساس المبكر باحتمال اختفاء شيء أو فرد وعدم عودته .

غني عن الذكر اذن ، أن مجرد ظهور الاحساس بالغيرة عند الطفل يعني خطأ فى استراتيجية المربى ، لأن هذا الاحساس مكتسب . فالافراط فى احاطة الطفل بكل مطالبه وكل الاهتمام دون غيره، يحيط الطفل النامي بهالة من الاحساس بأنه وعالمه لا منازع عليهما . والاحجام عن تعريضه للآخرين مبكرا يؤجل تطبيعه الاجتماعى ، بل ويعرقل قدرته على المشاركة وفهمه لحقوق الغير أيضا . وتكون هذه ثانى زلات المربى . أما الخطأ الثالث الذى يربى الغيرة في الطفل النامى فهو توليد المنافسة عنده. ومع أن حب التفوق علي الاخرين دافع للاجادة ، الا أنه يعتبر ايضا من الاضطرابات الاجتماعيه التى تتفاداها التربية النفسية الحديثه. فالمفروض علي المربى أن يولد فى الطفل لا حب التفوق على الآخرين ولكن حب التفوق على نفسه . ومن هنا نري كيف يمكن أن يتفادى المربى

توليد غيرة الطفل من تقدم أوتفوق قدرات الأقران . (ومع ذلك فنحن نخضع للامتحانات والتقديرات والرتب فيما بعد رغما عنا ...)

اللعب :

اذا عرفنا اللعب play على أنه التجريب على عمل شيء جديد ، ثم الاستمرار في التمرين عليه بعد التعرف على كل الاوجه والاحتمالات في التعامل معه ، فان للطفل حديث الولادة عالم كله يتفتح على لعب من كل الاشياء وبكل الطرق . ولعب الساذج في البداية ينحصر في الملاعبة الاستكشافية exploratory play ، لان ما يحيط به كله جديد ، وكله اثارة ، فهو يداعبه بيده (يتحسسه ويمسكه ويهزه ويضربه ويلقيه) . ثم بعد الشهر الرابع ، يتناول الطفل كل شئ جديد الشكل مختلف اللون فتكون هذه مبادىء اللعب الذي يظل ساذجا الى نهاية عامه الاول تقريبا . ويظل لعبه بدون هدف لمدة طويلة (حوالى ستة أشهر) لانه لا يعرف الاهداف المدروسة في اللعب بعد . ثم يساعد ابصاره وسمعه يداه في اللعب بعد الشهر الرابع ، ليبدأ فى استخدام التذكر بعد السادس . وهنا يأخذ اللعب مظهرا آخرا هو لعب التعليم . ولا تظن أنه قادر على تركيب الاشياء وفكها بعد ، ولكن تعلمه ينحصر في أن الحركة تؤدى الى احداث الاصوات (اللعب بالشخشيخة أو رفص جدار السرير أو التصفيق عفوا) ، وأنها أيضا تؤدى الى تناول الاشياء الجديدة الاشكال والالوان ، بل ونقلها من يدة اليمنى الى اليسرى أو العكس . ولا تنسى أن أكثر لعبه تفضيلا في هذا الاثناء هي وضع كل شئ فى فمه ، حتى إصبع قدمه .

أثناء عامه الثانى ، يستطيع الطفل أن يقوم بحركات أكثر اتقانا . لانه يمسك الاشياء بأصابعه ويحتويها من كل الاتجاهات . ثم يضعها تماما حيث يجب أن توضع بمجهود أقل كثيرا عن ذى قبل . ويصبح لعبه

الان أكثر اعتمادا علي قدراته العقلية .

وفى عامه الثاني أيضا يتعلق الطفل بلعبة أو أكثر ، تزاملة أينما ذهب. وقد تكون دمية أو كوب ملونة أو حتي بطانية . وقد سمي وينكوت Winnicott هذه اللعبة المفضلة اثناء تلك المرحلة « الجسم الانتقالى » transitional object وهي شئ فيزيقى مستديم غير متحرك ، يوليه الطفل كل اهتمامه ، ويوقع عليه متلازمة طريفة من الافعال التي تشبع بعض دوافعه وحاجاته التي يستطيع الان أن يستغني فيها عن الكبار (وضعها فى فمه ومصها ، احتضانها حتي ينام ، ضربها كلما غضب والقائها بعيدا كلما أحبط) . ويري وينكوت أن هذه اللعبة لا تشكل أولى ممتلكات الطفل فحسب ، بل أولى اختراعاته أيضا .

و اذا أتيحت له الفرصة، يبدأ الطفل فى عامه الثالث الاتجاه نحو لعب من نوع آخر ووجدانه الآن يأخذ اتجاها آخرا لانه يتعلق مرة ثانية بالاشياء الحية المتحركة . لانه سيفضل قطة أو كلبا حيا علي لعبته الاولي الجامدة ، لتصبح هذه على رأس القائمة . وكثيرا ما نجد اطفالا يضفون الحياة على اشياء جامدة « فتمشى» الدبة معهم أو « يعوى » الكلب المحشو أو « تأكل » العروسة . وفى نفس الاثناء ، واعتمادا على بيئه ثرية الثقافة ، يستطيع الطفل الان إستعمال قدراته العقلية والحركية فى مزاولة العاب تعليمه لكل مرحلة . فيمكنه أن يربط و يفك اللعب والصواميل والحلقات ، أو أن يرص المكعبات جنبا الى جنب وفوق بعضها ، ثم أن يكون الاشكال الكبيرة من القطع الصغيرة بتعشيقها وهكذا . وكلها لعب مدروسة تتبع قدرات الطفل فى كل مرحلة ولا تحبطها .

وآخر أنواع اللعب التي يمارسها الطفل الان هى الالعاب الجماعية ، التي قد تتطلب وجود مساعدات فيزيقية (كالكرة مثلا) أو لا تتطلب

سوي وجود اطفال آخرين . وفي كل الحالات يملي علي الطفل الان نوع جديد من المفاهيم هو قانـــون اللعب أو اللعب المشـروط ، أو ما يسمى rule - governed play. ويبـدأ الطفل من هنا شـوطا جـديـــدا فى حيـاتهلانه سيتـعلم (بالاضافة الي المشاركة) ، اسلوبـا جديـــدا هو الامتـــثال أثناء اللعب والتخطيــط له . ويكــون قد دخل مرحــلة اللـعب المدروس .

واذا ساعدته عائلته وبيئته ، فان الطفل الان يصير إجتماعيا في لعبه ، يرضى بالفوز ويتقبل الخسارة . لان هذه القاعدة السليمة تساعده فيما بعد علي النهوض بعد السقوط ، والاعتماد على النفس وعلى دفعه الذاتي فى التعلم والتقدم ، ولان قدراته العقلية بعد الرابعة تعده لخوض مرحلة التعلم والتقدم ولان قدراته العقلية تعده لخوض مرحلة التعلم الاكاديمي الجاد ، فان معظم ما يروق له من العاب الان ، هو ما يشحذ تفكيره ويتحدى خياله . وتتعقد انواع اللعب التي يرضى بها لوقت ظئيل بدون ملل ، كلعب الفك والتركيب ، أو المتاهات ، أو توفيق الاشكال والالوان والاحجام . وفي كثير من الاحيان ، يستطيع في الخامسة قراءة الحروف والتعرف علي الاعداد ، بل والجمع والطرح البسيط ، لان بيئته تهيئ له أنواع الالعاب التي تساعده على هذا الالمام .

مظاهر العدوان عند الطفل :

يري معظم السيكولوجيون ، ومنهم فرويد Freud وكنرادلوريتز Konrad Lorenz ، أن الميل للعدوان غريزي . ومع ذلك فهناك أيضاً من يرون أن العدوان ليس ضروريا وأنه في الحقيقه متعلم (سكيز Skinner وسكوت Scott) . وقد قامت مجموعة مكونة من سيرز Sears وماكوبى Maccoby وليفين Levin بالبحث في العدوان عند الاطفال وعلاقته باتجاهات الوالدين نحوهم . فوجدوا أن التسامح الشديد والعقاب الشديد عند تعدي الطفل تسبب فى تصعيد عدوانه (عند التسامح بتدعيمه وعند

العقاب بتبريره) . وعلاوة على ذلك فقد وجدوا أن الطفل يحاكي عدوان الكبار في عائلته لانهم مرآته ، فهو لا « يخترع » الاساليب العدوانية ولكنه ينقلها من مصادر أخري (المقربون اليه في سنوات النمو الاولي). ويكون نموذجه العدواني فيما بعد كل ما تعرضه وسائل الاعلام المحيطة به .

ولا يبقى السلوك العدواني ، ان بدأ ، علي نفس الصورة . لأن فيشباخ Feshbach وجد أن الطفل الصغير يكف عن ثوارت غضبه tantrums بعد الخامسة ليستعمل الالفاظ العدوانية بدلا عنها . وأن غضبه من الاشياء يتسبب في عدوانه الالى instrumental aggression بينما يتطور غضبه في طفولته المقدمه بحيث يصبح عدوانا عدائيا hostile aggression نحو افراد وليس نحو اشياء كما كانت الحال قبل الخامسة . فاذا أهين طفل قبل الخامسة فان استجابته تكون بالضرب ، أما اذا حدث ذلك بعد الثامنة مثلا فان ثأرة لن يكون ضربيا ولكنه سيأخذ مظهرا عدوانيا مختلفا مشحونا بسبق الاصرار والكراهية (كالايقاع أو التشهير بالآخر أو تدبير الاذى الجسمي والنفسى) .

تطور نظام الرموز :

الى الآن والطفل (حتي نهاية عامه الثاني) يتقن الي درجة ما عمليات تتصل بالحس والادراك وبالحركة . لانه أصبح الان يفرق بين الوجوه والاصوات ويستطيع الوقوف والمشى وتناول الاشياء التي يريدها . وبدخوله السنه الثالثة من عمره يتطور نفسيا من ناحية أخرى وهي استبدال المحسوسات المحيطة به برموز تشير اليها : يخزنها هو لنفسه كمرجع ، أو يتداولها مع الاخرين إن هو اراد الاتصال بهم . وأول هذه الرموز الجديدة في حياته هي اللغة . و أول الكلمات التي يستعملها تكون عادة اشارة الى أقرب الناس اليه : ماما ، بابا ، الخ ... ونادرا ما يبدأ الطفل بالاشارة الى اشياء فى البداية . وبمجرد استطاعته النطق ، فان

طوفان الكلمات التى سيرددها (والمعلم هنا هو القائم برعايته) يظل مفردات متقطعة لاشياء كثيرة . ولا يستطيع تركيب الجمل الصحيحة الا بعد المرور بمراحل متعددة من التشكيل اللفظى والتصحيح المستمر من الكبار . لانه قد يخالط فى هذا الاثناء طفلا أو أطفالا من سنه ، فترتبك لديه قوانين اللغة ، حيث أن اقرانه يقعون في نفس الاخطاء ، أو يستحدثون غيرها . وتكون النتيجة أن يتعثر في بداية مرحلة التعبير اللغوي . وتظهر أهمية المربى فى هذه المرحلة . لان كثيرا من الجماعات تترك الطفل حتى مرحلة متأخرة قبل تصحيح لغته ، فيظل متخلفا فى فهم القواعد السليمة للتعبير ، أو يترك عمدا ليعبر بلغة متعثرة مدللة لا لشيء الا للترفيه عن الكبار .

يساعد نظام اللغة أنظمة أخرى منها نظام الاشارة لان الرمز اللغوي لن يرتبط بفهم الطفل الا اذا ساعدته الاشارة . فيرى جاردنر Gardner وكذلك كابلان Kaplan أنه قد ينطق كلمة بابا كالببغاء فى البداية ، لانه في مرحلة التعليم بالتكرار أو الترديد ، لكنه فى الحقيقة لن يربط بينها وبين جسم والده الا اذا اشارت اليه الأم مثلا وهي ترددها أيضا .

ولا ينفرد نظام الاشارة بتعضيد نظام الرموز اللغوية فقط ، ولكنه يعمل في إتجاه آخر هو التعبير الغير لفظى ايضا . لأن الطفل يدير رأسه إن لم يرد الطعام القادم على الملعقة ؛ أو يرفع ذراعيه الي اعلى إن اراد الاحتضان أو كان متعبا ؛ أو يبتسم أو يقطب للقادم نحوه ، الخ ..

ويرى باور Bower والكند Elkind وهدسون Hudson أن هناك نظاما هاما يتطور عند الطفل بعد الثالثة هو قراءة الصور . وأهميته تنحصر في قدرة الطفل الآن على تفسير ما هو ثنائي الابعاد (مسطح) خالى المؤشرات الخاصة بالملمس أو العمق أو الحياة أو الحجم ، بحيث يتوصل الى فهم وادراك ما يشير اليه .

ويلى نظام الحروف المكتوبة نظام قراءة الصور السابق . لأن باستطاعة الطفل فى السادسة أو السابعة (وكثيرا قبل ذلك) أن يقرأ ويستعمل الرموز الهجائية (أى من اللغات)والرموز العددية (الحساب) ورموز الاصوات (النوت الموسيقية) . بل وثبت أن الطفل في هذه المرحلة من العمر يتفوق علي الراشد في قدرته على التحصيل السريع لأى من أنظمة الرموز . وأن خزنه واسترجاعه لها يفوق بمراحل ما يقدر عليه فرد فوق العشرين . ومن هذه الامثلة المقارنة بين سرعة تقدم الطفل والراشد ما يحدث عند تعلم الكمبيوتر . فقد تقدم الاطفال بين ٥ - ٧ سنوات بسرعة اكبر من الكبار المنخرطين فى محاضرات computer literacy بجامعات الولايات المتحدة أثناء الاعوام العشرة الماضية .

تطور التخيل :

الى الآ ن ومعظم الموضوعات المطروقة تتصل بربط أشياء ملموسة بالفهم والذاكرة ، أو استعمال الحركة والرمز للاشارة اليها . ويتبقي بعد ذلك دراسة نظام آخر عند الطفل النامي هو قدرته علي التخيل . وفي الحقيقه فإن نظام الادراك يتبعه آخر قبل الخزن . وهو كيفية تعامل الطفل مع مدركاته بحيث يتوصل الى تخزينها .

استمرار تصور المرئيات حتى بعد اختفائها قدرة يمارسها معظم الاطفال بين الرابعة والعاشرة . والمهم في هذا التخيل الاستمراري eidedic imagery أنه يحتفظ بالصورة المستمرة الان في مخيلة الطفل صافية كما جاءت بالطبيعة خالية من الاضافات أو الالغاء . ويمكننا أن نقرب هذه القدرة بما يتمتع به عدد صغير من الراشدين ويسمي الذاكرة المصورة photographic memory . وتبقي الصور طبقا للأصل المصور عند الطفل الى أن يجد الطريقة المناسبة لفك رموزها وخزنها بأسلوبه الخاص بعد ذلك ، كما وجد هيبر Haber and Haber وريدشاردسون Richardoson، وليسك Leask . ويجد كثير من الاطفال بعد ذلك سهولة

في ترجمة هذه الصور المستمرة ، كما وجد ماركس Marks ، بحيث يستخدمون رموزا واحدة فقط فى الحواس (السمع فقط أو الابصار فقط) لخزن الصورة وما يتصل بها من معلومات synesthesis .

ثم لبعض الاطفال بين الخامسة والسابعة قدرة من نوع آخر تتصل بالتخيل أيضا ولكنها تتفوق عليه بالقدرة على الخلق أى الابتكار : creativity. و هنا يخرج التخيل عن كونه رصدا أمينا لثوابت محسوسة أصلا . فينطلق الطفل ، بمساعدة مواهبه وحساسياته الفنية النامية ليخلط بين الواقع والمتخيل ثم يخرج من عملية الخلط هذه اما باعادة الأصل recreating عن طريق رسمه أو ادائه (الرقص أو الغناء) أو التجديد أو الاضافة اليه (انتشار الخيال) أو توليد مادة غير الصورة والوقائع الاصلية (الخلق) . ويرى فلافيل وزملاؤه Flavell et al . ثم ميستشل Mischell أن هذه الاساليب فى اعادة التعبير ليست الا طريقة الطفل في تكوين ذاته الشخصية identity formation.

التطورالمعرفي:

عندما وجد بياجيه أن تفكير الطفل يصبح منطقيا بمجرد انتظام كل أنظمة عملياته العقلية ، فانه اشار الي أن الطفل هنا يكون قد وصل الى مرحلة الكفاءة التامة فى فهم وخزن اللغة ، وفى تبويب المعلومات ، وفي الربط بين مواد المعرفة . ومع أن مرحلة الطفولة المتقدمة ، التي تتم فيها هذه الانجازات ، تتصف بالاستتاب الانفعالى إلي حد كبير ، الا أن الطفل يواجه اثناءها شيئا آخرا قد يؤثر نوعا ما على بعض هذه الانجازات ، وهونموه الجسمى وازدياد قابليته للنشاط الحركى . ويمكن لهذا التطور أن يأخذ شكل الاسراع والهرجلة ، ولكنه لحسن الحظ يتسبب فى معظم الاحيان في تكثيف الجهد والدافعية للاستكشاف والاستزادة .

ولا ننسي أهم إضافة الي حياة الطفل النامي وهى المدرسة وأقرانها بها وخارجها . لان الطفل لم يعد حصيلة تربية عائلته المباشرة التى تولته بمفردها تقريبا طوال أول خمس سنوات من عمره . ومرحلة الطفولة المتقدمة لاتكف اثناءها عمليات لتبدأ أخريات . ولكن الحقيقة ، كما وضح مما سبق عند الكلام عن الطفولة المبكرة ، أن بعض العمليات قد يبدأ فى الثالثة ليصل الى أوجه في السابعة (القدرة اللغوية ثم العددية) ؛ أو يظل كامنا لمدة طويلة عند بعض الاطفال ليظهر متأخرا عن متوسطهم(التخيل) ؛ أو يظهر متأخرا جدا ويبطل أو يعرقل أصولا تربوية أو بيئية (العدوان) . وقد يختلف الوضع أحيانا فى الترتيب أو فى الاثر .

تصبح اللغة ، فى الطفولة المتقدمة ، أهم وسائل الاتصال للطفل النامي فى حياته العملية والاكاديمية . فيهم المدرسة أن يصل الطفل بها الى قدرة عالية من فهم اللغة وتركيبها ، لانه يعتمد عليها فى مواد المعرفة التي يحاول المدرسون توصيلها الى مداركه ، علاوة على أنها الاسلوب الاول الى تعريفه بواسائله العملية في الحياة وفى المدرسة قبل أن ينتقل عن طريقها الى الممارسة والتطبيق . وأخيرا فإن اللغة تصبح أيضا وسيلته في التعبير عما استطاع أن يحصله أثناء امتحاناته التي لن تتوقف الى زمن طويل .

ثم يعتمد الطفل في طفولته المتقدمة على التذكر أكثر كثيرا من ذى قبل. لانه قبل هذا كان يرى أو يسمع اشياء يحاول تذكر ما جاء بها قدر استطاعته بطريقة عشوائية غير منتظمة . ولكنه عند الثامنة مثلا أو بعدها يستعرض ما سمعه أو رآه سريعا لكي يستخلص خصائصا مشتركة تساعده في ربط الكل اثناء الخزن . ويعد ابحاث عديدة قام بها بلمونت و باترفيلد Belmont and Butterfiled، سيرماك Cermak ثم تولفنج ودونالدسون Tulving & Donaldson لم يستطع أى منهم الجزم بأن

الذاكـرة في الطفـولة المتـقـدمـة تتـفـوق في النوع بدلا من الكمـيـة . ولكن بيـركلي وريد Burkley and Reid اثبـتـا أن الطفل من الثـامنة تقـريبـا يستطيع التمييـز بين أكثر من مـادة وتذكرها فى نفس الوقت . وكان ذلك بمقاطعة الاطفال اثناء استذكارهم بعرض جمل مفيدة لا تمت بصلة الي مـادة المذاكـرة . وعند مطالبة الاطفـال بالاسـتـرجـاع سـاعـات بعـد ذلك ، وضح أن الطفل في السـابعـة من العـمـر يتـعـثـر في تذكـر مـفـهـوم الجـملة ولكنه قد يذكر اسما أو شيئا ورد فيها ، بينما الطفل فى العاشرة (تحت نفس ظروف الاختبار) ينجح فى استعادة محتواها إما بالـضبط أو بقليل من التبديل الذى لا يغير مفهوم الجملة .

ويعتبر التبويب أو التنظيم من أوضـح العمليات التي يسـتـخـدمـهـا الطفل في الطفـولة المتـقـدمـة . فـهـو يـجـمـع المعلومـات المتـشـابـهـة (كل مـا يـتـصـل بالسيارات أو الحيوانات) ، أو يجمع المعلومات الخاصة بشيء واحد أو خاصية واحدة متصلة بأشياء كثيرة (عدد الاهداف التي اصابها اللاعب الفـلاني عـام ١٩٨٦ - أو عـدد الجـزاءات التي وقـعـت على الاهلي ثم الزمـالك من عـام ١٩٧٠ وحـتـي ١٩٨٠) . وهو يـجـمـع الطوابـع ويـبـويـهـا حسب الأقطار ، وهي تضع مـلابس عرائسـها حسب أحجامـهـا أو أواني لعبها طبقا لنوعـها أو طريقة استعمالها وهكذا . ويلعب هذا التنظيم دورا هامـا فى المرحلة الدراسـيـة . لان الطفل في حـاجـة شـديدة الي ترتيب معلوماته . والى الآن وكل اختبارات الذكاء تحتوي عددا كبيرا من الاسئلة التي تطالب المفـحوص بترتيب الاشـياء أو الرموز اللفظية أو غير اللفظية من حيث التـقـارب أو التبـاعـد ؛ وهذا هو تمـامـا مـا يـسـمـي التـبـويب أو classification. وتسـاعـد المدرسه هذه المقـدرة كـثـيراً . لأن مـا يكل كـول Michael Cole وجد أن اختلافات الثقافات والتمتع أو الحرمان من التعلم يؤثران كثيرا فى تنمية القدرة على تنظيم المعارف . فعند دراسة أطفال قبائل الكيبيل بليبيريا ، وجد أن هؤلاء الاطفال فى تلك التـجـمـعـات المغلقة، التي كـانت تعيش علي الزراعـة البسيطة لتورث لكل أجيالها تلك المعرفة

فقط ، لم يستطيعوا النجاح في التفرقة بين الاشياء التي تخص بينتهم من حيث الحجم أو الاهمية أو التنافر . وكانت المقارنه بين الاطفال الليبيرين المنتظمين وغير المنتظمين بالمدارس هناك . هذا مع أن قدراتهم العقلية لم تكن أقل من المتوسط باستعمال اختبارات ذكاء غير لفظى متعددة المصادر . وظهر بذلك أن تأمين الطفل مبكرا على تنمية هذه القدرة أجدى من تعريضه لها متأخرا (كما كانت الحال عند انتظام الليبيرين في مدارسهم متأخرين أحيانا عن السابعة من العمر) .

تطور فردية الطفل :

نحن نعرف الاشخاص بصفة أو صفات معينة لانهم ينفردون بها دون الآخرين . فهذا متسرع أو ذلك قوى الملاحظة أو الثالث استعراضى منافق وهكذا . وللاطفال ايضا اساليب خاصة للسلوك تبدأ فى الظهور مبكرة(أى قبل الرشد بكثير) . فالفروق الفردية مظهر واضح حتي منذ اليوم الاول بعد الولادة . لان بعض الاطفال يظل هادئا مسالما منذ وقت صحوه ، بينما الاخر كثير الصخب والحركة . ولا شك أن كثيراً من التعليم يزيل شيئا من هذه الصفات . ولكن ما نرمى اليه هو أن الفروق الفردية لا تغيب على الكائنات الحية منذ بداية حياتها .

يؤثر مفهوم الحياة أو الموت علي طريقة الطفل في اختيار سلوكه . لاننا رأينا كيف يتمسك بحياته وما يهمها فى البداية . ثم كيف يتدرج فى الخوف علي اشياء والمقربين منه ، لانهم قد يختفون من الحياة . وهو في طفولته المبكرة يحسها بالغريزة . ولكنه بوصوله الي الطفولة المتقدمة والمراهقة يستطيع ويريد أن يناقشها ، ويخوض في موضوعاتها بشغف واهتمام . لأنه يطالب الآن بمعلومات تفيده بأين نذهب بعد الموت ، ولماذا نموت ، وما هي الديانة ، ومن هو الله ، وهكذا .. وليس مفهوم الحياة هو الميلاد فقط (في الطفولة المتقدمة) لأن الطفل الان يعرف أنها تعني أيضا ظواهرا واضحة وعمليات غير واضحة تقوم عليها هذه الحياة . لذلك

تهمه دراسة الفيزيقا والجغرافيا والتاريخ والاحياء . بل وينغمس أيضا فى السياسة بمذاهبها وأحداثها وتواريخها ، واساليب المجتمعات الاخري وآثارها . وأخيرا يولع الطفل هنا أيضا إما بالخلق العلمى أو الفنى أو القراءة أو الكتابة . ويكون لكل طفل في هذه المرحلة طريقة واضحة في السلوك وفى انتقاء اسلوب اللغة والتعبير والترفيه وقضاء وقته (لا قتله) . ولا نعني أنه الاوحد في اختراع اساليبه أو أنه المسئول الوحيد عنها ،لانه محكوم أيضا بنماذج تحيط به models . ويكون نموذجه واحد من أهله ، أو من أقرانه ، أو من مدرسيه ، أو من الشخصيات الاسطورية ؛ كل حسب قوة جذبه للطفل .

وفي معظم المجتمعات ، والتعداد الاكبر في الدول النامية ، تظهر فروق كبيرة بين identity فردية الاناث والذكور . لا لأن الفروق النفسية فطرية ، ولكن لان المجتمعات تكسبها لكل جنس بحيث تلاحقه طوال حياته . ولذلك توالت حركات عديدة في شمال أوربا وأمريكا الشمالية طوال هذا القرن ، محاولة الحد من فرض أدوار الانثى وأدوار الذكر على معاملاتها الاجتماعية (بما فيها السياسة وتقسيم العمل والتباري الرياضى) . وكانت النتيجة أن تأرجحت صفات الجنس النفسية بين التقليدية القديمة وبين عابرة الحدود الحديثة . وحتي فى مجتمعنا المصرى المعاصر ، نجد فتاة الريف وأعالى الصعيد ، بعد طول تمييزها واعدادها لادارة المنزل وتربية الصغار فقط (لوازم الانوثة) ، تخرج للدراسة والتحصيل ، ثم العمل بأماكن غير موطنها الاصلى . وأخيرا نجدها تنافس الذكور فى اعمالهم ومناصبهم أيضا ، بل وتغير ملبسها ومظهرها عن ذي قبل . والعكس ايضا صحيح بالنسبة للذكر المعاصر ؛ ولكن خصائصه التي صبغ بها منذ قديم التاريخ بمصر لم تتأثر بنفس الوضوح والقوة التي نالت الطابع الانوثى المعاصر . لأن ما تغير فيه نفسيا هو بعض التنازلات التي لم يفكر فيها أجداده . ومنها رضاه بأن تظهر بناته فى المجتمعات الدراسية والعملية ، وأن تقاسمه زوجته في

أعباء حياتهما الاقتصادية بالعمل خارج المنزل ، أو أن تقوم بكل الاعباء التربوية والعائلية بينما هو خارج قطره معظم شهور السنة . وليستهوهذه ظاهرة حضر مصر فقط ولكنها تتساوي فى ريفه أيضا .

من هنا يتضح ، أنه علاوة على ما للطفل النامي من قدرة على اختيار صفاته الفردية identity، وبعضها محكوم بما ورثه من صفات أصيلة لشخصيته ، فان لمجتمعه المباشر (عائلته) ومجتمعه الاكبر (دولته) تأثير كبير على نوع هذه الفردية . والعوامل المؤثرة كثيرة ، منها مدى انغلاق أى من المجتمعين ، ومدى مرونته وتحركه أو تقبله للثقافات الاخرى . ولا يستطيع أحد أن يجزم أيهما أحسن فى نهاية المطاف : التمسك بفردية تقليدية واضحة أم التكيف للزمن والتغير وللآخرين . وليس القرار سهلا . لان ما يوصف بمجتمع مغلق ، قد يملى على طفله الامانة المطلقة واحترام الكبار والعرف والكلمة ، مهما كلفه ذلك ، حتي وإن كان حياته . ويشب الطفل نحو المراهقة وهذه قوانينه التى لا يحيد عنها . بينما نجد طفلا آخرا فى مجتمع صفاته التحضر والتطلع التكنولوجي المتفوق ، يطبع عليه مجتمعه صفاتا غير السابقة . لانه سيتعلم نفاق وسائل الاعلام ، وكذب الدول ، وتعدى الآخرين ، واختفاء معالم الخلق المثالى أو تغيير وجه الحقائق لحماية النفس أو الجماعة أو الدولة . وهنا يختلف مفهوم الفردية عند الطفل النامى ، لأن ما يحيط به يضطره الى اختلاق الاعذار ، أو التنافس والتطاول للوصول الى أهدافه على حساب الآخرين أحيانا . وليس هذا قذف في حق التمدين ، ولكنه اعتذار للقيم التقليدية التي لابد وأن تنجرف أمام تيار الانانية الفردية والانانية الدولية ، والتي تبعد الطفل النامي عن التمسك بما تحاول عائلته أن يصبو اليه عند تكوين هويته .

دافعية الانجاز:

لا تتفق كل العائلات فى تربية حب الوصول الي النجاح أو تحقيق

الاحسن . لذلك يصعب تعميم مفهوم الانجاز achievememt هنا . ولكننا اذا قلنا أن دافعية الانجاز هي قلق الفرد المتصل بتحقيق شيء أو الوصول الى هدف حتى يتم هذا التحقيق أو هذا الوصول في أكمل صورة وعلى أحسن حال ، فاننا نكون بذلك قد وصفنا حال الفرد المتطلع الي الانجاز .

والطفولة المتقدمة أكثر المراحل الزمنية في عمر الانسان توضيحا للميل للانجاز ولتنمية دوافعه . وليست العوامل المؤدية اليها واحدة ثابتة أو سهلة التعريف . فقد وجد هنرى مورى Henry Murray مبكرا جدا (١٩٣٨) أن لدافعية الإنجاز مولدات كثيرة منها المثل والقيم والحاجات والدوافع ؛ ثم ميول الانتماء والنظام والسيادة والعدوان . وحيث أن هذه العوامل تختلف فى قوة ومدى اقتناء الطفل لها ، فان كليفورد وكليرى Clifford and Cleary وايزين وآخرون Isen et al وجدوا أن الأطفال يصلون الى مرتبة المنجز المتفوق أو المتخلف أو المتوسط لأن واحدة أو أكثر من المولدات المذكورة اعلاه ساعدت قدراته الفطرية على توصيله الى المرتبة التي يقف عندها . وتكفينا الاشارة الى أن عدداً من العباقرة الخلاقين وصم بانعدام القابلية للانجاز في طفولته المتقدمة (أينشتاين ونيوتون) ، بل وطرد من مدرسته لتعرقله الدراسى .

والانجاز لا يكون اكاديميا فقط ، لانه قد يكون عمليا أو خلاقا أو قياديا . والمنجز يحس بدفع خاص يقوده الي التحصيل أولا (جمع كل ما يمكنه من معلومات توصله الى قمة فهمه لما هو بصدده) ، ثم الى اكتشاف كل الطرق الى هدفه (البحث والمحاولة والمقارنة والتجربة) ثم الى التمسك بكل قواه والاعتماد علي كل موارده الى نهاية الطريق بدون توقف ، بحيث يصل الى ما اراد وهو واثق أنه لم يتوان أو يوفر طاقته .

الانجاز الاكاديمي هدف تساعده المدرسة وتعضده العائلة في بدء المرحلة . ولكن مساعدة الآخرين يتوقف مفعولها أو يضعف عند المراهقة.

أى أن الطفل فى الحقيقة ، يبدأ في طفولته المتقدمة ، الاعتماد على نفسه رويدا فى الفهم والتذكر . فهو إن استمر في الاعتماد على الآخرين ، فان قدرته الحقيقية علي التحصيل تكون دون المتوسط ، ولا طائل من مساندتها بمجهودات الكبار . والا فان الطفل يستمر حتى الرشد مستجديا معونة الآخرين للوصول الى أهداف هو دون القدرة على نوالها، لانه لم يتعلم التعرف على إمكانياته . وتكون النتيجة مضيعة لوقته ووقت أهله ووقت مجتمعه ثم الاسراف والخسارة المادية لثلاثتهم أيضا ، علاوة على احباطه والمحيطين به .

ومن هنا نجد الحاجة الى تشجيع المنجز العملى . لأن القراءة والكتابة ليست نهاية كل الطرق . فالمنجز المتفوق فى مجال الزراعة أو الحدادة أو ميكانيكا السيارات فى مثل مرتبة المنتج المتفوق فى مجال الذرة . لان كلاهما يتمتع بنفس قدر الدافعية على الانتاج وعلى الابداع وعلى عدم تقبل ما هو ادني من الممتاز . فالطفل ذو الاستعداد الموسيقى أو الحسابى أو التصويرى ، مع ما لديه من ذكاء مرتفع واستعداد لانجاز غير عادى يضار نفسيا وعمليا إن وضع رغما عنه في طريق الطب مثلا ، لانه لن يلمع هناك . وكل ما يفعله مجتمعه فى هذه الحالة يكون احاطة توجيهه بهالة من توهم النجاح تتركه غير راض عن نفسه وعن مجتمعه بقية عمره .

لا يتساوي كل الاطفال في قدراتهم العقلية ، ولا يتساووا فى دافعيتهم وبالتالى لن يتساووا أبدا في قدرتهم على الانجاز والكفاءة في الانتاج أيا كان نوعه . وهنا تظهر أهمية المربى ويقظته ، لا فى دفع كل طفل الى مستوي الآخرين ، لأن هذا مستحيل ، ولكن فى تقدير قابلية كل طفل على حدة للتحصيل والانتاج . ويكون بهذا قد أدى الى كل طفل صنيع عمره ، لانه سيحمله ما طاقة له به ويريحه نفسيا وعمليا .

الروابط الاجتماعية:

رأينا كيف يرتبط حديث الولادة نفسيا بأقرب الناس اليه ، وكيف يقلق على هذه الرابطة ، ثم كيف يدافع عنها .وفهمنا أنه بالنمو يستقل جسميا كثيرا ونفسيا قليلا حتي الخامسة من عمره . ثم يتفاعل وجدانيا مع كثيرين جدد بعد انخراطه بالدراسة ، منهم آقران من نفس العمر ومستوى التفكير ؛ وآخرون أكبر قليلا يشكلون تهديداً لمصالحه الشخصية وأمنه النفسى لتعملق معارفهم وقدراتهم العقلية والجسمية بالنسبة لحجمه الصغير في نظره ؛ ونوع ثالث أكبر كثيرا في السن يحس بالطمأنينة إزاءه لأنه يزوده بالمعارف الاكيدة الثابتة ولا يناوشه أو يعاديه (فى معظم الاحيان) فيوليه الطفل كل احترامه واعجابه ويجعله مثله الاعلى .

أى أن الطفل بين الخامسة والسابعة من عمره يدخل عالم الآخرين ليتفاعل رغما عنه مع كل نوعيات هذا العالم . فعليه أن يفهم ما يقولون وما يريدون ، وعليه أن يوصل مداركهم أيضا لما يريده هو . ثم هو الآن مجبر على اطاعة أوامر افراد غير عائلته . وعليه أيضا إحاطة نفسه باطار خاص من السلوك والرغبات يعرف به فى ذلك العالم ليقوم بدوره الخاص في هذه العائلة الجديدة الضخمة . وتتكون كل هذه الخصائص أثناء هذه المرحلة الاجتماعية المبكرة بغير تخطيط أو دراسة من جانب الطفل ؛ولكنها تتحقق شيئا فشيئا بدون أي مساس بوعى الطفل الذى يستمر صافيا غير متصنع لعدد من السنوات بعد هذا (حتي الثامنة أو التاسعة علي الاكثر) .

وبين الثامنة والتاسعة يصل الطفل النامي الي أوج التفتح على قدرات جديدة توصله الى كل جوانب العالم المتضخم حوله . فتتأجج قوة ملاحظته وسرعة استيعابه للمتغيرات المعروضة عليه وحدة استرجاعه لها. وللمرة الاولي يختلف كل طفل عن الآخر فيما يهمه من مواضيع وما

يريد الاستزادة فيه من معلومات ، أو ما يعد نفسه لخوضه في المستقبل من مهن أو تخصصات (قد يغير رأيه بشأنها فيما بعد) .

وحيث أن فهمه للمعارف يقوده الآن الى التشبع بها في كل الاوقات وبشتى الطرق ، فإن أفق خياله يبدأ فى الضيق نوعا ما ، لأنه سيطالب عالمه بكل صرامة أن يطبق ما جاء بكتبه بغير مرونة ولا تنازل . فالظواهر السطحية الآن هي كل ما يهمه . وما يراه أو يسمعه أو يلاحظه هو ناتج معروضات وأفعال مجتمعة (جيدة كانت أو سيئة) . فوجد كوتشر Koocher ومونتماير Montemayor وآيسن Eisen مثلا أن الاطفال في هذه السن قليلو الصبر في التداول مع الاشياء المجردة أو الجمالية أو الغير واضحة . وهم لذلك كثيروا الخوض في موضوعات الساعة ، عن انفسهم وانفعالتهم وانتصاراتهم البدنية والعقلية والعملية . ولا مانع من مقارنة أنفسهم بالغير لان يقظتهم البالغة الآن تربطهم باستمرار بالوقائع المتصلة بهم عن قريب أو بعيد . فيصبح المجتمع (المباشر والبعيد) جزء لا يتجزأ من تفكيرهم الموضوعى والذاتي ، الثاقب الناقد . وتظهر هنا بوادر الثورة النفسية على التسلط وعلى فرض الطاعة ؛ وفي نفس الوقت تتولد وتشتد أيضا ميول جديدة نحو الارتباط النفسى باقران من نفس الجنس . وتتجه هذه الزمالة الي الاتحاد فى الاتجاهات والتفكير واللعب والتحدى .

وعند اليفاعة تستمر هذه الروابط النفسية ولكن بشكل أخف . لأن الطفل النامي ، وهو يترك وراءه طفولته ، يتمسك بكثير من العلاقات التي اسهمت في اثراء حياته المبكرة من باب الاخلاص لها ، حتى وان زالت منفعتها أو كفت عن اثارته . هذا لان اليافع في هذه المرحلة يمر بتغيرات جسمية شديدة الوطأة على نموه السريع وانتقاله الى مرحلة النضج الجسمي ، تتسبب فى محاولته سرا لعدم التخلي عن أشياء تعود عليها في طفولته وارتاحت لها نفسه ، وفى محاولته علنا للادلاء الى العالم بأنه صار جزءا من عالم الكبار بكل حقوقه وواجباته .

* الطفل والمجتمع *

فى أواخر القرن الثامن عشر ، اثناء ظهور البوادر العلمية الاولى لفهم التطور العقلى والانفعالى للانسان ، عثر بعض القناصة علي طفل فى الثانيه عشر من العمر ، يجوب غابات أفيرون Aveyron ، خارج مدينة باريس بفرنسا . وكان الطفل لا يتحرك الا على يديه وقدميه ويطلق اصواتا غير مفهومه تصدر عادة من حيوانات المنطقة . وكان يهاجم باسنانه و أظافره كل من يقترب منه . وعندما عرض على فيليب بينيل Philippe Pinel (١٧٤٥ - ١٨٢٦) وهو من مشاهير الاطباء النفسيين الفرنسيين ، شخص الطفل على أنه حالة تخلف عقلى عميق غير قابل للتحسين . ولكن تلميذه ايتار J.M.C Itard رأى أن شدة التخلف العقلى عند الطفل نتجت عن انعزاله عن المجتمع الحضاري ، وحرمانه بالتالى من تكوين استجابات اجتماعية يتعلمها الاطفال الآخرون لتعرضهم المستمر للمثيرات التي تولدها . ومع أن ايتار نشر ورقتين فى سنة ١٨٠١ وسنة ١٨٠٧ تعبران عن خيبة أمله الشديد لاخفاقه في تعليم الطفل الاعتمادالكامل على نفسه ، الا أن الاكاديمية الفرنسية للعلوم أجمعت على أن الطفل أظهر تقدما ملحوظا عن الحالة التي وجد عليها . فقد تعلم المشى منتصبا ، وأصبح ينطق كلمات بسيطة ، ويتعامل مع الافراد المحيطين به بأسلوب أكثر تحضرا ، هذا كله مع أنه كان متخلفا عقليا .

كيف يصل الطفل الى ما يكون عليه غدا من معارف كالقدرة على القراءة والكتابة والتعامل بالارقام ، أو التهيؤ لفهم الآخرين والتعامل معهم بما يناسب الموقف ، أو التوتر لعمل الاشياء أو توليد الافكار أو

مواجهة المشكلات ؟ يساعده في الوصول الى هذا كله قدرته على المادة وأسلوبه عند اختيار المنهج ، علاوة على اسلوب محيطه في تقديم المادة التي ستوصله الى أهدافه . وتنتهي هذه العمليات المتصلة بتكوينه النفسي والعقلي الي تكامل وظيفي بينه وبين بيئته يسمي ثقافته .

الثقافة :

الثقافه هي مجموع الموروثات الاجتماعية التي تمثل انجازات جماعة ما. وعليه فان كل ما تتوصل اليه مجموعة من الافراد ، من افكار وعادات وقيم أو مناهج وأنشطة عملية أو انتاج فكري أو يدوي أو أساليب لنقل هذه المعلومات والخبرات من جيل ، كل هذه في مجموعها تمثل ما نسميه الثقافة ، أى طريقة حياتها . وهذا يعني أن التنظيم الاجتماعي لاى مجموعة من السكان لا يمكن أن يدرس ويفهم الا عن طريق ثقافتها . فالجزء الفيزيقي من البيئة الذى يصنعه الانسان حوله (مأواه - أوانيه - كساؤه - أدواته العملية أو اساليبه التكنولوجية) ، ثم الجزء الميتافيزقي (فوق المادى) الذى يخلقه لنفسه في نفسه (الرموز - المثل - قواعد المعاملة - الخيال والاساطير - التنظيمات العلمية أو الترفيهية أو الضابطة) يشكلان مخلفات جماعة سابقة تعالجها الحاضرة لكي تعيد صياغتها للمستقبلة أو تناولها لها كما تناولتها .

أين يقف الطفل من كل هذا ؟ إجابة الإستفهام هنا ترتكز على قاعدة عريضة أساسها أن الطفل يولد مفلس المعلومات الخاصة ببيئته الخارجية ، خصب الاستعداد للاستقبال وخزن المعلومات الخاصة بكل خبرة يتعرض لها ويتكيف لها . أى أنه منظمة حيوية خام . لها صفاتها الخاصة فعلا ، ولكنها شديدة التفعال مع كل ما تحتك به . هو اذن إجتماعي من صنع بيئته ولكنه تكويني من خلال وراثته . فتكوين الطفل phenotype يتبع خصائصا وراثية genotype تخزنها مورثاته genes

وتنقلها من جيل لآخر مستمرة الى ما لا نهاية أحيانا . وقد يتبادر الى الاذهان أن الثوابت الوراثية لا شأن لها بثقافة الطفل ، ولكنها فى الحقيقة تعلب دورا هاما فى تثقيفه . فمما يرثه قد يكون تخلفا عقليا أو إعاقة حسية أو اضطرابا غدديا . ونجده بذلك معرقلا من أول مرحلة التثقيف . ولا يعني هذا إحباط فى كل الحالات ، لاننا عرفنا من طه حسين وهيلين كلير وبيتهوفن وميلتون أمثلة لاعاقة حسية نجحت فى دفع اصحابها الى الابداع . ولم يكتف العلم بالبحث فى تأثير هذه المحددات البيولوجية فقط، لانه اتجه الى دراسة طوبولوجية التذكر مثلا . وتتبع عمل الحمض النووى ribonucleic acid وتصنيعه للبروتينات المسئولة عن عملية التعلم والتذكر. بل واتجه الى أعمق من هذا في نظرية الانجرام (أي قصاص الذاكرة memory trace) . لان التجارب المعملية على ديدان planaria لفتت النظر الى أن استجابتها الشرطية للضوء بعد ازدواجه مع صدمات كهربائية لم تتوقف عند أول جيل لهذه الديدان . فلم ينطفئ تعلمها الشرطى فى جيل آخر من أنصاف هذه الديدان ، بعد أن فصلت رؤسها عن أذنابها ، وتركت الى أن استكمل كل جزء ما فصل عنه ، ليصبح دودتين كاملتين ، أى جيل آخر ، أو امتداد محورى للجيل الاصلى . هل تدعم هذه النتائج نظريات كارل يونج Carl Jung حول اللاشعور الجماعى أو النفس الموضوعية objective psyche ؟ وهل يكون للمخلفات النفسية المتراكمة نتيجة لخبرات الاجيال السابقة أثر على أجيالها التالية فعلا ؟ وكيف تكونت مفاهيم الطوطم والتابو والمندالا ؟ ومع أن هذا اللاشعور الجماعى ليس الا جزءا صغيرا من ثقافة الطفل ، إلا أنه قد يلعب دورا ذا وزن فى نوع المخاوف أو أساليب الادراك التى ستلاحقه .

وسائل الاتصال :

يدرك الطفل الاشياء والتغيرات الحادثة حوله لان له حواسا تعده لذلك، ودوافعا تنشط ادراكه ، وقسطا مما نسميه الذكاء يتعامل به ليصل الى المعرفة ويخزنها . وهذه هي الخصائص الذاتية التي سيساهم بها من

ناحيته فى عملية تثقيفه . لأن لتثقيفه قطب آخر مقابل هو خصائص مادة ثقافته . وهى صفات لا حصر لها تناقش فيما بعد . وبين القطبين المتفاعلين عامل آخر يحكمهما ، وهو مسطرة معيارها السرعة وتعرف بالزمن . لأن الطفل ولو أنه تكوين حيوى مستعد للبقاء منذ ولادته ، الا أنه شديد الاعتماد علي بيئته وعلى هذه المسطرة الزمنية منذ البداية . فقد يظل خاوي المعلومات الحضارية مثلا بينما هو يتقدم في النمو مع الزمن. ويقترب بذلك مع النضج الفيزيقى ولكنه يبتعد عن الخزن المعرفى لافتقاره الى المثيرات . وهذا هو ما حدث لصبى أفيرون . معارف الطفل اذن رهن بمتغيرات تحيط به وتتولد حوله ، وبعوامل بيولوجية تحرك استجابته للاثارة ثم نموه ونضجه ثم عجزه . وحيث أن الزمن ثابت التقدم ولكن النمو يختلف فى السرعة من فرد لآخر ، فان المقياس الزمنى هو المرجع الوحيد لتحديد كفاءة الطفل فى الاستقبال والاستيعاب من ناحية ، ثم نوع وكمية التنمية المعرفية الممكن تشبيع الطفل بها من ناحية أخري . فكم من طفل نابغة وصـــف بالجنون (توماس أدســـون) أو بالفشل (داروين ثم أينشتاين) لا ن عمره العقلى كان أكثر تقدما عن عمره الزمنى ، فاضطر الي التقدم بتفكيره وانتاجه حتي وإن تمهل الاخرون ، أو فقد الدافعية حتى الى مشاركة العاديين الآخرين فى مستوى تفكيرهم لاحساسه بالاحباط . ولا يتوقف المقياس الزمني عند رصد العبقرية أو التخلف فقط ، ولكن هدف الثقافة ازاءه هو التغذية الموقوتة للنفس النامية، بحيث تنتهى تغذيتها هذه الى ثراء نفسى اقتصادى يفيدها ويفيد المجتمع الذي تتعامل معه . فلن يتعلم الطفل الجبر قبل معرفة الاعداد ، ولن يدرك مفهوم الامانة قبل تطور عملياته السيمانتيكية وهى ربط المعانى بالألفاظ التى تخصها .

الميراث الثقافى:

الثقافة التى يعرضها المجتمع على الطفل يأخذها الناشئ على

علاتها. لذلك تكون مهمة العطاء حرجة . فالمجتمع ، سواء كان عائلة الطفل أو مجتمعه الكبير ، له هو الاخر صفاته . وحيث أنه أقدم وأكثر خصوية وأقوى فاعلية من الناشئ الفج ، فانه يفرض عليه أساليبه الفكرية و العملية بلا منازع . فبصمات العائلة الامينة أو المفككة أو اللاأخلاقية تظهر واضحة على جيلها الثاني الناشئ . ولا تتغير آثارها ، إن تغيرت ، الا بعد أن ينتقل الطفل الى مرحلة الرشد ، أو تغير ثقافته بيئة أخرى موازية لبيئته المباشرة . لأننا نعجب أحيانا مثلا من صغير ينحرف مع أنه من عائلة مستقيمة . أو من آخر يتحلي بصفات مثالية مع أنه من أسرة لا مثل لها . ويكون السبب أن كلاهما قد حول إنتمائه الى جماعة بديلة تشكل الآن اليد العليا في تكوينه النفسي .

انتقال الثقافة من الآباء الى الأبناء ظاهرة غير معقدة قوامها تقمص الطفل لشخصية الكبار. وهي عملية واضحة ومنطقية في معظم الاحيان . ولكن العملية الأكثر تعقيدا هي انتقال الثقافة جماعيا من أجيال بأكملها الي الأجيال التى تليها ، مع وجود فروق فردية بين أبنائها تساعد على عدم ثبات الميراث أو على الاقل عدم ترابطه . هذا بالاضافة الى حتمية تغير التشكيل الاجتماعى واساليبه ومنجزاته . فللحضارة المصرية القديمة مثلا خصائص ثقافية لم تتغير كثيرا عبر عشرين قرن تقريبا . منها فن المعمار والنحت والتصوير ثم عقائد الألوهية وعودة الروح ثم الهيرارقية الاجتماعية والسياسية . كما كانت للحضارة الرومانية من ناحية أخرى طباع ثقافية بدأت سبع قرون قبل الميلاد واستمرت خمسا بعده ولم يؤثر فيها كثيرا اختلاطها بالحضارات الاخرى بعد الفتوح الحربية ولا التغير الثقافى الذى فرضه ظهور المسيحية . وكان لهذا التطبع الصارم يد في تقوضها . ومن الطريف مثلا أن كثيرا من الطقوس والعادات التي يمارسها الكثيرون فى مصر اليوم يرجع أصلها الي الثقافة الفرعونية كاستمرار الحداد على الموتى أربعين يوم . ونجد أن اللون الاسود الذى يتبناه العالم في الحداد ليس الا ميراثا من المصريين

القدامى أيضا . ولا دخل للدين في العادة على الاطلاق لان كثيرا من المجتمعات الاسلامية لا تمارس هذه العادات بل وتستنكرها ، بالاضافة الى أنها عادة عالمية لا يحددها الدين أو المواقع الجغرافية .

قواعد السلوك:

أهم عناصر الثقافة التي يقابلها الطفل ، سابقة التجهيز فى مجتمعه ، هى اسلوب السلوك المنتظر منه ونوع التفكير الديني الذى سيتبناه . فاذا ولد في الشرق الاقصى أو الاوسط أو فى الغرب ، فان الدين الذى ولد فيه وتعلم أن يميل اليه هو الذي سيتمسك به في معظم الاحيان . لان حالات الا نتقال من دين لآخر طواعية (بعد نزول كل الاديان واستتبابها على الارض) تعد ضئيلة جدا اذا ما قورنت بالحالات التى استمرت بدون تغيير حتى وان تعرضت لمغريات الانتقال أو لعوامل الفرض الاجتماعى . ومع أن دين الطفل هو ميراث جماعته الدينية ، الا أن الطرف المباشر فى التوريث يكون عائلته . لذلك نجد أن عملية التطبيع الدينى رهن بفهم وتطبيق اسرة الطفل قبل كل شئ ، حتى وان تعرضت العملية للتطور فيما بعد لانه استزاد أو لأنه أخفق فى التذكر . ومع أن القسط الاكبر من أعباء العملية يقع على عاتق المربى الدينى في حياة الطفل ، الا أن جذور التربية تنتهى الى جماعة الدين الكبرى . لذلك يعتبر هذا المدخل الثقافى إجتماعيا أكثر منه فرديا . ويهمنا من الناحية التربوية أثر هذا النوع من الثقافة علي سلوك الطفل في طفولته ثم بعد نضجه . لان الطفل لن يقابل في حياته بعد هذا شيئا بمثل قوته ، مع غموضه وغرابة جذبه ورهبته . فهو حتى وإن عوقب لأنه كسر قانونا اجتماعيا أو جوزى لأنه قام بعمل استفاد منه مجتمعه ، الا أن خبرته الميتافيزيقية المتصلة بالثواب والعقاب الدينى (المؤجل ، غير المحسوس) هى التي ستؤسس قواعد الضمير والاخلاق لديه .

ولن يكون الميراث الدينى القاعدة الاجتماعية الوحيدة بالنسبة للطفل .

لأنه سيولد أيضا فى مجتمع له عادات خاصة يقبلها وأخرى يحرمها . فقد يكون مجتمعه من التطرف بحيث يحرم عليه أكل الابقار مثلا ، أو يفرض عليه أكل اللحوم البشرية ، أو يحرم عليه ارتداء أنواع خاصة من الكساء والطلاء ، أو يبيح له التعرى . وقد يولد في مجتمع يمارس طقوس التكريس أو ختان الاناث أو تفضيل الذكور أو انهاء حياة الكهول فى الجمد . ويكون موقع حادثة ميلاده هو المقرر لما سيتعرض له فى حياته من خبرات . وتكون هذه الخبرات نتاج الفكر والتطبيق الاجتماعى لموقع ميلاده أو للجماعات المستقلة في الموقع الواحد . ولن تكون العادات متطرفة أو غير مقبولة في معظم المجتمعات الاخرى . لأن من اساليب السلوك التى تفرضها معظم المجتمعات مثلا تنظيم كل من علاقات الزواج والملكية والحريات الفردية ثم المعاملات الاقتصادية والضابطة وأخيرا اساليب التعليم والانتاج . هذا علاوة على صفات السلوك الاخري كاحترام السن أو الوقت أو المحافظة على العهد . وهي صفات تختلف نسبيا من مجتمع لآخر ، فيكون للاخلال بها عقوبات فى بعضها أو يمر غير ملحوظ فى أخرى .

وفى النهاية تتولد من هذين الاصلين الثقافيين سابقى التجهيز ، آفاق ثقافية يشق فيها الطفل طريقه الخاص . لانه سيطبق أو يخالف قواعد الأخلاق والانضباط والمشاركة الاجتماعية . وسيختار ماذا يأكل وكيف يأكله ، متى يأخذ وأين يتوقف ، الى ما يلجأ ليتعلم أو يستكشف . ولن تكون كل جهوده ذاتية . لأنه سيحاط فى كل مراحلها بأفراد أكثر خبرة عنه يرشدونه ويضبطونه . والمهم من الناحية الانسانية هنا هو الفروق الواسعة بين المتاح لبعض الاطفال والذى يحرم منه آخرون . لأن كثيراً من المجتمعات تعوزها التكنولوجيا الحديثة أو حتي المعلم الكفء . وتكون النتيجة الا يتعدى ما يتعرض له الطفل من ثقافة حدود ضروريات البقاء على الحياة . وقد لا تتوفر هذه ايضاً . فمن المؤلم مثلا أن يتوقف الانسان أولا في بلد يتمتع فيه الطفل بالدفء والشبع والصحة . ويدير قرصا

فيتصل بأى مكان فى كوكبه ، أو يضغط زرا كهربائيا فيرى ويسمع أو ينال ما أراد من خدمات آليا ، أو يستفهم فيجيب على أسئلته عقل الكترونى يوفر الطاقة البشرية . ثم ينتقل الانسان بعد ذلك الى بلد مقفر يئن فيه الطفل من المرض والجوع وعوامل الجو ، ولا يجد في بيته ما يوصله الى أى معرفة ذات قيمة ، فيظل جاهلا متخلفا مريضا لا يعرف الا متطلبات اليوم ، لأن أى عمل سيقوم به سينتمى الى عيش اليد الى الفم .

المادة الثقافية :

مادة الثقافة التى ستملأ حياة الطفل ، لتثير انتباهه فيعيرها تفكيره وتخيله وذاكرته ، مادة مركبة بعضها نشط العناصر والبعض الآخر ثابت المادة . فاذا اتجهنا مثلا الى ادواته التي سيستعملها لكى يصل الى أهدافه لوجدناها أسرع مواد ثقافته تطورا وتغيرا ، بينما تظل المادة المجردة بطيئة التغير قليلة التعديل . ولنأخذ علي سبيل المثال أدوات طهى طعامه من ناحية وأكله لمايميل اليه من ناحية أخرى ، أو مسكنه أو ولائه لعائلته ، أو معدات قتاله وحاجته الى الأمن . فسعيه الى الشبع ثابت ولكن الا نتقال من موقد الفحم القديم الى أفران الاشعة القصيرة microwave ovens لم يتوقف في مسيرته بعد . وكذلك مواد مبانيه من طوب نيء الى ألياف زجاجية fiber glass مازال يتطور بينما أحاسيسه نحو الافراد الذين يضمهم البناء لم تتغير . ولا تتفاوت عناصر الثقافة من حيث التغير والثبات فقط ، لانها تختلف أيضا من حيث الابتكار والاستكشاف . فبينما المبتكر يخلق شيئا جديدا لم يكن ، نجد المستكشف يعثر على شئ جديد كان .ولنأخذ على سبيل المثال وسائل مواصلات هذا الطفل من ناحية ، والطبيعة حوله من ناحية آخرى . فالطفل البدائى لا يعرف سوى كتف أمه أولا وقدميه ثانيا . وأضاف اليهما بعد زمن ظهر الجواد ، فسيارة فغواصة ، ثم طائرة فمركبة فضاء. ومع ذلك فالطبيعة

هي كما كانت عندئذ يابس وماء وفضاء بل وستظل هكذا . ولكن طفل اليوم فى معظم دول العالم تعرف على عطارد وعلى الثقوب السوداء black holes في فضائه ، وسمع عن اتلانتيس ومثلث برمودا فى مائه ، ودرس مواد الطاقة التي يخزنها يابسه من بترول الى يورانيوم الى غازات طبيعية جوفية . ولم تكن كل هذه الاشياء غائبة عندما كان الطفل الأول يمتطى جوادا فقط ، ولكنها وغيرها كثير، كانت وما يزال بعضها الآخر ، فى ظلمات المجهول ، تنتظر ثاليس وفيثاغورس ثم نيوتون وماكس بلانك وأينشتاين .

الفروق الفردية:

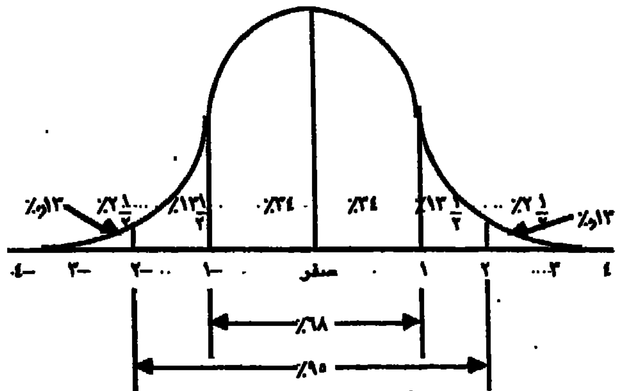
نخطىء الظن اذن لو اعتقدنا أن ثقافة كل الاطفال محكومة بما تعرضه عليهم بيئتهم فقط . لأن لبعض الاطفال خصائصا ذاتية لا يتمتع بها الا قليل منهم . كالطفل الذي أجاد اللعب على الهارب والكمان والأرغن ولم يتعد الخامسة من العمر . وألف الموسيقى بينما أطفال سالزبورج الآخرين يطاردون الفراش في حدائقهم . وعند انطفاء حياته في الثلاثين من عمره كان موزار قد ملأ آلاف الصفحات الموسيقية ليتمتع العالم بالعديد من السيمفونيات والكونتشيرتو وأعمال الاوبرا مثل دون جيوفاني، وزواج فيجارو ، والفلوت السحرى . الأمثلة الصارخة للموهوبين من الاطفال قليلة جدا ، لكن كل العباقرة الراشدين كانوا أطفالا . ومما يحير العالم مثلا أن البرت اينشتاين لم يتكلم قبل الثالثة ، وأنه تعثر فى لغته حتي التاسعة ، وأن أبويه خشيا أن يكون متخلفا عقليا. وترك أينشاتين مدرسة الجيمنازيام بلا رجعة ، ثائرا على طريقة التدريس الماريشالية بها . وأخيرا التحق بمعهد بوليتكنيك زيوريخ وهو فى السابعة عشر من العمر ، بعد أن فشل مرة فى اختبار الالتحاق . هذا الطفل ، ضعيف التحصيل ، أذهل علماء الفيزيقا وهو فى السادسة والعشرين بأربع أوراق علمية فى مجلد واحد ، فجرت نسبية الفراغ

والزمن ونظرية الكوانتام ونظرية الذرة . وكان حينئذ موظفا مغمورا فى مكتب بريد بمدينة برن سنه ١٩٠٥ .

ما هو العدد المنتظر من هذه النماذج العقلية في الطفولة المبكرة أو فيما بعد ؟ لأن أمثلة هذا النوع لن تتوقف . بل من المؤكد أن المسيرة ستضيف الى ميادين العلم آخرين يسلطون الضوء على مجهول أو يخلقون أو يبدعون . ومن الواضح أن الرهط يزداد كثافة وأن المسافة الزمنية بين العبقرى والآخر أصبحت أقصر . ما الذى يحدث للعقل البشرى ؟ الحقيقة الاولى هى أن عدد العباقرة بالنسبة للتوزع السكانى لن تتغير . فاذا اتبعنا قاعدة نسبة الاحتمالprobaility لوجدنا (كما هو مبين بالشكل) أن ١٣ر٠ ٪ فقط من البشر سيتفوقون فى الذكاء أو فى الانتاج العقلى أو العلمي أو الفنى . فاذا كان تعداد عالم القرن الرابع قبل الميلاد مقدر بمائتى مليون نسمة فان أغلب الظن أن من بين مواليده عاش ٢٦٠ ألف طفل مفرط الذكاء . ولم يقدر لهم جميعا الوضوح ، ولكنهم وجدوا . وعلى الأرجح ، فان من بين هؤلاء ، لم ينشط سوء قرابة ٣٣٨ عبقريا فى كل الميادين . واليوم نحن نقارب ٠٠٠ر٠٠٠ر٩٠٠ر٥ رأسا بشرية على سطح الارض . ومع أن التعداد السكاني يزداد إلا أن نسبة الاحتمال فى حدوث أى ظاهرة تظل ثابتة . وبتطبيقها على سكان اليوم سنجد خمسة ملايين طفل مفرط الذكاء . ولكن من بين هذه المجموعة المختارة أيضا سيحس العالم بواحد من الألف منها . لأن احتمال النشاط بينهم سيتوقف عند الانحراف المعيارى الموجب الرابع من التوزيع أيضا . اى سنسمع عن ٦٥٠٠ فرد تقريبا من أمثال ابن سينا أو اينشتاين أو مايكل أنجلو جديد فى هذا الجيل .

العوامل المساعدة:

ما الذى يلهب مثل هذه الشعل سواء فى الطفولة المبكرة أو عند الرشد؟ فاذا ورث الطفل الذكى حدة النشاط العقلى ، ولم ير أو يسمع منه



نسبة احتمال التوزيع فى عينه سكانية

أحد شيئا ذا قيمة ، فانه يختلف كثيرا عن آخر يقتنى نفس الصفة الوراثية ولكنه يسخرها ويمتطى طاقتها ليحلق فى أجواء معيشية أو فكرية عليا . عنصر الاختلاف بينهما خليط من الدافعية وحسن الإستطلاع والكمال والاستزادة المعرفية ، وهو ذاتي . وينتمى أيضا الى خليط آخر من إمكانيات ثرية ومعلومات نشطة في بيئته ، وهو خارجي . كيف نوصل الطفل الى أقصى الحدود من أول الطريق ؟ ولا نعنى توصيله الى العبقرية أو الابداع ، ولكن الى استثمار كل طاقاته . الطفل مكتشف منذ البداية ، فهو لذلك يفتح الاشياء ليعرف ما بداخلها ، ويسأل فيما بعد أين نذهب عندما نموت أو ما شكل الله . ثم عندما يشب سيتعلم أنه يعيش أسعد وأطول اذا ألم أكثر بما يحدث داخله وخارجه . وهذه هي الفرصة المثلى لأول دفعة فى ثقافته . ان يترك ليبحث وأن يعطى عندما يريد . وهذا يتطلب وقتا وصبرا ممن يباشره ، علاوة على دراية علمية بما قد يسأل عنه ، ودراية سيكولوجية بكيفية الاجابة عليه . ولا يسيء الى الطفل أكثر من سقوط بطله الذى اعطاه معلومات يظهر خطؤها فيما بعد . وهذا عيب يقع فيه عدد غير قليل من الآباء . فأهون على الطفل أن يسمع من أبيه بأن يفتشا معا عن الاجابة ، عن أن يتضاءل العملاق فى أعين الطفل لأنه كذب . بل وتخلق الامانة فى هذه الحالة دافعا جديدا هو

المشاركة والزمالة في البحث ، أو الا تجاه الى خوض المعرفة المتصلة به من كل جانب وبكل السبل .

دوافع الاستكشاف والتحسس والانتماء والاتصال والمشاركة الاجتماعية معروف أنها مكتسبة . يعنى أن الطفل يتعلمها ممن يعيش معهم . وليس كل اكتسابها معتمد علي هذه البيئة . لان الطفل نفسه يقتني بعضا من هذه الدافعية بالفطرة . لأنه ، وهو ما زال فى أشهر الجهل الأولى من عمره ، يتلفت تلقائيا الى المثيرات الضوئية أو الصوتية كلما نشطت . و هو يخبط بديه على ما تقع عليه ليحدد نوعه وصلته بها . فاذا صح تنظيم مورفى Murphy لبناء الشخصية الآخذ بتبادل العلاقات بين عوامل أربعه هي :

(١) الاستعدادت التكوينية ، (٢) التوجية أو القنوية canalyzation(٣) الاستجابات الشرطية ، ثم (٤) العادات المعرفية والاداركية ، فان ميلاد الطفل يضعه فى المحتوى الثانى بمجرد اتصاله بالعالم الخارجى ، ليواجه بالنمو ضرورة تأسيس محتويات البناء الأخرى . وفى النهاية ، تتجمع كلها لتستقر على هيئة دور role هو الطريقة الثابتة نوعا للسلوك والاتجاهات . وهذا الدور تفرضه الثقافة على الطفل .

يعني أن تكوين الطفل ، وبالتالى وظائف هذا التكوين ، تعد نقطة إنطلاقه النفسى ونموه . وقد فسر كارل يونج الديناميات النفسية بمبدأين مبدأ التعادل ومبدأ الانتقال entropy . ومبدأ التعادل يوازي مبدأ Helm-holtz الاول للديناميكا الحرارية فى الفيزيقا ، الآخذ بثبات الطاقة . فانخفاض قيمتها فى مجال يرفعها فى أخرى . فاذا انخفض تقدير الطفل لعائلته مثلا فسوف يزيد إهتمامه بأشياء أو أفراد آخرين . أما مبدأ الانتقال ، وهو ايضا يوازي المبدأ الثانى للديناميكا الحرارية ، كما يصف به يونج ديناميات النفس ، فيعنى توازى القوى بتبادل الطاقات . وهذا مع أن الطاقة والحركة فى النفس لا تتبعان نفس الاسلوب الجامد

النمطى الذى تتبعانه فى الطبيعة .فالطاقة النفسية كيان فرضى كما أكد يونج ، يستخدم الفرد كل ما يلزمه منها لاشباع إحتياجات بقائه أولا .

وأى فائض بعد ذلك يخدم أنشطة الفرد الثقافية والروحية . وهنا يتجه إلي أهداف أرقى من مجرد البقاء . واذا انطلقنا من هذه النقطة لاستنتجنا أن توليد دافع حب المعرفة أو البحث عن الحقيقة فى الطفل الناشئ لا يمكن أن ينجح اذا كان محروما من حاجاته الاساسية .فكيف يدرس سبب انجذاب الاشياء الى الأرض اذا كان جائعا أو محروما من الرعاية؟ ولا يعنى هذا تعميم القانون . لأن الفريد آدلر رأى أن الفرد يكافح فى سبيل التفوق ، والتفوق عنده لا يعنى التميز الاجتماعي ، ولكنه يقترب كثيرا من فكرة تكون الذات عند يونج . وهو الانتقال من الانا الى مركز أقل بدائية وأكثر جدية يقع بين الشعور واللاشعور . ويقترب من مبدأ تحقيق الذات عند كيرت جولد ستين وهو خاصية فردية تختلف من شخص لآخر اختلافا كبيرا . لأنه وجد أن بعض ضحايا آفات المخ يخضعون لمرضهم ، بينما البعض الآخر يتخطى الاصابة بمحاولات للتكيف وتحدى الشلل الناتج عن المرض . بل ويمكننا الخوض فى أكثر من هذا ، لان الحرمان أو الاحباط يتسببان أحيانا فى توليد دافع خاص (المقاومة) يكون هدفه تحقيق الذات . وهو دافع لا يتساوى فى القوة عند كل الافراد ، ولا يزول توتره عند بلوغ نهاية السلوك الهادف الناتج عنه - لأن حالات الفقد أو الاحباط أو الحرمان تظل مستمرة ، ويظل الدافع الجديد مستمر معها . ولعل ابرز الصور لهذا النوع من الدافعية هو المقاومة التي يبديها بعض الافراد فى الكوارث أو الشدائد حتي بعض نقطة اللارجوع .

البيئة الاجتماعية وثقافة الطفل :

واضح مما سبق أن الثقافة تتولد في كائن حى لانه تعرض لكائنات أخرى وأشياء تخصهم . وواضح أيضا أن لهذا الكا ئن الصغير صفاتا

يجئ مزودا بها قبل أن يلتقى بالبيئة التى سيتفاعل معها . وأن هذه الخصائص قد تساعده على تلقى الثقافة أو لا تساعده .

ويهمنا الان التعرض لما تساهم به بيئة الصغير الجديدة من مثيرات ومؤثرات ستكون فى مجموعها ثقافته على حدة ، وثقافة الاجيال التالية بعد أن يتعامل معها هو وجيله معا . لان اسلوب الحياة الذى سيلقنه إياه مجتمعه لن يظل كما هو الى مالانهاية ، بل سيتعرض للتغير والتعديل، شأنه تماما شأن كل شيء حى نشط .

البيئة الاجتماعية الكل تنقسم الى اربعة مكونات : أفراد ، أشياء ، أنظمة ، وحاجات . ومن الممكن الاشارة الى الأفراد ككتلة عامة لا تميزية من الآدميين homosapiens ، أو كمجموعة مخلطة من البشر في موقع جغرافى محدد (دولة) ، أو كمجموعة أصغر من الافراد متجانسى الميول والا تجاهات (فريق سباحة كلية الهندسة ، أو جمعية الرفق بالحيوان مثلا) . أما الاشياء فيمكن أن تكون أجزاء من الطبيعة (زرع ، جبال ، أنهار ، موارد ، أنشطة طبيعية كالمطر والضوء والحرارة الخ ...). أو اشياء من صنع الافراد (مساكنهم ، ملابسهم ، أوانيهم وسائل مواصلاتهم وترفيههم وتخاطبهم الخ) . والأنظمة هى الحدود المجردة التى يرسمها المجتمع ليتبعها افراده ، كلهم أو من ينطبق عليهم نظام بالذات . ومن هذة الانظمة : الدين ، الشرع ، الضبط ، السياسة ، التعليم، الزواج ، الملكية ، الحريات إلخ .... أما الحاجات ، وإن كانت أصلا فردية ، الا أنها تنتظم فى النهاية لتصبح حاجات إجتماعية . ومنها مثلا الاتصال ، التكامل ، المشاركة ، الاستقرار ، الامن والمنفعه الخ . .

اقترح ايرك فروم Erik Fromm مجتمعا مثاليا يرتبط فيه الانسان بالانسان برباط المحبة ، و يتيح له إمكان التعامل مع الطبيعة بالخلق بدلا من التدمير ، ويشعر فيه الفرد بذاته . ولم يكن فروم رائداً فى فكرته ، لأن جان جاك روسو سبقه اليها باسلوبه الخاص فى تشخيص أمراض

المجتمع وعلا جها . بل وسبق كلاهما افلاطون بمدينته الخالدة يوتوبيا ، بمثلها ونظمها. وحيث أن تمنى الشيء يعني الحرمان منه ، فان تهيؤ هؤلاء المفكرين لاشكال المجتمعات التى خلقها خيالهم يعتبر فى حد ذاته مؤشراً للمرض الاجتماعي الذى عانت منه مجتمعات كل منهم . هل تغيرت المجتمعات عما كانت علية آنئذ ؟ و ما هي الهيئة التي يكون عليها المجتع اليوم عندما تطؤه قدم الطفل ؟ هل يعطيه هذا المجتمع العزة والرعاية والطمأنينة والدراية ؟ وهل يوفرها له طوال الوقت منذ البداية حتى تشكل دعائم ثقافته وتهيئ الميدان لديناميات سلوكه وتفاعله السليم المجدى مع هذا المجتمع ؟

التغير الاجتماعي:

المجتمع ، أو الكل من أفراد وأشياء و أنظمة وحاجات ، يخضع هو الآخر ، تماما كالطفل الفرد ، لمتتالية زمنية تترتب عبرها أحداثه . وهذا التتابع ، التطورى فى المظهر والوظيفة ، يحدد ثقافة الطفل التاريخية . من أين نزحت عائلته الاولي ، ولأى أحداث تعرضت ، ثم أين استقرت وكيف تأثرت بالطبيعة واستنفعت بها ، ولم خضعت أو على من سيطرت ، كلها آثار تاريخية تشكل طابع هذا المجتمع . فلا شك أن هناك اختلاف ثقافى بين طفل نشأ فى صحراء غرب أفريقيا ، وآخر فى أدغال البرازيل، وثالث في جبال سويسرا . لأن لكل منهم مناخ وطبيعة خاصة ، علاوة علي تاريخ قديم يتابعه الصغير فى عادات قومه وفى فلولكلورهم وفيما يفرض عليه من اساليب المعاملة والمأكل والملبس .

ولا ترضخ كل المجتمعات لقيودها التاريخية ، أو لأساليب ماضيها التقليدية . وهنا يواجة الطفل صراع الثقافتين الحديثة والقديمة . ولا يحدث الانتقال فجأة الا فى حالات قليلة كقيام الحروب أو تغير أسلوب الحياة (تعديل تكنولوجى مثلا) أو الهجرة . وعادة ما يشارك أهل الطفل فى مواجهة الصراع فى مثل هذه الحالات . ويكون عبء التكيف

الواقع على عاتقه أقل ثقلا . واذا ما قارنا موقفه السابق بموقفه من محاولة التوفيق بين ثقافة جيل أبويه والتغير الحادث في ثقافة جيله لوجدنا للتوافق مظهرا آخر . لأنه سيواجه وحيدا ، تيارا داخل عائلته . ولنأخذ علي سبيل المثال دخول الفتاة المدرسة أو الجامعة في مجتمعات كانت تحرمها منه . هل اذا ارادت الفتاة سيستجيب الأب ، وحتي إن رضى الاب فهل سيرضى العم أو الجد أو رئيس القبيلة ؟

تغير أسلوب الحياة فى المجتمع الواحد لا يحدث كثيرا في المجتمعات المغلقة ، وهذه تتضاءل فى العدد بشكل واضح كلما ازدادت طرق الاتصال وتقدمت اساليبه . ولكن التغير ظاهرة مستمرة في المجتمعات المفتوحة . وهذا هو أكثر العوامل الثقافية تفاوتا بينها . فقد يولد الطفل مثلا فى مجتمع زراعي يعتمد على أسلوب محدود لأنه محكوم بظروف اقتصادية ومناخية وجيوفيزيقية معينة . أو يولد فى مجتمع آخر يجمع بين الزراعة والصناعة والتعدين ، ويضيف الى موارده الطبيعية المعرفة التكنولوجية . وهنا تظهر الفروق بين ثقافة الطفلين . لان الميراث الثقافي للطفل الاول يظل كما جاء فى معظم الاحيان . ولكن الطفل الثاني يتعلم منذ طفولته الاستعداد لتقبل التغير بل ويتعلم التهيؤ لاستقبال التطور المنتظر فى كل الاوقات . ويتولد عامل جديد ، يحكم ثقافته ، هو خليط من سعة الافق والتطلع المتواصل . واذا تواجد فانه نادرا ما يشبع .

لغة المجتمع :

ثراء الثقافة المطروحة أمام الطفل مسئولية مجتمعه أولا وآخر . فاذا لم يصعد رصيدها دائما ، فان اقتصاديات هذه الثقافة يصيبها الكساد ، لا

بالنسبة لنفسها فحسب ، ولكن بالمقارنة بالثقافات الموازية . لان معيار التقدم فى أى مجال ليس الازدياد فى القوة والسرعة فحسب ، ولكنه الفرق فى التطور بينه وبين آخر . ولنأخذ على سبيل المثال أسلوب تلقين اللغة للطفل . فاذا افترضنا بأن وسيلة الاتصال بين الافراد في المجتمع الواحد هي رموزهم الخاصه لمعانى عامة عالمية ، وأن هذه الرموز اللفظية تختلف فى المنطق والمسمع من مجتمع لآخر ، ولكنها فى النهاية تتفق فى اشارتها الى نفس الشيء ، فان هذا النوع من الاتصال الاجتماعى يعتبر أولى حاجات الطفل غير الحيوية التي يقاوم بها العزلة ، والتى يعتمد فى اقتنائها على مجتمعه . وحيث أن حجم وغزارة هذه الرموز يشير الي كمية وعمق المفاهيم والمعاني التى ترمز اليها ، فان اللغه خير معبر عن ضيق أو سعة الثقافة . وغنى عن الذكر أن افتقار لغة ما الى المصطلحات التي تزخر بها أخرى لخير مؤشر على تخلف مجتمع الأولى .

كيف تولد اذن هذه الرموز ؟ اذا رجعنا الى الوراء السحيق فى تاريخ البشرية لا ستنتجنا ، وهذا محض تخمين ، أن الانسان الاول لابد وأنه لجأ الى نوع من الأصوات ، يخلقها فى حلقه ، ليعبر بها عن خوفه أو ألمه أو لينبه بها افراد مجموعته الى خطر أو أى شيء حادث . لان الاصوات الحلقية استجابة فطرية تصدر من معظم الكائنات الحية عند انفعالها . بل وتظهر هذه الحاجة للتعبير عند الانفعال بشكل أوضح عند دراسة سيكولوجية الصم . فمع أن الاصم أيكم ، الا أنه عند الانفعال يصدر من حلقة أصواتا ، لا معني لها بالنسبة لباقى المجتمع ، الا أنها موحدة نمطية عند الحيوانات العليا . وتظهر معظم الدراسات الفيلوجينية للسلالات إحتمال اعتماد الانسان بالذات على حنجرته وعلى تعبيرات وجهه الفطرية فى نقل افكاره الي الآخرين . وأن استعماله لحنجرته لم يتعد اصدار ما نسميه اليوم الحروف المتحرّكة ، تماما كما يلاحظ على الاطفال في دراسات نموهم الارتقائى . وهذا يعنى أن ضحالة الرموز

اللفظية في المجتمعات البدائية مرجعه افتقارها الي المثيرات التي تولدها. لأن الانسان الاول لم يلجأ الى تكوين هذه الرموز الا عندما اضطره ازدحام بيئته الي خلق اصوات موحدة لكل تعبير ، حتى يتم التفاهم مع الآخرين عن طريقها .

ضحالة أو عمق اللغة ، وتهذب السلوك اللفظى أو عدمه لا يشيران الى ثراء الثقافه فحسب ، ولكنهما يحددان الطبقة العقلية الاجتماعية التي ينتمى اليها المتكلم . فالمتخلف العقلى والاجتماعي يستعملان رموزا لفظية محدودة ، سهلة التمفصل syntax بينما يتعامل مرتفع الذكاء أو ثرى الثقافة بكودات لغوية أكثر تعقيدا و أشد تركيبا من حيث التفصيل والتحديد والاتساع . وعليه فان دور المجتمع واضح في هذه الناحية . فتطوير اللغة باستمرار لتساير تطور حاجات المعيشة والعلوم ، وتلقين النشء لها فى سنين حياتهم الاولى خير دعامة للكسب المعرفى . ولا تتوقف المعرفة هنا عند لغة جماعة الطفل المباشرة ، لأنه فى حاجة الى أخريات تخص مجتمعات موازية ، حتي تتحسن مهارته فى الاتصال الاجتماعى والقدرة على حل المشاكل . وحيث أن اللغات تعبير عن الافكار، و الافكار تعبير عن المعارف، وان المعارف معيار للتطور الاجتماعى ، فان لغة الطفل فى النهاية هي معيار رصيده من المعرفة الخاصة بالمعارف والعلوم القائمة فى مجتمعه .

المثل :

القيم ونظم السلوك واساليب الانفعال ركن آخر من اركان ثقافة الطفل التي تنتقل اليه من مجتمعه . والدليل على ذلك هو اختلافها الشديد من مجتمع لآخر . ومن الصعب تصور هذا التباين الى أن يلمسه الانسان بالانتقال من ثقافة الى اخرى . وهذا هو ما فعلته مثلا مارجريت ميد ، عندما عاشت فعلا فى (جنوب شرق أندونسيا) ، وسجلت ، على مدي عامين ، كل ما يتصل بشخصية أهل الجزيرة النائية عن العمران .

وقارنت بين السلوك الخاص بالدوافع البيولوجية بالذات ، العالمية فى خصائصها ، في مجتمع بالي والمجتمعات الغربية . فسكان بالى يتفادون الاكل أمام الآخرين . واذا اضطروا الى ذلك ، فانهم يعطون ظهورهم لبعض ، ويأكلون بسرعة . كما لو كانت العملية مخجله أو معيبة. وقد ربط بعض الملاحظين إتجاه أهل بالى نحو التغذية باتجاه الحضارات الاخري نحو الاخراج . ويزيد من تنفير الطفل لعملية الاكل ، طريقة تغذيته الاولي، بدس الطعام في فمه عنوة وهو مطروح علي ظهره أرضا . سواء رغب أو لم يرغب . ومن العادات الاخرى التى شاهدتها ميد هناك ، طريقة المعاملة التى يلقاها الطفل من أمه . فدافع الامومة معروف أنه يهدف الى حنو الام علي اطفالها لاعتمادهم غليها عاطفيا وجسميا . ولكن مجتمع بالى يخرج تماما عن هذه الاستجابات المكتسبة ، لانه يفرض علي الأم تبنى أطفال أخر لتعود أطفالها علي الاستغناء عن الحاجة العاطفية للغير، بما فيه الام.

ويشب الفرد بعد ذلك محافظا علي «بعد إجتماعى» يقيه من عواقب الاحتكاك الانفعالى مع الآخرين ، ويعطيه فرصة أكبر للتأمل الذاتي . واذا قارنا هذه القيم بتلك التي تفرضها المجتمعات الآخرى لوجدناها فى كثير منها تشخص على أنها إنطواء اجتماعى .

انتقال الطفل بعد ذلك من نظام إجتماعى الى آخر . لا يعنى بالضرورة تمسكه التام بالنظام الاول الذى شب عليه ، لان من خصائص الكائن الحى القدرة على التكيف لبيئته . وهذا يعنى أن التعديل وظيفة يمكن حدوثها طالما توافرت القدرة والامكانات من داخل الطفل ومن خارجه . فاذا كان طفل افيرون قدعانى من التخلف العقلى ، وهو لذلك لم يتقدم كثيرا عندما غير بيئته ، فان الطفلة كمالا الهندية نجحت فى الارتقاء من سلوك حيواني عدواني بحت الى سلوك اجتماعى ذكي . فبعدما عاشت كمالا تسع سنوات في عش ذئب ، عثر عليها لتنتقل من مجتمع الذئاب الي مجتمع الانسان . وتعلمت كيف تمشى منتصبة على قدميها . وكفت عن التجوال ليلا والعواء . وتعلمت مخالطة الناس بحرارة و التحدث

بلغتهم بطلاقة وبدون تعثر ، الى أن توفيت وهي فى السابعه عشر من العمر . وتضيف هذه الامثله براهينا على أن اسلوب الحياة رهن بالاحتكاك الاجتماعى الذى يتعرض له الطفل .

ومع أن التغير فى الحالات السابقة يعتبر فرديا ، إلا أنه يساعد فى الاشارة الى ما يمكن أن يحدث عند عبور الثقافات أو عند هجرة الجماعات الى مجتمعات ثقافية أخرى . وحيث أن الحدود الجغرافية لم تعد وعاء ثقافيا كما كانت الى مدخل القرن العرشين ، فان تداخل الثقافات اليوم يجعل من العسير التعرف علي اسلوب حياة مميزة لكل مجتمع معاصر على حدة ، الا فى عدد صغير من المجتمعات المعزولة جغرافيا ، لان معظم دول العالم تتبنى نفس النظم الاجتماعية والترفيهية والسياسية والقانونية تقريبا ، كالزواج والملكية وقواعد المرور والحريات الخ . واذا استثنينا الديانات ، لوجدنا أن الحدود المميزة تتلاشى بين العديد من الثقافات المجاورة ، بحيث يقترب كثير منها من كونه عالميا مع فارق بين الشرق والغرب مثلا ، أو الزراعى والصناعى أو المجتمعات المتحضرة والنامية .

بقى شئ أخير ، معنوي من ناحية ، وفيزيقى من ناحية أخرى. فالبشرية باعدادها المتفجرة لم تعد تهيئ نفس الظروف التي كانت تهيؤها للاجيال السابقة . ويشكل هذا النوع من التغير فى الكثافة السكانية ضغطا على بعض المجتمعات يختلف من ضوضاء الى ملوثات بيئة ، الى تضاؤل العناية والقوت والوقت والدخل والفرص . والصارخ في هذه الحقيقة أن المجتمعات المسئولة عن الازدحام والتلوث والتخلف تعانى أصلا من ثقافات محدودة . بينما المجتمعات الاكثر تطورا ، والتى تتحكم تكنولوجيا فى تلك العوامل ، تقاسى من القلق الناتج عن اللامبالاة والاخطار التي يتسبب فيها غيرها .

العوامل الفيزيقية:

الى الآن ، ومناقشة ثقافة الطفل التي يكتسبها من مجتمعه ، معتمدة على مداخل انسانية فقط ، تدور حول اساليب اتصاله بالاخرين من حيث سلوكه اللفظى والعملى والانفعالى فقط . ولكن مساهمة المجتمع فى ثقافة الطفل لا تتوقف عند هذه العوامل المعنوية فقط . لانها تشمل أيضا عناصرا مادية محسوسة هى ادوات المعيشة التي يستعملها الفرد فى مجتمعه ، ونوع الغذاء والعقاقير التي يتناولها ، والكساء والمأوى الذى يحميه ، علاوة على ادوات الترفيه والتعبير الفنى التي يلجأ اليها لتسليته.

يعتمد الم الطفل بالطبيعة حوله على الوسائل التعليمية التي يقدمها له مجتمعه ، بل وتعتمد على ذلك كثير من العادات التي سيتبناها فى مستقبله ، الخاصه بحياته ومأكله وفهمه للامراض والعدوى والعلاج والوقاية . وحيث أن هذا المجتمع يوفر له أيضا نوع وقوانين مسكنه ، ثم نظام محاصيله الكبرى والصغرى وقوانين تصنيع منتجاته ، وطرق حمايته من الطبيعه ومن المجتمعات الاخري ، فا ن الطفل يولد وثقافته هذه رهن بعطاء هذا المجتمع . ولا متسع هنا لعد المسئوليات ، وهل هى أليق ما بوسع هذا المجتمع أن يقدم ؟ وهل هى آخر ما وصل اليه العلم في باقى المجتمعات ؟ وهل تضمن فعلا لهذا الفرد الصغير ، الذى لم يكن له شأن بميلاده ، حياة السعة والطمأنينة والعافية ؟

الأسرة وثقافة الطفل:

يتكون المجتمع الكبير من وحدات من مجتمعات أصغر هى الأسر . ومع أن هذه الاسر لا تخضع لنفس التنظيم الذي يخضع له المجتمع الكبير ، الا أن لمعظم الاسر قواعدا وطرقا للمعيشة تقوم مقام النظم والقوانين الاجتماعية العامة . ويعتقد معظم السيكولوجيين أن سنين الطفولة الاولى تشكل مرحلة التكوين النفسى للطفل ، وأنها أكثر مراحل

نموه حرجا . وحيث أن سنواته الخمس الاولى (الحرجة) تجده فى كنف أسرته طوال الوقت تقريبا ، فانه لعجزه ، يصبح صورة الظل لهذه الاسرة. فكيف ينفعل ، ماذا يأكل ، ماذا يقول ، لماذا يخاف أو يفرح وكيف يعبر عن نفسه ، كلها رهن بما يدور داخل هذه الأسرة وما يبدر من افرادها .

تكوين الذات ، أى الشخصية الفردية ، يتم على مراحل متعددة منذ ولادة الطفل الى أن ينضج . وهذه الذات ، أو (الانا) ، لا تظهر بوادرها فى الاسابيع الاولى . لان الطفل حديث الولادة لا يميز بين جسمه وبين بقية الحقائق التى تحيط به . يعني أن جسمه ونفسه يظلان وحدة متصلة الى أن يصل الوليد الى مرحلة التمييز بين هذا الجسم وبين محتويات العالم خارجه . ثم بعد ذلك ينتقل الى تنظيم الاشياء الى ذاتية وموضوعية عن طريق ادراكه وذاكرته . ويكون بهذا الاسلوب قد توصل الى التعرف علي ذاته ، وتعرف عليها المحيطون به أيضا .

الذات تنظيم يتطور لان الطفل يتعرض لمثيرات حوله تخص حواسه أولا، وأخري تخص عملياته العقلية و الحشوية بعد فترة قصيرة . وكما قال وليم جيمس فانه « بمجرد الولادة الطبيعية ، تهاجم البيئة الصاخبة حواس الطفل » . فتتطور الوظائف الدماغية بين الاسبوعين الرابع والسادس بحيث تبدأ فى الاستقلال عن وظائف التوازن الحيوى . لان الطفل يولد مستعد للقيام بعمليات التفاعل العضوى التي تؤمن له الاستمرار على الحياة ، كالتنفس والمص والبلع . ولكن عملياته العقلية التى ستعتمد علي حواسه ، لا تكون مؤهله للعمل الا بعد عدة اسابيع ، بل ولا تعمل اذا لم تتصل بما يثيرها من الخارج . فقد ثبت تجريبيا مثلا أن قردة الشمبانزي التي حرمت من الضوء منذ ولادتها تفقد ٩٠٪ من خلايا الابصار بشبكيتها . وأن القطط التي منع الضوء عن إحدي عيونها فقط ، لكي تبقى العين الثانية بمثابة عامل الضبط بالتجارب ، أصبحت تستعمل العين المتعرضة للضوء فقط فى الاستجابات التلقائية (المتماثلة

أصلا فى الاثنين) المتصلة بمتابعة الضوء أو المثيرات المتحركة . أي كما رأى بياجيه Piaget يلزم الكائن الحى النامي غذاء من المثيرات ، تماما كما يحدث في جهازه الهضمي ، لكي ينمو ويتطور .

وتكفينا الحقائق الطبية الانثروبولوجية الخاصة بتطور الجمجمة كدليل على أن النمو رهن بالوظيفة بالاضافة الي الوراثة . لان حجم مخ الانسان Australopithecus (٥٠٠ر٠٠٠ قبل الميلاد) لم يكن أكثر من ٧٠٠ سنتيمتر مكعب ، بينما أصبح حجم مخ الرجل المتوسط اليوم حوالى ١٤٠٠ سنتيمتر مكعب . ولم يحدث ذلك الا لأن ازدياد الوظائف الموكولة الى هذا المخ اضطرته الي توسيع مسطحه ، فزادت تلافيفه وبالتالى عدد نوروناتها . ما سبق يعنى أن ثراء بيئة الطفل الاولى يثري ثقافته سواء من الناحية التكوينية أو الوظيفية . ولا يتوقف تقدم النمو على الخلايا الدماغية فقط ، لأن أنظمة الطفل الحيوية وعظامه وعضلاته تتأثر بعوامل البيئة أيضا . فعلاوة على أنه قد ثبت أن أطفال الملاجئ اللقطاء يعطون متوسطات أقل للذكاء ، ترتفع عندما ينقل الطفل الى عائلة ترعاه ، فإن نسب الوفاة تختلف أيضا بين أطفال الملاجئ والاطفال المتبنين بل ويتباين طول عظامهم ونضج عضلاتهم نتيجة للمجاعة النفسية . ولا يخفى مدى ما تسببه هذه المجاعة من حرمان من الدافعية لتبنى النظم الصحية للسلوك السليم .

الرعاية التي تحيط بها الاسرة طفلها هي السند الاكبر لنمو واكتمال كل وظائفه النفسية والجسمية . وتساعده هذه الوظائف على تكوين مكانته الخاصة فى المجال الاجتماعي ، لا بالنسبة للآخرين فقط ، ولكنه بالنسبة لتقديره السوسيوميترى لنفسه أيضا . ويلاحظ أن بياجيه قسم التطور المعرفى للطفل إلى خمسة مراحل : ١ - الحس - حركة -٢- التفكير الانانى -٣- مرحلة الحدس -٤- العمليات المحسوسة (وهو الان بين ٧ -١١ سنة) - ٥ - العمليات المعقدة (١٢ سنة فصاعدا) . وأنه

وجد فروقا فى التطور بين الثقافات من ناحية وبين الطبقات الاجتماعية من ناحية أخري . يعنى أن إنتماء الاسرة الى واحدة أو أخرى يؤثر علي نمو الطفل المعرفي . بل اثبت الباحثون تميز الانفعالات الطفلية من أول الشهر الثالث ، و أن الفروق تبعت خصائص الانفعال لدى الابوين أو من يقوم برعاية الوليد . فالطفل البشوش ، هادئ الطبع يتبع الراعى الحنون. أما الطفل القلق ، حاد المزاج ، غير المنتظم فى استجاباته فانه ناتج الرعاية المقتضبة غير المستقرة أو الفظة .

ثم ينتقل الطفل من مرحلة المهد الي مرحلة بدء المشى todler stage ليجنى أثناءها مهارات كثيرة كالكلام والاعتماد علي ساقيه والتفريق بين ما يريده وما لايقبله . ويتبني للمرة الاولي إما سياسة الرفض أو الاتجاه السلبى نحو ما يفرض عليه . بل يتعلم أن يقول (لا) قبل (نعم) . ويتعرف علي ما يمقته قبل التعرف علي ما يريد . وفى هذه المرحلة تكتشف الاسرة كيفية التعامل مع هذه الذات الجديدة .لأن اسلوب الجذب والشد لن يؤدى الى حل مشاكلها ، ولكن سياسة التعاطف والحزم هي التي ستنجح فى اقامة الحدود الاولى للسلوك المقبول .

وفي السنتين الثالثة والرابعة يجد الطفل متعة فى الانطلاق والاعتماد على نفسه والتحسس المعرفي . ويزيح اسرته الى اقصى محيط أنشطته. لأن الطفل يأبى الان أن يظهر ضعيفا ويصر على الاستقلال . ويكون المطلوب من اسرته فى هذه المرحلة التقليل من ممارسة السلطة ، واطلاق حرية الطفل فى النشاط الهادف الى تحقيق ذاته . ومع ذلك فان مستوي طموحه يفوق دائما مستوي إمكانياته . فهو لذلك يأخذ على عاتقه أعمالا لا يستطيع اتمامها ، أو يدخل فى مشاكل لا قدرة له على الخروج منها . ويكون دور الاسرة إما مساعدته على بلوغ هدفه بعدما يستنفذ كل طاقاته فى المحاولة أو ارشاده فى المراحل النهائية إلى أنجح السبل لحل مشكلته. وأهم من هذا وذلك هو دور الاسرة في اعداده لتقبل الفشل أو

القصور ، وانتظارهما كواحد من وجهى اللعبة .

ويتقدم الطفل نحو التطبيع الاجتماعى فى هذه الفترة أيضا . لانه سيستقبل اطفالا جدد في العائلة ، أو يقابل أطفالا غرباء خارج العائلة . ويتعلم للمرة الاولى ضرورة التعامل مع الغير ، وألم فراق بعض أشيائه دائما أو أحبابه بعض الوقت ، لأن الآخرين سيشاركونه فيهم . وتخدم هذه المعاناة منفعة جديدة ، لان الطفل سيتجه فى نفس الطريق الى البحث عن ذاته . وسيتأثر بهؤلاء الغرباء . وسيعين أيهم يميل اليه وأيهم ينفر منه. وهنا أيضا تؤثر أسرته على إختياره ، لأنها تتحكم فيمن يخالط، أو لانها تحدد له القيم التى ينتظر منه أن يزن بها الافراد والاشياء والأفعال.

وتنحصر الثقافة النفسية السليمة التي نتيحها للطفل بعد هذا في قيم تعتبر فى الحقيقة معايير عامة للصحة النفسية . فعليه أن يتعلم تقبل الحقائق المتعلقة بقدراته ، واستعداداته ، وحالته الجسمية والعقلية . وعليه أن يتفاعل مع من يحيطون به تماما كما يود أن يعاملوه ، فيتعاطف معهم ويتقبلهم كما يقبل نفسه . و عليه أن يتعلم الاقبال على الحياة وتحمل نصيبه في أي عمل ، وأن يكون طموحا شجاعا مستعدا للكفاح والمقاومة اذا تعرقل هدفه أو فشل أول الامر . وأخيرا أن يتعلم الموازنة بين حاجاته وبين متطلبات المجتمع حوله ، فيتوقف عن الحدود التي رسمها هذا المجتمع حتى وإن أدى ذلك الى حرمانه من اشباع حاجة جسمية أو نفسية . وحيث أن الرياح لا تجيء بما تشتهي السفن دائما ، فان عليه أيضا أن يتعلم التكيف لمواقف الاحباط بتغيير الاشياء أو بتغيير أوضاعه النفسية . ومهمة أسرته في هذه الثقافة النفسية طويلة شاقة ، لأنها لا تخضع للوقت أو لقانون أو لطريقة . فهى تبدأ من أول يوم يتبادل فيه الطفل الكلمات من يقوم برعايته . ولا تنتهي الا عندما يصبح الطفل راشدا آخرا مسئولا عند طفل أخر ، يرعاه ويحثه بنفس الاسلوب تقريبا ، ويختار عند ارشاده بعض الاساليب التي طبقت عليه . وهكذا تنتقل الثقافات من جيل الى جيل عن طريق فرد الى فرد : ميراث ومتعة ودين .

الطفل والتربية النفسية

التربيه هي كل ما يتصل بالتعلم ، سواء كان هذا التعلم بسيطا أو مركبا . والعائلة أول من يقوم بهذه المهمة ، تليها المدرسة ، أو اذا تواجدت مشاكل أثناء نمو الطفل فان المهمة بعد ذلك تقع على عاتق السيكولوجي أو المرشد النفسى . والتربوى الممارس بالمدارس فى نفس موقف المرشد النفسى خارجها . لأن السيكولوجي في هذه الحالة يقوم أولا بتطبيق وتقييم اختبارات الذكاء ، الشخصية والقدرات والاستعدادات كلما استدعت الحاجة . وتسمى مهمته هنا : القياس النفسى . وتحال اليه ايضا حالات فردية أو جماعات تتصف باضطراب فى السلوك أو باضطراب فى طرق التعلم . وهنا يعمل السيكولوجى مباشرة مع الفرد ، أو يضطر الى مقابلة بعض افراد عائلته ومدرسيه . وبهذا يخطط منهجا محددا يتضمن تخليص الفرد المضطرب من اسباب اضطرابه . ويصبح هنا أخصائيا إجتماعيا بالاضافة الى مهنة التربية النفسية .

وعلينا أن نعاود في هذه الآونة تلخيص المعاملات التي تتحكم في تكوين الفرد الناشئ ، أي نناقش نظامه التربوى وصلته بالأنظمة الأخرى، سواء كانت حيوية تخص جسمه وتطوره ، أو بيئية تخص الاشياء والنظم المحيطة به .

الشخصية والتربية النفسية:

كلمة شخصية مشتقة من اللاتنية persona ومعناها الطابع أو الملامح. وقد اطلقت أصلا على القناع الذى كان على الممثل المسرحي الاغريقى أن يضعه على وجهه كلما تطلب منه موقف التمثيلية أن يغير تعبيراته . وقد

تقـدم كـثـيـر من المفكرين فى علم النفس بنظريات مـتـعـددة تـخص هذه الشـخـصية (أى التـعـبـير عن إتجاه الفـرد نـحو المواقف) ، ثم بنظريات أخـري تـخص علم النفس المرضى (أى السـيكوباثولوجـيـا) . وكـانـوا جميـعا ينظرون الى النفس في وضـعين مـختلفين . الوضـع الاول يفـحص الدعائم الستاتيكية الثابتة والديناميـة المتـحركة التي يقوم عليها بناء هذا الشيء غير الملموس المسمي الشـخصية . والوضـع الثاني يعالج المظاهر الغير طبيعية أو الشاذة للسلوك (أى لهذه الشـخـصيـة) سواء كانت هذه المظاهر ستـاتيكية أو ديناميكية . وبهذا نجد أن على المربى النفـسى أن يدرس أولا أنواع الشـخصيات ثم أمراض الشـخـصية واضطراباتها قبل الاتجاه الى تربيتها .

التربيه النفسية والتطور:

حـيث أن الكائن الحى الطفل مـولود وفـى حـوزته صـفـات ورثـهـا من الجيل أو الاجيال التي سبقته ، فانه يولد وينمـو مستعدا للابقاء على ، أو لتغيير بعض هذه الصفات . ولن نقول مثلا أنك ستـغير طولك الموروث في مـعظم الحالات (لأن نوع غذائك قـد يتـسـبب فـعلا فـى حدوث التـغيـر) ، ولكننا نقول أنك اذا نشـأت في بيئة تساعدك على الاحتفاظ بكل ما ورثته من صـفات جسمية وعقلية لانها مستمرة على نفس خصائص بيئة الجيل الذي سبقها ، فأغلب الظن أنك ستظل مـحتفظا بنفس الصـفات وأنها لن تتـغـيـر ، وهذا نادر الحـدوث . فكيف تـضـمـن لنفـسك نفس نوع الغـذاء والانفـعـال والاتصـال والاحتكاك الاجـتـمـاعـى الذى تـعـرض له من ورثوك صفاتهم ؟

ولا يتـوقف الأمر على ذلك . لأننا اذا قلنا أن الطفل (أ) ولد بـعـائلة من الاذكـيـاء وأنه هو الآخـر ذكـى ، بينمـا الطفل (ب) مـولود في عـائلة من الاذكياء ولكنه غير ذكى ، فإن الاحـتمـال كبيـر أن (أ) و (ب) إختلفا فى ذكائهـمـا (حـتي وإن اتفق في هذا الذكاء والديهمـا) لواحد أو أكثـر من

الاسباب الور اثية أو البيئية . هذا لان الطفل (ب) ورث صفة التخلف العقلى من مكان آخر بالعائلة . ومن ناحية أخرى ، فلنفرض أن الطفلين (أ) و (ب) أذكياء لأن والديهما أيضا أذكياء ، ولكن لسبب ما نجد أن (أ) يعطى مظاهر عدم القدرة على التعلم ، بينما (ب) يتقدم فيه بسرعة . واذا اثبت القياس أن هذين الطفلين متساويين في الذكاء ، ولكن مظهرهما الاخير يشير الى غير ذلك ، فان هذا يعني شيئا آخراً يخص دافعية (أ) . وهذه الدافعية قد يكون مصدرها هو نفسه (جسميا وعقليا) أو مصدرها محيطه الفيزيقى والمعنوي (بيئته) .

التربية ونظريات التعلم :

ستفهم هذه العلاقة بطريقة أوضح اذا تعرفت على بعض نظريات التعلم . فبعضها يرى أن هناك أربعة عوامل تساعد الفرد على تعلم الشئ الذي يواجهه أو الصفات التي سيتبناها ليضيفها الى مقومات شخصيته ، وهذه العوامل الاربعه هي : الدافع - المثير - الاستجابة - الجزاء . فأنت تصحو الى حاجة خاصة الى النشاط (لأن لديك دفعا خاصا يدفعك الى هذا النشاط) . ولنقل فى هذه الحالة أن دافعك هو الخوف من الاخفاق فى هذا المثال . ومثيرك الآن هو هذه المادة . فهي شئ جديد غريب عليك ، يتسبب في نوع خاص من القلق الذي يوترك . وأنت بذلك محرك أولا بدافع الاستطلاع (وهو مكتسب) ويسمي أيضا دافع الاستكشاف exploration ، لأن لديك خوفا معينا من المجهول عامة، يجعلك تنشط دائما لتتحسس ظلماته . وأنت فى كل هذه الحالات متصل بشئ وراءك يقودك الى القيام بعمل ما (الا اذا كنت متبلداً ، فانت اذن غير طبيعى) . وهذا الشيء نسمية الدافع . ويكون اسمه الخاص في مثلنا السابق : دافع التعلم . ولا نخفى عليك القول بأن لكل فرد حظه الخاص من هذه الدافعية ، لأن هناك شديد التوتر عظيم الدافعية فى معظم المواقف التعليمية ، وآخر ضعيف الدافعية الى درجة البلادة .

وبينهما كل الانواع والاختلافات فى كل درجاتها .

كيف يكون للمثير بعد ذلك أثر في نوع ومدى تعلمك ؟ هل دخلت مرة دار كتب لتشترى منها كتابا أو مجلة ، فتصفحت محتويات أو عناوين كل واحدة من الكتب و المجلات المعروضة ، ثم أخيرا وقع إختيارك على كتاب بالذات ؟ كل هذه الكتب والمجلات كانت مثيرات ، ولكن واحداً منها استرعى انتباهك بالذات . أى واحد منها فقط قررت أن تعلم ما بداخله ؟

المثيرات حولك كثيرة ، بعضها نشط متغير والاخرشبه ثابت لا يتغير بشكل واضح . وهذا لأن كل شيء فى الحقيقة يتغير بطريقة أو بأخرى لأنه متصل بالزمن . وهذا لا يتوقف . وحيث أنه ليس باستطاعتك ادراك كل هذه الاشياء النشطة ببيئتك ، فأنت توجه انتباهك الي بعضها فقط ، لأن هذه هي طاقتك . ماذا تختار منها و أيهما تجيد التعرف عليه بعد ذلك متوقف علي نوع العلاقة بينك وبين المثيرات .

هل المثير الذي أنت بصدده شيء يعتمد علية بقاؤك حيا ؟ أنت سرعان ما تتعلمه لأنك مولود ومعك غريزة تدفعك الى الاستمرار على الحياة بكل ما لديك من قدرات . ولنضرب لك مثلا لذلك . أنت تنتقى وتسعى الى التعرف علي مثيرات مثل : الغذاء (الممكن أكله والضار) ، ونوع الافراد (صديق نافع أم عدو غادر) ، المواقف (هل تستطيع مواجهتها والاستمرار فيها أم يكون اسلم لك أن تتفاداها) ، قدراتك (هل تؤهلك لعمل ما أم تخذلك فيقضى عليك) ؟ لذلك نجدك تتفادى شرب ألوان الطلاء ، أو مصادقة قاتل ، أو مداعبه كلب مسعور ، أو صد بناء ينهار . ولا تظن أنك مولود ولديك كل هذه المعلومات . كل ما لديك هو الاستعداد للبقاء على الحياة . وعليك بعد ذلك أن تحيط هذه الغريزة بكثير من الاستطلاع . وأن تحيطها البيئة بكثير من المعلومات . وأهم من ذلك أن يخول لك عمرك وقدراتك أن تفهم وتميز الصالح من الضار . لانك قد تكون فى الثالثة ، غير ناضج عقليا بعد ، فتشرب لون الطلاء فعلا لانه

جذاب ، مع أنهم عرفوك أنه سام . وقد تتعامل مع قاتل فعلا لأنك تجهل أنه قتل . أو يداعب المسن في التسعين كلبا مسعورا فيعضه ، لأنه فقد القدرة علي التمييز ... وهكذا . وليست كل طرق التعلم الخاصة بالبقاء على الحياة بهذا التعقيد ، لانك تتعلم أيضا كيف تمضغ طعامك أو كيف تعده أو من أين تشتريه . ولا يحيط بهذه العمليات كثير من المعوقات في معظم الحالات .

هل للمثير بعد هذا صلة باستمرارك الاجتماعى ؟ هل تعتمد عليه فى اتصالك بالآخرين وفي رضاهم عنك وتقبلكم لبعضكم ؟ اذن ستتعلمه. لأنك كائن اجتماعي لا يتحمل العزلة ، الا اذا كنت غير طبيعي . لذلك ستقبل علي تعلم اللغة ، وستتعرف علي أحسن الطرق في اقامة الصداقات ، وستضفي علي شخصيتك كل يوم شيئا يزيد من قدرتك علي الاحتفاظ باجتماعيتك ، أو يقوى موقف جماعتك . فتتعلم أكثر ، وتتنافس في الترضية أو التحدي ، وتتبني اساليب القيادة أو طرق الانقياد الخ . مثيرات تعلمك هنا أيضا متعددة . فأمامك اللغة (تخاطب) والحساب (اقتصاد) والعمل (تبادل) والعرف والقانون (حدود) والعلوم (قوة) والمعاملة (اتصال) .

وأخيرا هل للمثير صلة براحتك النفسية ؟ فانت تختار من المثيرات ما يعجبك ونادرا ما تسعي الى مالا يرضيك . فانت تتعلم الى ما تميل اليه، أو بالأحري ما تعلمت أن تميل اليه . لأنك ، مرة أخري لا تولد متصفا بهذه الميول أو الاتجاهات . ولكنك تكتسب غالبيتها لأن بيئتك عرضتها عليك فى اطار أكثر جذبا من غيرها . هل عرفت الان اذن لماذا ولدت مسلما أو مسيحيا وتمسكت بحبك لهذا الدين بالذات ؟ وكانت أقصي راحتك أن تقوم بشىء تشير اليه تعاليمه ؟ لا لشىء الا لأنك تعلمت هذا الدين وهذا الميل من بيئتك . وكيف تمضى الساعات تستمتع الى موسيقى بيتهوفن أو الروك أندرول أو صوت أم كلثوم ؟ تقوم بهذا لانك

تعرضت لهذه الانواع من النغم مرة ثم كررت سماعها واخترتها من بين غيرها لكى تستريح اليها ، وإن لم يمل اليها آخرون فى عائلة أخري .

والاستجابة ، وهي العنصر الثالث من عوامل التعلم ، شئ إضطررنا الي الخوض فيه عند الكلام عن المثيرات . فأنت نادرا ما تقف أمام الاثارة الا فى مواقف استجابة . لانك ستفهم وتختار وتقرر ازاءها شيئا. وهذا الشيء قد يكون رفضا لها (تتحاشاها) أو تقبلا لها (تقترب منها) أو حيادا (وهو الاثنين معا) . أي أنك مدفوع بطريقة أو بأخري الى إتخاذ قرار ما ازاء هذا الشيء المتغير الحادث خارجك (أو داخلك)، لانك كائن حي متفاعل مع الاحداث التي تمسه وتلك التي تحيط به حتي عن بعد .

نوع الاستجابة التى تقوم بها يعني أنك فهمت الموقف (بطريقتك الخاصة) وأنك تري أن هذا هو ردك على علامة الاستفهام التي وضعت أمامها . ولا نقول لك أن فهمك هذا يؤدى بك الى أحسن الحلول وأوفقها في كل الاوقات . لأن استجابتك قد ترتكز على فهم خاطئ للموقف (تعلم ناقص أو متخلف) . أو يقودها دفع خاص بك أنت ولا صلة له بالاثارة كأن تنفعل لمجرد ذكر كلمة « رياضيات » فتأبي محاولة الفهم (اسلوب التحاشى)حتي ولو كانت مشكلته الرياضية فى مستوي مقدرتك العقلية .

ويكون اسلوبك في الاستجابة متوقف في معظم الاحيان على هدف أخير فى كل هذه العمليات . ماذا تجني من وراء كل هذا النشاط ؟ هل يعود عليك بالنفع المادى أو الادبى ؟ هل يساعدك على تفادي نوع خاص من العقاب كالالم أو الحرمان أو التخلف والنقص ؟ فأنت تواظب على استذكار موادك هذا العام لانك تعرف أن لنهاية هذه الدراسة وجه آخر من المثيرا ت هو الاختبار . فانت لذلك تنتظر نوعا خاصا من الجزاء للعمليات التي قمت بها أثناء التعلم . ستنجح أو ستحصل على جيد أو

ستكون من أوائل دفعتك . أو من ناحية أخري ستتفادى الرسوب على الاقل . والآن نتساءل : هل تستمر فى الخوض في عمليات التعلم اذا لم يكن هناك إختبار فى النهاية أو لم تكن هناك درجات ؟ الحقيقة أن علماء النفس يقولون أن هذا متوقف علي مستوي دافعيتك المتصل بذاتيتك . لأن هناك أفراد (أقلية) يرون فى الارتقاء بأنفسهم نفعا ماديا وأدبيا فى أعين هذه النفس فقط . ولا دخل للآخرين في هذا التقييم أو هذه الاثابة. ويكون الجزاء هنا خارج منها وعائد عليها فى نفس الوقت .

العمليات النفسية المرتبطة بالتعلم:

اذا سمعت أحدهم ينادى اسمك فالتفت اليه ، ثم بدأ فى محادثتك ، ولكن بلغة لم تسمعها من قبل ، ووجدت أنه يحاول جاهدا أن يفهمك ما يريد ولكنك غير قادرعلى فهمه ، فإنك فى هذه الآونه تواجه مشكلة تتعلق بالتعلم . كل ما تعرفه مما سبق وصفه ، هو أنك تعرفت على اسمك . وذلك لانك سمعته مرارا قبل هذا وتعلمته . أما باقى الوقائع ، فلا يتعدى ادراكك لها : رؤية الشخص و سماع ألفاظه . أما اذا كنت قد تعلمت الصينية من قبل ، لعرفت أنه يحاول سؤالك كيف يتجه الى قنصلية بلاده . باختصار ، أنت نجحت فى عمليتين فقط من العمليات النفسية التي تمر بها لكى تصل الى المعرفة . الاولى هى أنك أحسست (رأيت وسمعت فى هذه الحالة) والثانية هى أنك أدركت (أن هذا الفرد يحاول أن يقول شيئا ، وهذا جزء صغير من المعروض أمامك للادراك) . أما فهمك الكلي للموقف فيختلف لانك لم تتعرض لكل مفرداته .

وكما سبق لك أن عرفت ، فان العمليات النفسية الاساسية أربعة : الحس ، الادراك ، التعلم الشرطى وأخيرا الدافعية . فالحس مسئول عن استقبال الانواع الاساسية من الاثارة . ولكنه وحده لا يكفى . لأن الاحساسات ستنتظم بعد ذلك فى مجموعة مدركات ترتبط بأشياء أخرى تم ادراكها قبلا . أى أن الانسان في الحقيقة لن يدرك اذا لم يكن قد

تعلم أصلا . وتعلم معناها أنه تعرض للشيء مرة أو مرات قبل الان ، حتى يربط ما يحسه الان ويدركه بما خبره في الماضي . و ليس التعلم مدرسيا في كل الحالات ، كأن تعرف جدول الضرب ، أو تعرف المفعول به أو الفاعل ، ولكنه في كثير من الاحيان يكون تعلما عمليا ، كأن تربط حذاءك بدون تفكير ، أو أن تضع الملعقة فى فمك وليس في أنفك ، وأن تمشى وتقفز وترقى السلم . وفى كل الحالات تفعل الشيء الذي تعلمته لانك مدفوع لعمله . و هنا ندخل فى دراسة أكثر عمقا وغموضا ، وهي الشحنات النفسية المتصلة بالدافعية .

ولا يتوقف تأهبك للاستقبال ، وقيامك بمختلف الاستجابات المتصلة بما يدور حولك ، على هذه العمليات النفسية الاساسية فقط ، لأنك ستعتمد على أخريات ، كما سبق أن قرأت ، أكثر تعقيدا وأشد تركيبا. فستلجأ الى نشاط متقدم (تكتسبة بازدياد تعرضك للبيئة) وهو التعلم العام المركب . وهو نشاط معقد ، لا يكون بنفس السهولة التي ظهر بها التعلم الشرطى ولا بنفس بساطته أو سذاجته . ويتصل بهذا النوع من التعلم المركب نشاط آخر هو التذكر ، لن تفلح فى أى من أهدافك الحيوية أو الثانوية في الحياة اذا لم تكن قادرا عليه . وحيث أنك تتذكر ، فانك تعرف الاشياء (لأنك ادكتها وربطتها بمخزون ذاكرتك) ولأنك رمزت لكل شئ ، ولكل فعل ، ولكل عامل من عوامل الترقب أو التخيل أو الحلول برمز لغوي فى ذهنك ، هو فى الحقيقة ثقافة مجتمعك .

التعلم تفاعل :

يتضح لك مما سبق أنه يتعين عليك أن تقتني أشياء خاصة تساعدك فى التعلم . وأن هذه الاشياء يمكن إعادة تجميعها بحيث تنتهي فى النهاية الى التقسيمين الكبيرين الذين يميزان نفسك وهما ذكاؤك وشخصيتك . ولا تتوقف عملية تعلمك عليك كلية . لأنك تحتاج أيضا الى

أشياء يمكنك أن تتعلمها . اذن أنت أمام بيئة ومثيرات عديدة تتحرك في هذه البيئة . وهذا هو ما ستتعلمه لأنك لن تكتسب شيئا جديدا لم يتواجد فى محيطك .

يقضى الفرد معظم ساعات صحوه بين أفراد وأشياء يتفاعل معها ويتأثر بها أو يؤثر عليها . وهو كثيرا ما يلجأ الي الآخرين لكى يعبر عن وجوده داخل الحياة وعن حاجته اليهم . ويحدث العكس أيضا ، لأن الناس المحيطين به يلجأون اليه لحاجتهم اليه . أي أن الكائن الحي دائم الاتصال بمحيطه لانه كما سبق وأن قلنا ليس الا كائنا إجتماعيا ، يسعى دائما الى الاتصال بما حوله لكي يبقي نشطا متعرفا على ما يدور به ، آخذاً منه ما يلزمه ومعطيا إياه ما هو عليه .

هل عرفت الان كيف تعلمت هذا التفاعل وأنت فى مهدك لا يزيد عمرك عن ساعات ؟ لأنك صرخت أولا عندما أحسست بآلام الجوع أو البرد . فوجدت ، عن طريق الصدفة ، أن هذا التعبير عن الألم جاءك بنتيجة . لانهم اشبعوك أو أراحوك فزال توترك . وتعرفت علي طريقة توصلك الى ازالة الألم . ثم تعلمت ، عن طريق التكرار ، أنها مجدية فعلا . وبذلك استعملتها بعد هذا فى كل المواقف التي تتطلب منك الافصاح عن ألمك أو توترك (غضب ، خوف) . وتمارس بعد هذا كل العمليات المتصلة بإمكان تعلمك اذا أنت أردت أن تتعلم . وقد تخوضها كلها أو تكتفى ببعضها . أيهما أصلح وأنفع تختاره لنفسك كأسلوب للتعلم . فكلما تقدمت فى العمر وزادت قدراتك ، أو تعقدت المثيرات حولك ، كلما توصلت الى طرق أكثر تفيدك فى التعلم ، أو اساليب أخري تساعدك عليه. ولا تنسى أنك فى كل ساعات صحوك تتعلم شيئا جديدا ، حتى وإن اتصل هذا الشيء بتعلم سابق . فهل فطنت مثلا الى أنك تسير فى الشارع اليوم فلا تفكر في خطواتك أو كيف تنقل قدما تلو الاخرى لكى تتقدم ؟ هذا تعلم سابق ثبت لديك . ولكن لنقل أنك اشتريت حذاء جديدا

وأنه يؤلم أصابع قدمك أو كعبها . ستحس حينئذ أنك تمر بتعليم جديد هو طريقة مخالفة للتعلم القديم ، تساعدك على تفادى الألم . ولكن تكون أبدا نفس طريقة المشي التى تعلمتها ومارستها كل هذه السنين من العمر. أنت اذن تجرب وتخطئ ، وتكرر ، وتصلك معلومات عن خبرتك الان ، وتدعم محاولاتك السليمة الى أن تتوصل الى أحسن الطرق في المشى الجديد . هل تظن اذن أن تعلمك يتوقف ، حتي بالنسبة لابسط أنشطتك ؟

تربيتك ، أى تعلمك ، عملية ديناميكية مستمرة ، اساسها المعلومات (أى المثيرات) التى تستقبلها الآن ، وتلك التى سبق لك التعرض لها (معارفك وذاكرتك) ، ثم اساليب تفكيرك ، وميلك الى الاستزادة ، أو ما تمليه عليك ظروفك ومواقف الحياة حولك .

التعلم والنمو:

يتوقف سلوك الكائن الحى على مثيرات تحيط به توصف ببيئته ، وعوامل بيولوجية تحرك استجاباته ونموه من ناحية ، ونضجه من ناحية ثانية ثم عجزه من ناحية ثالثة ، أى أن سلامة استجاباته تواجه سلما ارتقائيا يتخذ وجهة صاعدة كلما تقدم الفرد في العمر . فيساعده ما تعلمه أو ما تعرض له من خبرات فى الدفاع عن النفس والتقدم والاستمرار علي الحياة والتغلب على المشاكل . وتبدأ هذه الاستجابات فى أول السلم بطريقة بسيطة تزداد تعقدا وتخصصا . وتتطور بالتقدم في العمر الزمني فتزداد كفاءة . ثم تستمر هذه الكفاءة مدة طويلة من العمر تبدأ بعدها في الانحدار . فتصاب العوامل البيولوجية التي تحرك أنشطته الحركية والانفعالية بالتدهور . أى أن الكائن الحى يواجه فى عملية تعلمه عواملا خارجية تتحكم فى قدراته . وكل هذه العوامل تتصل بالزمن وبالتطور . لأن الزمن في بداية المرحلة سيكون مساعدا على التقدم ، بينما هو في نصفها الثاني سيعرقله ، حيث أن خصائص

الكائن الحى تتبع قواعد التطور الحيوى البادئة بالنمو السريع الذى يتصف بالتميز الوظيفي المبكر ، والتكامل ، والتوالى . باختصار ، أنت تمر بمراحل فى عمرك تتغير أثناءها لانك تساير شيئا يتحرك الى الامام باستمرار وهو الزمن . وهذا يتقدم دائما ليفرض عليك أنت أيضا أن تتغير . ولكن تغيرك لا يأخذ نفس صفات التغير الذي يتصف بها هذا الزمن . لأن لك حدودا في النمو تتوقف في مكان ما بهذه المسطرة الزمنية ليحل محلها تفاعل من نوع آخر هو التدهور . فتفقد ما جنيته جزءا جزءا ، الى أن تتلاشى قدرتك علي الا ستمرار عبر هذه المسطرة الزمنية ، وتتوقف .

وحيث أن المجال التربوي فى علم النفس مهتم بالنمو أكثر من أى من المظاهر الاخرى للتطور ، لأنه يهمك أن تعرف كيف تغذي النفس النامية بحيث تنتهي هذه الى ثراء نفسى يفيدها ويفيد المجتمع الذى يتعامل معها. فلا تسرع في تجهيز طفل لن يتقبل ما تعطيه له ، لا لشئ الا لأنه غير مستعد لأخذه ، لأنه لم ينضج بعد . كأن تعلمه الكتابة قبل أن يمشى، أو تنتظر منه أن يدرك مفهوم الامانة ولغته لم تتطور بعد . أو تطالبه بضبط انفعالاته وهو فى الشهر السادس ولم يتوصل الى أى مراحل النضج الانفعالى بعد .

يلزمنا من الناحية التربوية التعرف على نمو تنظيمين مختلفين يتداخلان ، كل من جانب ، فى عملية التعلم التي يمر بها الكائن الحى . ونكرر عليك القول بأن هذا التعلم لا يعنى تعلمك الا كاديمى فقط ، ولكنه يعني أى ممارسة عقلية أو انفعالية تتبناها لتصير قاعدة من قواعد سلوكك العقلى والانفعالى . وهذين التنظيمين هما قدراتك العقلية (أي ذكاؤك) وانفعالاتك .

القدرات العقلية (الذكاء) :

كثيرا ما لاحظت طفلين يلعبان أو يتعاملان مع الاشياء ثم قررت فى دخيلة نفسك أنه واضح أن أحدهما أكثر ذكاء (نبيه) عن الآخر . لأنه يسرع فى حل المشاكل التي يتعرض لها أثناء اللعب (مثل اعادة ترتيب الاشيا ء بعد وقوعها أو التصرف المجدى للوصول الى أهدافه) . والحقيقة أنك بطريقتك الخاصة ، شخصت مستوي كفاءة القدرات العقلية الموازية بين الطفلين ، لانهما من سن واحدة ، ولأنك أحسست (وعندك الحق) بأنه فى مقدورك المقارنة بينهما والحكم عليهما . أما اذا ظهر ثالث يكبرهما بخمس سنوات مثلا ، فانك ستلاحظ الفرق الشاسع في مستوي الكفاءة وفى نوع العمليات وفى سرعة التصرف . وستحجم عن المقارنة لان شيئا ما بداخلك يقول لك أنه من غير السليم أن تنتظر من الاصغر أن يصل الى مستوى الاكبر ، وأنت بذلك لا تصدر حكما مفارقا بين الثلاثة . وتكون مصيبا للمرة الثانية . لأن التقدم في الزمن يكسب الكائن الحى خبرات جديدة وقوات جسمية وعقلية تجعله أقوي وأقدر . ومع ذلك فعليك أن تتذكر أنك فى سن الواحدة من العمر لست أقل ذكاء منك فى سن العشرين . لأن مستوي ذكائك لا يتغير بالعمر . والمتغير يكون النمو فقط . أى أنك حتى عندما تصبح فى سن التسعين (ولا تتذكر أسماء الاشياء التى تحسها ، أولا تحكم التصرف ، أو تقع في نفس الاخطاء التي يقع فيها الاطفال.) ستظل على نفس الذكاء الذي أنت عليه اليوم . لأن كل الافراد في التسعين سيكونون فى نفس مستواك . أى أنك محتفظ بذكائك بالنسبة لعمرك الزمنى . وهكذا نوضح لك أهمية دراسة النمو حتي تفهم تطور التعلم بالكائن الحى . والذكاء هو القدرة الكلية على السلوك الهادف والتفكير المجدي والتجاوب المؤثر مع البيئة المحيطة . وهو ايضا المقدرة على التعلم . لذلك ، فان متوسط الذكاء ، لا يشكل من الناحية التربوية نوعا خاصا من التحديات أو الاعتبارات . ولكن الفرد الذي يشذ عن المتوسط ، هو الذي يهتم به السيكولوجي

التربوى ، لأنه فى حاجة خاصة الى نوع مميز من المعاملة .

يعتبر المتخلف العقلى ومفرط الذكاء نوعين مقابلين من الشذوذ أو الانحراف عن المتوسط . وكلاهما فى حاجة الى نوع خاص من التعلم اذا كان الهدف هو الوصول الى أمثل الطرق للاستنفاع بالطاقه العقلية الكامنة بكل منهما .

وحيث أن معيار الضعف العقلي لا يعتمد علي نسبة الذكاء فحسب ، وإنما يأخذ فى الحسبان التكيف الاجتماعى والمهني والانفعالي ، فان المتخلف فى الحقيقة يتصف بالقصور التام أو الجزئى فى قدرته على العنايه بنفسه ككائن حى مستقل . لذلك نجد أنه من الضرورى توجيه العناية الخاصة فى تربيته ورعايته ، وأن هذه الضرورة إما مسئولية من يرعاه من عائلته ، أو مجتمعه الكبير الذى ينتمى اليه . فالأهوك مثلا (نسبة ذكاء ٥٠ - ٦٩ أو ٨ - ١١ سنة عمر عقلى) فرد يسيء استغلال وقت فراغه ، وهو لذلك فى حاجة الى من يشرف عليه ويوجهه الى شغل أوقات فراغه ويتعرف علي من يخالطه . وللأهوك القابلية للتعلم حتي نهاية مراحل التعليم الاولى (الابتدائية) . ولكنه لا يتمها الا وهو في سن متأخر ، لانه لن يتقدم بنفس السرعة التي سيتقدم بها زملاؤه من متوسطى الذكاء .

وحيث أن محاولاته فى التعليم المدرسى يقابلها كثير من الاحباط ، فإن الغالبية من الواقعين فى هذا المستوي من الذكاء يتركون الدراسة فى سنينها الاولي ليتجهوا الى الاعمال الروتينية التي لا تتطلب كثيرا من الذكاء . وليس الابله ، أي من كانت نسبة ذكائه ٢٥ - ٤٩ أو عمره العقلى حوالى ٦ سنوات ، بنفس حظ الاهوك . فهو فرد لا يمكنه تعلم القراءة والكتابة مع أنه يتكلم بطلاقة . ومع أنه فى إماكنه حماية نفسه من الخطر الا أنه لا يستطيع الاستمرار في الانتاج اليدوي أو العمل الروتيني طويلا . وهو لذلك معتمد كثيرا على الآخرين فى كسب العيش

وفى رعاية مصالحه . وأخيرا نجد أن المعتوه (وهو من قلت نسبة ذكائه عن ٢٥ وعمره العقلي عن ثلاث سنوات) قاصر حسيا وحركيا ، لا قدرة له على العناية بحاجاته الشخصية مثل اطعام نفسه أو ضبط تبوله وتبرزه، ولا حمايه نفسه من الخطر . وحيث أن المعتوه عاجز عن تعلم اللغة أيضا فأنه غير قادر علي التفاهم مع غيره لذلك يحتاج الى الرعاية المستمرة سواء في منزله أو فى المؤسسات الخاصة .

وبينما نجد أن المتخلف العقلى محتاج دائما الى نوع خاص من المعاملة من مجتمعه (فى تعليمه وفي توجيهه) فاننا للأسف لا نتعرف علي مفرط الذكاء ليعامل بالأسلوب الذي يكفل له الاستفادة من نسبة ذكائه المرتفعة . فرسوب اينشتاين فى امتحان القبول بمعهد الفنون التطبيقية بزيوريخ وداروين بكلية طب إدنبرة ، ثم وصف المدرسين توماس أديسون بأنه مختل العقل ، خير المؤشرات على قصور كثير من مناهج التقييم الدراسية فى التعرف علي الموهوب أو شديد الذكاء . والحقيقة أن القدرة علي الانتاج العقلي المتفوق لا تظهر ، في معظم الاحيان الا أثناء الثلاثينات أو بعدها . وهذا يشير الى أن الفرد لا يعتمد فى الواقع علي تحصيله المدرسى للوصول الى هذا التفوق ، والا لكان معظم هذا الانتاج حادث فى العشرينات من العمر .

واذا استرشدنا بقول اينشتاين « لا أقبل أن أكدس عقلى بمعلومات أجدها فى الكتب ، ولكنى أعمل على إمكان الاضافة اليها من هذه النقطة» فاننا نجد فى اسلوب التحصيل المدرسى التقليدى كثيرا من العرقلة أو الاحباط بالنسبة للفرد شديد الذكاء . لأن فى التحصيل الموقوت ، البطيء بالنسبة له ، كثير من ضياع للزمن . لذلك نجد فكرة فصول المتفوقين خير معجل للانتاج المبدع ، خاصة عندما يلغى التقيد بالسنين الأكاديمية بها . وفى كثير من البلادالغربية التي يقوم التدريس الثانوى والجامعى بها على نظام التحصيل بالفترات (اثنتان أو ثلاثة

بالعام الدراسى) يستطيع الطالب المتفوق أن يخرج من جامعته وهو في سن الثامنة عشر أو العشرين . ويتقدم بهذه الطريقة الي مرحلة الانتاج خمس سنوات على الاقل قبل الآخرين . بل وتسهل له عمليات الدافعية والانطلاق .

الاستجابات النفسية (الانفعال) :

ليست كل العوامل المتدخلة في عملية التربية عوامل عقلية (أى ذكاء). لاننا كثيرا ما نجد أفرادا شديدى الذكاء نزلاء مستديمين بالسجون وبالاصلاحيات ، أو أفراد لا يقبل سلوكهم من يحيطون بهم لأنه مخادع أو غشاش أو منافق . تفهم إذن أن الكائن الحي يتصف بشيء آخر ، غير ذكائه ، يتحكم فى الاسلوب الذي يختاره للسلوك .

يضطر الكائن الحي الى المطالبة بأشياء حيوية ، منذ ميلاده ، لا يأخذها الا من بيته ، وحيث أن هذه الاشياء مسئولة عن بقائه علي الحياة، فإنها ضرورية لتوازنه الحيوي أيضا . ومن هذه الاشياء الهواء والماء والغذاء . ولا تتوقف حاجاته عند دوافعه البيولوجية ، لأنه سوف يتعلم أن لديه أيضا مطالبا أخرى لحفظ توازنه الانفعالي (وهو غير حيوى) . لانه سيبحث عن أمنه النفسى ، عن رضا الناس عنه ، وعن الاستزادة المعرفية . أي أنه يسعى أولا الى الاستمرار حيا (وهو سعى واضح بسيط) ثم يسعى ثانيا الى التفاعل إجتماعيا (وهو معقد غير موحد الاساليب) .

تخلق الحاجات توترا يدفع الكائن الحى الى الاستجابة بطريقة تزيل أو تخفف من حدة هذا التوتر . واختيار نوع الاستجابة يتعلق بمحاولاته وأخطائه الاولى ، أو بطريقة تكراره وتدعيمه لأسلوب إشباع الحاجة ، أو بنوع المعلومات المرتدة عن الاستجابة ومدي افادتها له . باختصار : يعتمد إختياره على نوع تعلمه . نحن إذن نواجه نوع الانفعالات التي

يتعرض لها الفرد وهو ازاء إختيار سلوكه .

سبق لك أن فهمت ، عند الكلام عن الانفعال ، أنه عبارة عن تحول من حالة وجدانية الى أخرى بعد تعرض الكائن لمثير يتسبب فى تنشيط عملياته الحيوية لانها حالة التغير التى سببها المثير . وقد يكون الانفعال بسيطا و يتم تفريغه بدون أن تفطن اليه (كالانتهاء من تدخين سيجارة أو تذكر رقم تليفون) ، أو يكون عنيفا بحيث ترتبك له بعض وظائف الجسم والعقل (هرمونات وعمليات ادراك إلخ .) وهنا يدخل الانفعال طورا آخراً هو طور انهيار التوازن الداخلى للكائن الحى . ويعرف هذا الطور بالاعياء الانفعالي . وقد يكون الانفعال عنيفا أيضا وداخلا طور الاعياء الا نفعالي ومع ذلك لا يكون هداما بل على العكس مقويا بناء . ونذكر على سبيل المثال حالات الاحباط الشديدة أو المآسى التي تسبب فى تقوية شخصية بعض الافراد وتدفعهم الى القيام بأعمال بطولية أو أو خلاقة أو مبدعة . أو التي تتسبب فى ضم شمل الأسر أو فى قيام الدول بمجهود أعظم كوحدة مكتملة . ولا يقف الكائن الحى ساكنا أمام الاثارة . فاذا ارتفع ضغط المثير الى درجة الاجهاد فان للجسم خواصا تساعده على المقاومه لفترة ما الى أن تخف حدة الاثارة أو تنهار المقاومة . واذا قارنا الاجهاد الجسمي بالاجهاد الا نفعالى نجد أن الصلة فى غاية القرابة و أن متلازمة التوائم ليست معادلة غريبة على الاحداث السيكولوجية .

كيف نتعلم التكيف ؟

قد يطرأ لك أن تعلمك يتصل بكل ما هو عملى (شىء تفعله مثل الجري) أو عقلى (شئ تفكر فيه مثل الحساب أو اللغة) . ولكنك فى الحقيقه تتعلم شيئا آخرا هو كيف تنفعل ومتي تتوقف عن الانفعال . وهذا ما لا تفطن إليه لاننا نادرا ما ندرك أننا نقوم بالعملية . ومما سبق يتضح لك أن جسمك يتعلم كيف يثيرك وكيف يهبط من حدة اثارتك الناتجة عن

الانفعال . ولديك أيضا منظمة عصبية نشطة تقوم بنفس العمليات التي يقوم بها جسمك (المنظمة الفيزيقية النشطة) .

ومع أنك فهمت ، عند الكلام عن العمليات النفسية الاساسية ، أن هناك نوعا من التعلم « غير - المعقد » يسمي التعلم الشرطى ، فان مورير M owrer رأى أن كلاب بافلوف لم تتعلم اشراطيا ولكنها فى الحقيقة انفعلت اشراطيا وأن الانفعال لا يحدث فقط لتخفيف الدافع ولكنه قد يحدث لتوليد الدافع . وهذا التوليد مثلا ينتج حالة أنفعالية اسمها الخوف (من الحرمان من الطعام) ، بينما التخفيف ينتج حالة أخري اسمها الأمل (فى إنهاء الجوع) . وعليه فاننا عندما نجد أن الكلب يتعلم كيف ينفعل للضوء بدلا من الطعام ، فاننا فى الحقيقه أمام عملية سماها مورير توليد الدافع .

أى أن باستطاعتك أن تغير قوة ونوع الدفع الذي يقود انفعالك . ويمكنك أيضا أن تغير الهدف من انفعالك . وأكثر من هذا ففي مقدورك أن توجه انفعالك الى شىء لا يتصل بهذا الانفعال .

ولا يهمنا الانفعال لأنه حالة وجدانية فحسب ، ولكنه يهمنا لأنه مؤهب للسلوك . فاذا توترت لأن تستعد لاستقبال وادراك أشياء تحيط بك ، فانك تصل الى حالة اليقظة التى ستعدك للتعرف على شىء جديد . وانفعالك هنا يؤدى الي التعلم المعرفى . واذا توترت لانك شديد العطش فستسعى الى الماء أينما كان وكيفما وجدته . وانفعالك هنا يؤدى الى تخفيف دافع حيوى . أما اذا توترت لان درجة الحرارة الجوية غير محتملة وبدأت تتصبب عرقا ، فان انفعالك ادى الى قيام جسمك بمحاولة للتكيف لمحيطه. وكذلك اذا توترت لان صوت مذياع جارك يصلك عاليا وأنت تستذكر لامتحانك ، فألغت أذنك (نفسيا) الإلتفات الى الاصوات الخارجية ، بحيث استطعت أن تركز على كتبك فقط ولم تعد تحس بالاصوات التي حولك ، فانك قد نجحت فى صم سمعك لتتكيف لمطالب

الموقف الذي يخصك .

ولا يحدث هذا التكيف دائما ، أو بنفس الاسلوب لدي كل الافراد أو في كل المواقف . فاذا كنت متكيفا أو ما يسمى أحيانا متوافقا ، فانك قد ترى في الآخرين أشياء لا تعجبك ، ولكنك تقرر أنهم في مجموعهم مقبولون ، لا تؤرقك نقائصهم أو أخطاؤهم بحيث تعزلك عنهم كلية . وأنت بذلك متوافق إجتماعيا .لانك علاوة على تقبلك لهم قد ساهمت في تقبلهم لك أيضا ، لأن لديك أيضا نقائصا وأخطاء كان في الامكان أن تحول دون استمرار العلاقة بينكم .

يهمك الآن أن تعرف كيف تربي في نفسك أو في غيرك القدرة علي التكيف . عليك أن تحس وتدرك الاثارة أولا ، ثم تنفعل لها . واذا لم توافقك فانك إما تتحاشاها بالهرب منها أو تواجهها . وفي هذه المواجهة نوعان من الاحتمالات فاما أنت مقترب منها وما زالت توترك أو أنت هنا وفي نيتك أن تفعل شيئا ازاءها حتى يزول توترك تجاهها . و اذا قمت بعمل ما أو إتخذت اتجاها يتسبب في ازالة هذا التوتر فانك تكون قد تكيفت أو توافقت مع موقفك . ولا يكون هذا التكيف دائما خيرالسبل . لأن اختيارك قو يكون سيئا فتصبح سيء التوافق كأن تتبنى واحدا من الحيل الهروبية التي تساعدك على حل المشكلة الآن ولكنها تترك في لاشعورك رواسبا ستظهر آثارها المرضية فيما بعد ، اذا أنت إتجهت دائما الى نفس الاختيار أمام نفس الموقف لانك تعلمت ذلك .

الأسلم اذن أن تدرك الموقف أو الشيء الذي تواجهه ادراكا سليما تاما، كأن المدرك فرد غيرك لا دخل لعواطفه في تشويه الحقائق . ثم اذا وجدت في الموقف توتيرا لك ، فالأصلح أن تعالج حالة توترك بحيث لا تخدع نفسك بأنك وجدت حلا ، بينما أنت في الحقيقة لم تعثر الا على مخرج خلفي سيوصلك الى الحافة فقط ، ولكنه لن يبعدك عن مشكلتك كل البعد .

أهداف التربية :

تلاحظ مما سبق أن للتربية هدفان : واحد لتوجيه قدرات الطفل العقليه وامكانياتَ ذكائه ، والثاني هدفه تعريف الفرد بنوع شخصيته ثم المطلوب منه مراعاته عندما تتصرف هذه الذات إجتماعيا . والتربية عملية ديناميكية مستمرة وليس من الضروري أن يقوم بها فرد أو أفراد تجاه آخرين ، لانك بعد النضج أو أثناءه ، كثيرا ما تقوم بالعملية عاملا لحساب نفسك . ولكن الجزء الذى يهمك فى هذه المادة هو ما يطبقه فرد متخصص على افراد آخرين لادراية لهم بالموضوع . ويقع العبء فى أول سنين عمر الكائن الحي على أسرته . ثم تنتقل الوظيفة الى المدرسة، ولكن الأسرة تظل محتفظة بقسط من هذه الاعباء .

وظيفة المربى هى التأثير على تفكير وسلوك الناشئ تأثيرا منظما مدروسا . ويكون هدف هذا التأثير تغيير تفكيره وسلوكه بحيث تحقق التغيرات تقدما في معارف الناشئ وتحسينا فى أسلوب سلوكه وتعامله مع الاخرين .

تظهر أهمية المربى الامثل عند ما نجد أنه مهما تقدمت أساليب التربية وأدواتها وتوافرت فيها عناصر التطور العلمى ، فان العامل الانساني المتصل بالفرد الذي يقدم هذه الادوات والمناهج يقع فى المقدمة . لأن هذا الفرد هو الشيء الوحيد غير الآلى ، المرن ، والمتيقظ لمتطلبات المواقف الخاصة . فهو الذي يتعرف على المواهب والنقائص . وهو الذى يلمس انفعالات الناشئ ، المفيد منها وغير المفيد . وهو الذى بيده علاج كل موقف حسب ما يمليه ، ثم أخيرا يتوقف عليه تقييم التقدم بحيث يسرع اذا لمس ادراكا أسرع من المعتاد حتي لا يمل المتعلم ، أو يطبق العكس في حالة العرقلة .

بمعني أصح ، نجد أن للتربية أيضا طرفان : الاول هو المادة التى

سيتعرض لها الناشئ (علوم - أخلاق - ثقافة عامة الخ) والطرف الثاني هو ملقن هذه المادة (المربى) . وليس الملقن دائما مدرسا ، وليست المواد التربوية دائما أكاديمية (مدرسية) . لان التربية مجال واسع يقع فيه الأبوين والأخوة وكل من يحاكيهم الطفل في سنين عمره الاولي ، علاوة على المدرسين و الاقران الذين يتعامل معهم في مدارس فيما بعد . هل يخفض صوته وهو يتكلم ، وهل يستأذن قبل أن يفعل ، أو هل يعامل الغير و الحيوان والاشياء تماما كما يجب أن يعامل به هو؟ هذه هي المواد التى يتعرض لها في سنين التربية الاولي . كيف يتخاطب ويكتب ، وكيف يتحاسب ويتداول بالارقام ثم كيف يتعرف على مافي الكون المحيط به ، كلها مواد تعرضها عليه مدرسته فيما بعد . وفى هذه الاثناء أيضا ، فيما يليها من سنوات يبدأ فى تلقين نفسه أشياء أخرى هى مكونات ثقافته الخاصة . لأن لا أحد يفرض عليه بعد ذلك الميل الى القراءة ، والانتاج الفني ، أو ممارسة الرياضة ، أو خدمة مجتمعه الكبير، أو عمل الخير ، أو حب الاستكشاف الى غير ذلك من الاتجاهات التي سيظهر عليها وهو ناضج . ولكنها ستكون فى الحقيقة حصيلة لما وجده في بيئة عائلته ، ثم فى بيئة مجتمعه ، مرتكزا أصلا على دافعيته الذاتية التى تولدت فيه واستمر عليها .

بعض اضطرابات الطفولة وعلاجها

يواجه الطفل فى مراحل نموه عددا من العراقيل الخاصة بالتربية أو بالثقافة يستطيع التغلب عليها بشىء من القابلية للتعلم أو القابلية للتكيف. ولكن يحدث أحيانا أن تتسبب هذه العراقيل في ظهور أعراض على بعض النشء لا تعتبر مرضا فى حد ذاتها ، ولكنها تدل على تطور

مشكلة نفسية عند الطفل يمكن أن تصبح اضطرابا رئيسيا اذا تركت بدون علاج . وقد تتسبب فى ازمات بالمنزل أو بالمدرسة بين الناشئ وبين عائلته أو بينه وبين مدرسيه وأقرانه . ومن هذه العراقيل : اضطرابات التعلم ، اضطرابات النوم ، العادات الملازمة للتوتر الانفعالى ، ثم الكذب والسرقة والهروب . وكل أنواع الاضطرابات هذه تظهر أثناء الطفولة المتقدمة .

إضطرابات التعلم:

للتعلم المدرسى أربع مظاهر يثبت الطفل قدرته على التقدم فيهابالنسبة لسنه وبالمقارنة بزملائه . وهذه هى القدرة على القراءة (أو النطق) والكتابة والحساب والهجاء .

ويعتبر العجز فى القدرة على القراءة اشارة الى المرض أو الى سوء التوافق الانفعالى . وحيث أن القراءة من أول مناهج التعليم التي يتعرض لها الطفل ؛ فهي بالتالى أولى المواقف التي يمارس فيها استجاباته الانفعالية السلبية . فهو يقاوم القراءة حتي لا يسرع نضجه فيضيع اعتماده على والديه . أو يقاومها لكي يعبر عن تمرده على مطالبة والديه بالاعتماد على نفسه . ولعلاج هذه الحالة ، يخلق المعالج دوافعا تساعد الطفل على تقبل التقدم ، يساعده فيها الوالدان والمدرس ، هذا علاوة علي دروس خاصة فى القراءة العلاجية لا تستمر أكثر من اسابيع معدودة ، إن إحتاج الامر . ولكن يجب قبل كل شئ التأكد أولا من أن الطفل لا يقاسى من اضطراب Dyslexia، بمساعدة السيكوميتري (سيكولوجي القياس) .وهو خلل عضوي يستحيل معه العلاج النفسى ويستوجب تعليما خاصا . يليه العجز فى الحساب . وهنا ، بالاضافة الى العوامل السابقة ، نجد أن هناك إحتمال فى أن الطفل يعاني من صعوبات فى التركيز والانتباه علاوة على صعوبات فى القراءة أصلا . لذلك يتحتم أولا معالجة مقدرته على القراءة . ويليها التحقق أولا من سلامة طريقة

التدريس ثم من سلامة قدرات الطفل العقلية ثانيا للتأكد من قابليته للتقدم. وعلاج العجز فى القيام بالعمليات الحسابية يتقدم بسرعة اذا ما اكتشف فى مبادئه . لأن الطفل العاجز هنا ، اذا أهمل ، بني كل خطواته اللاحقة فى تعلم الحساب علي خطوات سابقة غير سليمة ، وبالتالى يصعب تصحيح تفكيره أو الوسائل التى ينتهجها فى الاستنتاج الحسابى .

وصعوبات النطق من أكثر مظاهر اضطرابا ت التعلم وضوحا . واذا لم تكن الصعوبة نتيجة لاختلال بتكوين الفم ، أو السمع أو لتلف نورولوجي ، فان السبب يكون دائما نفسى . والتهتهة من أولى هذه الاعراض . وتختلف مدة التعطل فى النطق عند المصاب ما بين ثواني وبضع دقائق فى الحالات الشديدة . وتختلف أعراضها أيضا تبعا للموقف الانفعالى أو الاجتماعى . فقد يتهته الطفل بشدة أمام مدرسته أو والده ، وتزول عنه الاثار مع إخوته أو أصدقائه.وتزداد التهتهة تفاقما كلما قلق الوالدان عليها بكثرة . وسببها أصلا تعطيل الوالدان لتعبير الطفل العدواني عند الاحباط . وحيث أن النطق هو التنفيس الاول للصراع عند الطفل الذي يخضع للقمع الشديد فان تشويهه يكون أولى الاستجابات العدوانية التي يقوم بها الطفل . وعليه فان العلاج يجب أن يشمل الوالدين حتي تزول الضغوط المفروضة على الطفل أولا . ويلى ذلك استعمال طريقة الاشراط السلبى فى العلاج السلوكى (وتكون هذه مهمة السيكولوجى الاكلينيكى) .

اضطرابات النوم:

أى شكل للاضطرابات فى نوم الطفل خاصة يشير بوضوح الي وجود توتر انفعالى . وأهم هذه الاشكال : التجوال الليلى ، الكابوس ، التبول اللاارادى ، الارق ، ثم النعاس .

وأسباب التجوال الليلى هى محاولة الطفل حل صراعاته بصورة رمزية (وهي دائما مرتبطة بتخيلات جنسية). وهو أحد الاضطرابات الهستيرية المرتبطة بعلاقته بوالديه . وتسبقها الأحلام عادة . وتحدث كمحاولة من جانب الطفل لازاحته أو رغبته في تطبيق محتويات الحلم بالفعل . ويستعمل فيه العلاج النفسى العميق عن طريق الممارس النفسى الاكلينيكى .

أما الكابوس ، فهو احلام مزعجة توقظ الطفل في حالة فزع أو رعب ، يستطيع بعدها معاودة النوم في العادة ، اذا ما إطمأن الى من حوله أو إدراك أنه لم يكن يعيشه حقيقة . ويستطيع الطفل دائما أن يذكر تفاصيل الكابوس عند استيقاظه . ويعاود الحلم أحيانا اذا كان متأثرا به بشدة . ويسبب الكابوس فى العادة تعرض الطفل لخبرات مولدة للتوتر أثناء اليوم ، أو معاناته لحالة انفعالية معينة متصلة بنوع من أنواع الصراع ، أو اصابة الطفل بهبوط منسوب السكر بالدم . والعلاج بطبيعة الحال يتبع طرق ازالة التوتر الانفعالى . أما فى الحالة الاخيرة فيعطى الطفل جرعات زائدة من المواد السكرية قبل النوم مباشرة أو أثناء وجبة العشاء.

والأرق من أقل الاضطرابات حدوثا في الطفولة . فيكون نتيجة للاثارة الشديدة ، أو الاكتئاب ، أو التعب الجسمي ، أو تغيير مكان النوم أو أى من الامراض العضوية . ومن الاسباب المؤدية الى الارق القلق والخوف والشعور بالذنب . ولعلاج الارق الوقتى تعالج الاسباب المؤدية اليه . أما اذا طالت فترة القلق أو توالى حدوثها أكثر من ليلة واحدة فان الدلائل تشير الى وجود سبب عضوي (ظهور الاسنان مثلا أو اقتراب اصابة الطفل بمرض أو حمى) . وهنا يستشار طبيب الطفل .

أما النعاس النهاري الذى لا يسبقة نقص فى النوم بالليل ، فهو علامة على رغبة لا شعورية فى الهروب من الواقع لسوء توافق نفسي . هذا اذا لم يكن دلالة على نقص في افراز الغدة الدرقية ، أو على التخلف العقلي. لذا يستشار الطبيب أولا لازالة إحتمال المرض العضوي ؛ فاذا تأكد ذلك عولجت المسببات النفسية .

وأخيرا ؛ فان التبول الليلى اللاارادى يعتبر اكثر اضطرابات النوم اقلاقا للآباء ، لاتصاله بنظافة الطفل ومكان نومه ، مع أن قلقهم يجب أن يوجه الى ماهو أهم ، وهو احتمال وجود سبب عضوى أولا يمكن للطبيب التعرف عليه ، أو أن هذا التبول يشير الى كراهية الطفل لوالديه أو لأحدهم من ناحية (حيث يعتبر تنفيسا لاحساساته العدوانية نحوهم)، ومن ناحية أخري يكون مرتبطا بازاحة تخيلات جنسية مكبوتة . وعلاجه يتصل أولا بازالة التوتر الانفعالى الذى يكمن خلف الاضطراب ، ثم استعمال طريقة الاشراط الايجابى في العلاج السلوكي اذا لم يكن فى ازالة التوتر أولا أية فائدة . وتكون هذه مهمة الممارس الاكلينيكي .

العادات الملازمه للتوتر الانفعالى:

كثيراً ما يجد الطفل (أو البالغ) حركة أو شيئا يفعله وهو متوتر ، ثم يلجأ الى هذا الشيء أو هذه الحركة كلما توتر وتصبح عنده عادة ، يظن أنها تنفس عن ضيقه أو تحد من توتره .

ومن هذه العادات الخلجات العصبية . وهي عبارة عن تقلصات عضلية فى الوجه أو الرقبة أو الكتف أو جفون العين ، ارادية أو لا ارادية . وتعالج بالعلاج النفسى المساند حيث أن التوترات العصبية المسببة لها تستجيب استجابة ناجحة فى معظم الاحيان للاقناع والايحاء .

ويلي الخلجات في الاهمية مص الابهام وقضم الاظافر ولعق الشفاه في العادات الملازمه للتوتر الانفعالي . ومص الابهام يشير الي حاجات فمية معتمدة ، تجيء نتيجة لرضاعة مبتورة ، أو شعور بالاهمال أو شعور بالتهديد وعدم الاطمئنان أو فقدان العطف والمحبة . أما قضم الاظافر ففيه عقاب النفس وهو في الحقيقة تعبير عن كراهية الذات كارتداد للشعور بكراهية آخرين (الاب مثلا) . وهنا كثيراً ما ينجح العلاج النفسي المساند (اقناع الطفل بأهميته وطمأنته على أمنه الجسمي واستقراره النفسي) بالاضافة الى العلاج البيئي أي الاجتماعي ، ويتصل بتصحيح أساليب الكبار في المعاملة من ارهاب للطفل أو تهديد لكيانه النفسي أو لكيان العائلة الفيزيقي .

الكذب والسرقة والهروب :

تظهر هذه الاضطرابات مبكرة في الطفولة المتقدمة ، وتستمر طويلا بعدها إن لم تعالج في البداية . وتكون تعبيرا عن الكراهية والعدوان والتمرد علي التسلط . هذا اذا كان سببها هو إهمال أو سوء معاملة أو تفكك العائلة . وعلاجها سهل في هذه الحالة ، وهو إما بيئي أو بالارشاد والايحاء أو بالاستبصار . أما اذا لم تكن للظواهر أصول إنفعالية عدوانية تجاه السلطة المباشرة للطفل (أبويه أو جده أو مدرسيه) فان الدلائل تشير في العادة الي بداية خطيرة لظهور شخصية سوسيوباتية أو سيكوباتية . ويكون علاجها إكلينيكي طويل شاق .

الافراط في العادة السرية :

وهي أقل الاضطرابات قسطا من تفهم الاهل والمجتمع . وسبب الافراط في ممارستها هو التخفيف من الشعور بعدم الكفاءة أو الحرمان الانفعالي . أو أحيانا قليلة جدا يكون سببها ميول جنسية مثلية كامنة ،

وهذه لا توضح الا عند المراهقة بوجود العوامل المساعدة فقط . ولا يعتبر الناشئ مضطربا اذا مارسها من وقت لآخر ، ولكنها تصبح مؤشرا مرضيا اذا أفرط فيها وصارت ضرورة قسرية . وهنا تجب مشورة المعالج النفسى .

المرض العقلى في الطفولة :

كل ما سبق وصف لاضطرابات نفسية (سطحية) تظهر علي الطفل لانه يعاني من قلق أو صراع تولده بيئته . ولكن تظهر ، أحيانا قليلة جدا، إ ضطرابات عقلية (عميقة) تكون مؤشراتها غير واضحة فى البداية لتبدأ فى الوضوح بعد ا لخامسة من العمر ، وهي مرحلة التطبيع الاجتماعى فى الطفولة .

الانسحاب وسيلة الطفل الوحيدة عند ا لخوف أو عند التوجس أو عند الانهزام . فهو يخفى وجهه أو يجري الى حجرته أو يختفى وراء أمه أو الستائر عندما يهدد أو يحزن . ولكن بعض الاطفال (قله ضئيلة) ينسحبون إجتماعيا طوال الوقت ، فلا يريدون التكلم أو التعلم أو الاختلاط . ويسمي هذا العرض autism وشفاؤه نادر لأنه يتمخض عن شخصية فصامية (الفت حقى ، ١٩٩٥) .

للطفل حقوق تربوية

لا يجب أن يضار طفل لانه ولد . وسواء كان ميلاده مرغوبا فيه أو لم يكن فان للطفل على أى أرض حقوقا تنص عليها كل الاديان وتتعارف

عليها كل المجتمعات وتتمسك بتطبيقها كل القوانين المدنية .

ولكننا قليلا ما نجد مواقفا تستدعى تذكير الكبار بهذه القواعد الاساسية فى تربية الصغار ، لأن معظم الاهل ينجبون أطفالا رغبوا فى إنجابهم . وهم بذلك يحيطونهم بالمحبة والامان ، ويحرصون على نموهم فى جو عائلى يسعدهم ويهيئ لهم الاستمرار فى حياة تكتنفها المتابعة الصحيحة السليمة وتحيط بها كل سبل الامان والوقاية والحرص على حياة صغارهم . ولذلك أسميناهم «فلذات أكبادنا » .

الطفل أعزل . وهو أيضا عاجز فى بداية حياته لانه يعتمد علي الآخرين تماما فى كل شيء يمس استمراره على الحياة . وقايته من الحرمان والموت أولا ثم من الاذى ثانيا تقع على عاتق المربى . ومهمة من يربى صغير ناشئ تتطور بالتسليقة فى كثير من الاحوال . ومع ذلك فقد يكون المربى صغير السن (عند الزواج المبكر) ، أو يكون قليل الخبرة (لأن هذا هو مولوده الاول) ، أو يكون تواقا لممارسة الاحسن فى أنظمة التربية . ويصبح فيما يلى من ارشاد إثراء لمعلوماته أو اضافة الى خبراته النظرية على الاقل .

راشد يدير حياة طفل

(الفت حقى ، ١٩٩٥)

حب الراشد للطفل وحبه لرعايته هو مفتاح عالم السعادة للطفل ولأهله على السواء . فلا يمكن لراشد كاره ، أو لراشد فى عجلة ، أو لراشد أنانى أن يسدى خدمات تربوية ذات قيمة . ولسوء الحظ نجد أن بالعالم شريحة من أهل يقتنون أبناء اذا فحص عالم النفسى الصغير (المحاط بالإهمال أو الفظاظة أو الاساءة) إنتفت اهليتهم لإبقاء هؤلاء الابناء فى كنفهم . ويحدث فى كثير من بلاد العالم أن يحرم أهل من

الاستمرار فى استبقاء ابنائهم البيولوجين لانهم راشدون لا يليقون بالأبوه. ولن نناقش هنا طويلا المظاهر السلوكية التي تخول للمجتمع سحب الاطفال من آبائهم ، إلا أنها تسرد باقتضاب . تعانى كل دول العالم ، بما فيها النامية والمتقدمة ، من إهمال بعض الآباء (كترك صغارهم بدون جليس لمدة طويلة مثلا) ، أو من الاساءة الى أطفالهم child abuse ، أو من عقابهم بدنيا corporal punishment كثيرا وبدون داع . وقد يحرم الاهل أطفالهم من حقوقهم الاساسية فى الحياة (كالغذاء السليم الذي يتناوله الأهل ويضنون به على صغارهم ، أو الكساء المناسب ، أو الحق فى التعليم الاساسى ، أو الحق فى اللعب بدلا من العمالة المأجورة لكل انواع العمل المرهق أو المحقر أو المؤذى).

صفة المحبة اذن أول شرط لتربية الطفل . وهي تلقائية . لذلك لا يمكننا فى كل الاحوال أن نقول أنها تكتسب ، ولكنه بالاماكن فقدها . وعالم الحيوان يزخر بالامثلة المدعمة لقوة غريزة الامومة المعطية الحنون من جهة والشرسة عند الدفاع عن الصغار من جهة أخرى . ويتساوى فى اقتنائها الاناث والذكور فى كثير من فصائل الحيوان ، تماما كما يحدث فى عائلات البشر .

تسخير الوقت :

كيف يفهم الطفل الجاهل أن من يراعاه يحبه ؟ هو جاهل فعلا ولكنه حساس ، شديد الحساسية ، لنوع العاطفة التى يقدمها له من يواجهه . نبرة الصوت ونغمته وقوته ، كلها بدايات عالمه التى تؤدى بالطفل الى استنتاج ما يخص هذا الصوت من بطانة وجدانية . ويكفينا ادراك فعالية تغيير الام لخصائص صوتها اذا كان هدفها هو عقاب الطفل أو إيقافه عند حده فى سنته الاولى (واللغة مازالت عائقا بالاتصال) . الجود على الطفل بدقائق كل ساعة ، يتناول أثناءها جرعة صغيرة من البث العطوف لأي جملة أو ترنيمة تعتبر أول رصيد لتعريفه بأنه محبوب . ثم معاملته

برفق وبدون عجلة حتى وإن إبتل أو تبرز أو تقيأ ، أو إن صحا في منتصف الليل ، عنصر حسى آخر يضيف الي رصيده في اليقين من أنه محبوب .

أن يتوقف الراشد من حين لآخر ، ليعطى الطفل الصغير بعضا من وقته الذى لا يشاركه فيه شيء أو أحد ، استثمار جيد لطريقة حياة تستمر بنفس الاسلوب عندما يشب ويتعامل مع الآخرين ثم مع أطفاله . وهذه الوقفة ، قصيرة كانت أم طويلة ، لا تنتهي ممارستها عندما يتقدم الطفل في العمر . فليس فضولا أو تعديا أن يطرق الوالد باب إبنه فيما بعد ليتزاورا لدقائق ، أو ليستفهم اذا كان كل شيء على ما يرام بالمذاكرة أو مع الاصدقاء . فالاطفال الذين يطالبون بالاختفاء لساعات ، وكأنه يسعد ذويهم أن يغيبوا عن أنظارهم أو يريحهم ألا تسمع أصواتهم ، هؤلاء هم الاطفال الذين يفتقدون الاحساس بالانتماء والمحبة. وتقوم اتجاهاتهم في السلوك بعد ذلك على اساس أن كل فرد وشأنه ، وأن الاهتمام الاوحد هو الذات وأن لا أحد يهمه الآخر .

بعض الوقت مع الطفل اذن رصيد تتضاعف فوائده بمرور الزمن . ويصبح من اقتصاديات التربية السليمة من كل الاوجهه . فهو استثمار بالآونة ذاتها ، لانه سيقرب ما بين الطفل والراشد . وهو تأمين لما بعد ، عندما يطمئن الطفل الى وجود « كبير » يمكن اللجوء اليه عند مواجهة صعوبة أو خوف ، لانه ضمن أن هذا الكبير لن يبخل عليه بالوقت للانصات والمشاورة ، وأنه لن يرده على أعقابه مخذولا أو محروما من الاهتمام .

الاثابة قبل العقاب:

يقع الطفل في أخطاء لابد منها . ويكون سببها الاول في العادة هو جهله . لانه لم يولد ملما بما هو سليم وما هوغير سليم . بل والمامه لن

يتم الا بعد أشواط طويلة مضنية من التعلم . من حقه اذن أن يخطئ ، ففي أخطائه مواد تعلم أيضا . لذلك يصبح للخطأ وزن تربوي خاص . فاذا أخطأ الطفل فصوب ، ثم كرر ذات الخطأ مرات ولم يكن متخلفا عقليا ، فان مؤشر التحدى واضح فى هذه الحالة . هل أخفق المربى فى توصيل المعلومة الصحيحة ، أم أنه أهمل اثابة الطفل عندما صحح خطأه فى أول مرة ؟ ولنأخذ كمثال هنا إطاحة الصغير لاشياء مرتبة على منضدة . فهو عندما يفعلها لأول مرة (لأنها طريقته للاستكشاف) تكون مغامرة يتلذذ من الخوض فيها . إلا أن سعادته هذه سرعان ما تقابل بالعقاب ، إما بالضرب أو بالنهر أو بالنفى الى مكان بعيد آخر . ولن يفهم هو حقيقة الانقلاب العاطفى الذى هوجم به . ولو أن المربى ، فى ذات الدقيقة ، شارك الطفل فى ارجاع الاشياء الى أماكنها الاصلية ، ثم ربت على رأسه أو قبله ، لانه فى هذه المرة أنجز عملا يثاب عليه ، فان المربى فى هذه الحالة لم يضيع فرصته الثمينة فى استثمار الخطأ بتوصيله الى موقف إثابة يتعلم الطفل عن طريقه الاحجام عن الوقوع فى نفس الخطأ مرة ثانية .

العقاب وسيلة ضرورية للتصحيح فى مواقف قليلة جدا . فالمربى الذى يتخذ العقاب منهجا عاما لكل أنواع الاخطاء التى يقترفها الطفل هو فى الواقع فرد ضعيف الارادة قليل الصبر والحيلة . فالعقاب أقصر الطرق الى تعديل السلوك ، ولكنه أقل الطرق جدوى فى الحقيقة . فعندما ينال الصغير عقابا ، أيا كانت شدته ، فانه يرصده على أنه عدائية . وهو على حق ، لأن فى عقاب الصغار دائما قسط من الكراهية، خاصة عندما يكونون دون الخامسة أو السادسة .

تقدير الطفل لذاته :

وكما أن فى العقاب أذى نفسيا دائما وأذى جسميا أحيانا ، فإن له عواقبا أخرى هي خفض تقدير الطفل لذاته فى كل مره ينال فيها عقابا .

ولا يعنى هذا أن الصغير ملاك دائما ، ولكنه يعني أنه معرض لعدم الفهم ولسوء التقدير لانه قاصر متخلف البصيرة ، وهو لذلك فى حاجة الى الارشاد فى كل ما يفعله بدون استثناء في سنوات عمره الاولى .

ومن مظاهر عدم فهمه وسوء تقديره أن يظن بأنه قادر على القيام بأى شىء وكل شئ يتراءى له الان . وفى الرشد يسمي الاضطراب « نزوة طارئة » أما فى الطفولة فان هذا السلوك يسمى « التلقائية » أو sponta-neity . ولا يكون اضطرابا لان الطفل فى سنواته الاولي لا يعرف اسلوبا غيره ، فهو لذلك فى حاجة الى مشرف طوال صحوه . ولا يحتاج المشرف المدرك لمسئوليته الى أكثر من الملاحظة الدائمة للصغير . فهو اذا ما لقنه أوامرا ناهية طوال الوقت ، أو حد من حريته فى الحركة أو فى إختيار لعبته أو فى اصدار شىء من الصوت ، فانه أكد للطفل قصوره وعدم قدرته على الأستقلال independance أو الاعتماد على نفسه self - reliance سواء فى التفكير أو فى الاستنتاج أو فى الاختيار. وكثيرا ما يكون هذا هو الاسلوب الاوتوقراطى في تربيتنا الشرقية لاطفالنا . وعادة ما يتسبب هذا المنهج المتسلط (فى بداية حياة الطفل) في توليد الاعتمادية لديه ، وفى تأجيل نضجه العملى ، وفى تقديره لذاته.

اذا فهم المربى أن للطفل ذات يحبها لانها إحدى مقتنياته القليلة جدا ، فانه لن يخطئ تقدير حقوق الطفل النفسية . فالصغير فى حاجة الى الاطراء والتشجيع على القيام باشياء تسعده ولا تضره . وهو فى حاجة نفسية شديدة الى الاحساس بأنه قادر على إنجاز شىء بمفرده . فهو يبعد الآخرين اذا كان بصدد تركيب لعبة مثلا لأن بداخله رغبة فى أن تنتهى محاولاته بأن يتم شيئا بمفرده . واذا نجح ، فعلى المشاهد أن يغرق الطفل بالتقدير والاعجاب بما أنجز ، وفى هذا رفع لتقديره لذاته الصغيرة . أما اذا أخفق ، وهو ما يحدث فى معظم الحالات عند بداية كل مرحلة ارتقائية ، فان على من يباشره أن يهون عليه إخفاقه وأن يحثه على الاستمرار . ويكون بذلك قد أرسى واحدة من القواعد الاولى

للصحة النفسية السليمة : أن يتعلم من أخطائه ، و أن يكافح لتخطى العقبات .

رفع الدافعية للانجاز المثمر:

وننتقل بهذا الى الشطر الآخر من تقدير الذات ، وهو ما يخص المادة التى ستؤدى الى هذا التقدير . كيف يحس الطفل بأن له شأنا اذا لم يكن لديه شىء مادى (أو معنوي) يثبت له أنه استطاع أن يتفوق الان على ما كان عليه عن ذي قبل ؟

أمام المربى عدد كبير من العروض يختار من بينها أو يختارها كلها . أولها يخص الاشياء الملموسة التي يمكن للصغير أن يتعامل معها بسهولة وأمان ، وهى لعبه . وأولا وقبل كل شىء ، على المربى أن يختار لعبا لا يمكن للصغير أن يبتلعها ، وألا تكون الوانها غير ثابتة فيتسمم بالرصاص (الذى يؤدى الى التخلف العقلى) ، وأن تكون كل أطرافها غير حادة أو مدببة حتى لا تتسبب فى اذاه . ومع أن هذه القواعد بديهية عند إختيار لعب الاطفال ، إلا أن هناك إحتمال فى أن يشتريها له أخ أو قريب أو مربية ليسوا على دراية كافية بمتطلبات أمانه وصحته .

ارتفاع ثمن لعبة الطفل ليس دليلا على صلاحيتها المتميزة في رفع دافعيته للاستكشاف وللانجاز . فالاهم فى كل الحالات هو مدى قدرة اللعبة على توظيف قدرات الطفل الادراكية وتمييزه . فعدد من الاكواب المرنة (الغير قابلة للكسر) المتعددة الاحجام والألوان تعلم الصغير التمييز والتركيب . أو عدد من المكعبات الآمنة تعلمه البناء والهدم واعادة البناء بمواد لا يمكنه أن يبتلعها . وكذلك الصلصال غير سام الخامة أو الألوان ، وهو ما يعد خصيصا اليوم من عجين الدقيق المطهى المطاوع play dow ، الذى توافق عليه الدوائر الصحية الدولية ، والذى يمكن للأم أن تعده أيضا بالمنزل .

الطفل فى حاجة ماسة الي فعل شيء طوال الوقت . وكلما تقدم في العمر شهرا تغيرت حاجته وتصاعدت مطالب ذكائه للاصعب والاكثر تعقيدا . فاذا استمر الكبار فى عرض نفس اللعب بينما أتقن الطفل الانتهاء من متطلبات إنجازها فى وقت أقصر وبدون أخطاء ، فان الكبار فى هذه الحالة يفرضون عليه الملل . وهو لن يلتفت اليها بعد ذلك ، وسيستاء من مجرد اقتراحهم لها .

التغيير والحركة من متطلبات الدا فعية للتقدم الارتقائي في التفكير والتخيل والانجاز . ففى سنته الثالثة مثلا ، يمكن للمربي أن يقرأ للطفل قصة مصورة مرات عديدة ولا يصيبه الملل . إلا أنه فى عامه الرابع أو الخامس يتبني ميلا قويا للتجديد وعدم تقبل الاعادة . ويتحدد هذا الميل بوضوح شديد عند دخوله المدرسة . فهو يتنقل بين اللعب المطروحة، ويدخل فى منافسات جديدة ، ولن يعيد قراءة القصة مرتين، واذا شرحت المدرسة أو المدرس شيئا أكثر من مرة (مع أنه فهمه) فانه سيجد شيئا آخراً يفكر فيه أو يفعله الى أن تنتهى الجرعة المملة . وهنا تظهر بوادر المشاكسة disruption التي تعاني منها الفصول المدرسية التي تختلط وتتفاوت فيها قدرات الاطفال ، بحيث تتسبب في معاناة سريعي التحصيل superior achievers ومن هم دون المتوسط (تماما كما حدث لاسحق ينوتون وألبرت أينشتاين) .

علاج هذه الحالات ، بالرغم من اكتظاظ الفصول الدراسية ، يقع على عاتق المدرس الجيد . فاذا وجد مجموعة من سريعى التحصيل فان عليه أن يستثمر قدراتهم لمصلحتهم الشخصية أو لمصلحة الجماعة . فهو إما يفرض عليهم قراءات أكثر تقدما وتعقيدا (أثناء الفصل الدراسى) أو يعينهم كمعاونين للمدرس فى حلقات صغيرة تسهل شرح الصعب لمن يعانون من ضعف التحصيل . ويثيبهم المنهج لانه يرفع من قيمة قدرتهم ويشغل وقتهم فى عمل بناء يشبع قياديتهم

ويستثمر تفوقهم .

وفى كل الاوقات ، منذ الطفولة وحتي الرشد ، لا يصح أن يعانى الناشئ من الفراغ . فقتل الوقت من أسوأ المعجلات بالاستهتار بقدر الذات وقدر الحياة . وينتهى الامر بأن ينحدر الناشئ الى التفاهة أو الانحراف أو الحقارة أو الانعزال . ونرجع الى الاشارات الاولى بصدد تربية الصغير ، لنذكر أن المربى اذا كان قد أعطى الطفل الفرصة منذ البداية للعب ينبه قدراته العقلية ، ولم يأمره بالاستكانة الدائمة ، وشجعه على الاستكشاف ، وأثاب إنجازاته السليمة مهما ضؤلت ، فالطفل فرد لن يعاني من الفراغ فى أى وقت . وذلك لا ن شخصيته شبت على حسن استثمار الوقت وأجادة الاستنفاع بقدراته ، بل ويخلق بنفسه ما يهتم به وما يثري يومه .

العنايه بالمعلومات:

عالمنا ملئ بالاشياء ومكتظ بمعلومات عنها . ومع أن الطفل يولد مفلس المعلومات إلا أن استعداده شديد الخصوبة للاستقبال (الفت حقي ، ١٩٧٩) ، خاصة أثناء سنوات عمره المبكرة . ويعتمد الخزن المعرفى على ثقافة مجتمع الطفل . فهو نادراً ما يصل الى معلومات ذات بال لأنه أكتشفها بنفسه . وهو لذلك عبد لمجتمعه . وبما أن المجتمع أقدم من الناشئ الفج فإن ثراء ثقافته هو المعيار الاوحد لما سيتلقاه الصغير من معلومات . والمجتمع هنا يشير الى اسرته أولا ثم الى مدرسته ثم وطنه .

ليست كل المعلومات دراسية . فالسنوات الاولي فى كنف العائلة تسودها معلومات أخلاقية واجتماعية ودينية وعملية . وكلها رهن بما تلقاه الاهل قبل الطفل . لذلك يحتمل أن يتم الافلاس فى حياة الطفل منذ البداية ، لان عائلته فقيرة المعلومات ، ومدرسته (إن هو انتظم بها فعلا)

تفتقر الى الكتب أو المدرسين الاكفاء ، ووسائل الاعلام التى تحيط به لا تبث إلا الاغنيات البلهاء والقصص التافهة ، وتنسى بث مبادئ المعلومات المثرية لمعارف الطفل . وهذه المبادئ ، ذات الامكانيات الضخمة فى فتح آفاق الطفل المعرفية ، هي المحك الحضاري الذى تقاس به الأمم ثقافيا . فليست لكل أطفال العالم فرص التعرف السليم على قواعد الصحة والاخلاق والامان ، أو التعرف على ما بالكون من مخلوقات وأشياء وأحداث .

الوقاية التي يشار اليها في هذا المجال ، هي وقاية الطفل من الجهل . والكلام عن الطفل لا يتستثنى إناث الاطفال ، فالطفل فى كل ما سبق وما سيلى هو الولد والبنت سواء . بل اذا نحن أحسنا إختيار الجنس الذى يجب علينا إتقان تعليمه لوجدنا أنه جنس الاناث ، لانه مربى الاجيال التالية من الجنسين ، سواء فى المنزل أو بالمدرسة . لذلك تتخلف الدول «النامية » التي تضع الفتاة فى مصاف الدواب ، فتحرمها من التعليم وتسخرها للعمل مدفوع الأجر فقط أو للعمل الاجباري بالمنزل والحقل . وبذلك تجد الفتاة الصغيرة ، منذ قدرتها على القيام بأى عمل يذكر ، أنها ولدت لتعمل . ولن تعرف معني الطفولة أو مذاق اللعب والتعلم .

ويستمر شأن المجتمع في العناية بالمعلومات مثريا أو مجحفا فى حق الراشدين تماما كما كان مع الاطفال . وتقاسى الدول النامية بالذات من هذا الحال ، لان من يستعمرونها أو من يرأسونها لا يهتمون برفع مستويات الثقافة والمعارف بها . وتصبح القوة أهم من الجودة . فنرى رئيس دولة مثلا يتعمد اختيار وزرائه من الأميين حتى يضمن طاعتهم (كرئيس أو غندا السابق) ، أو رؤساء أخر يولعون بجيوشهم وأسلحتهم ولا يعيرون المدنيين قسطا من الجهد للتقدم في المعلومات مع الركب الحضاري السريع . هذا بالاضافة الي أن بعض الدول المتقدمة تري كسبا فى إضعاف الاخريات ، لابقائها في رهط التخلف الثقافى .

المعلومات في يومنا هذا أصبحت مفتوحة القنوات . فلم تعد هناك عراقيل تذكر أمام ساع وراءها ، الهم الا التكلفة فى البلاد ذات الاقتصاد البسيط أو ذات الاقتصاد المعوز . لان طالب العلم في أي بلد متقدم اليوم يستطيع ، بدون مقابل ، الجلوس الى الكمبيوتر فى المكتبة العامة أو فى مدرسته ، ليستطلع آخر المعلومات عن أى موضوع يشاء، ثم ليطلب ما نشر عنه في السنة التي يحددها أو تحت العنوان الذي يراه. وبذلك أصبحت المعلومات مشاعا بين الناس ، أو بصحيح القول : لمن يريدها .

هل يتطلع الطفل أو الراشد الى هذه الاستزادة ؟ هل يسهل له مجتمعه هذه الخدمات ؟ هل لقن الصغير القدرة على الاستكشاف لكي يمارس حقوقه هذه ؟ الاجابات هى معايير التربية ومعايير الثقافة السائدة .

ملء الفراغ إيجابيا :

كثيرا ما يجد الانسان نفسه في فسحة من الوقت ولا شيئا أمامه يفعله أو لا واجبا عليه أن يقضيه . هذا هو الفراغ . وفى الرشد ، عندما يعمل الفرد جسميا أو ينتج ذهنيا لما يقارب ثلث ساعات يومه ، يكون للفراغ وقع مريح ، لان الفرد يلتقط انفاسه أثناءه . وكثيرا ما يجد الانسان النشط أن ملء هذا الفراغ ، بقراءة الصحف أو الكتب أو الاستماع الى الموسيقى أو مشاهدة ما يسليه ، يثريه معرفيا أو يريحه نفسيا .

وحيث أن الكلام عن الوقاية فى هذا المكان يخص الطفل ، فان وقايته مما يصاحب الفراغ والملل من أفكار وسلوك قد تصبح منهجه فى الحياة فيما بعد . وغني عن الذكر أن أوقات فراغه فى سنواته الاولى هي كل ساعات يومه ، اذا لم يوظف الكبار قدراته . فهو لم يندرج بعد في مدرسة تشغله بالمعلومات الجديدة وبالواجبات الخارجية المعضدة لها . كيف

يساعده الراشد اذن على شغل فراغه ؟ عندما يتقن الطفل الجلوس فى سنته الاولى ، يصبح من الأجدى تربويا أن يرافق من يقوم برعايته قدر المستطاع . لأنه بما يقتنيه من فضول دائم ، سيتعلم الكثير من الاشياء والكلمات ، خاصة اذا تحدث معه من يصاحبه وشرح له (كلما أمكن) ما يفيده معرفيا ، حتي وإن لم يكن قد بدأ الكلام فعلاً. وتكون هذه هى بداية تشجيعه على التعلم ، بدلا من حبسه فى غرفة أخرى اختزا لا للمجهود أو هروبا من العبء . وكثيرا ما تقوم الاخت الاكبر بنفس المهمة . وينال الطفل بذلك بوادراً إيجابية لنمط سلوكى مؤيد لشغل الفراغ ، ويبدأ بها طريقه المكتظ بالامكانيات .

وعند نهاية مرحلة فك المركزية decentration عند الطفل ، يلتقى الصغير عقليا بالافراد وبالاشياء (Piaget , 1965) . ويظل يطارد التغير فى كل شئ يحدث حوله (الفث حقى ، ١٩٨٦) لأن الاشياء التي كانت غريبة غامضة تصير الآن ثوابتا أكثر وضوحا بحلول عامه الثانى . وتبدأ رحلة المعارف لأن من يديرون حياته يقظون ، ولانه تعلم كيف يستجيب للمنبهات . وهنا يتدخل المربى بتقديم ما يشبع هذا التنبيه وما يصاحبه من نهم لا يشبع .

الأدوات البناءة ليست دائما مكلفة ، كما سبق أن قيل . فشغل فراغ الطفل بأوراق يصنع منها أشياء ، أو بألوان (خالية السمية) يخلق منها عالما جذابا ، أو باعطائه فرصه التسلق والتزحلق كلها تمرينات لن تضره كما تظن الأم ، طالما اتبعت محاذير الامان في كل ما يقوم به الطفل . هذا من ناحية نشاط الطفل ذاته ، لأنه بمجرد اجتماعه بأطفال أخر ، سواء بمنزله أو خارجه أو بالحضانة ، فان شغل الوقت يأخذ وجهة أخرى هي الانجاز الجماعي . وبهذا يتعلم الطفل المشاركة والمنافسة النظيفة . ويكون قد انتقل بذلك الى نوعين مختلفين تماما من ملء فراغه . نوع يقوم به بمفرده ، وهو الآن غير موجه تقريبا ، لأنه يعرف

الآن الى ما يميل وماذا يتقن . والنوع الثاني يضطر اثناءه الى قبول توجيه الكبار أو الصغار أو حكمهم ، ويذعن معظم الوقت للجماعة التي تشاركه وقته فى هذه الآونة .

إهتمام الكبار فى حياة الطفل بما يحرك نشاطه فى الاتجاه السليم ، وبالمواد البسيطة التى تشبع حبه للاستطلاع وللخلق وللتجديد ، مهما ضؤلت نسبها الارتقائية ، كلها مظاهر لادارة جيدة توجه الطفل الى أهداف بعيدة المدي . بل وعمقها لا يظهر أثره في الحال ، ولكنها - تربويا - تظل إدارة ذات جدوي مدي الحياة ، لأن قواعدها لن تفارق منهج الطفل في الحياة كلما تقدم فى العمر .

التطويع الاساسى فى الطفولة

الطفل كائن شديد الإعتماد على الكبار اثناء السنوات الاولي من حياته. وفى ظل هذا العجز الشامل ، يجد نفسه محتاجا لمن يطعمه ومن يحركه ومن ينظفه ومن يلقنه ماذا يفعل ومتى يفعله . وهو بذلك طوع ما يختاره الكبار له ورهن مشيئتهم . ثم يتعلم التحرك تلقائيا ، ويمارس الاستكشاف واستطلاع ما في بيئته بدون معاونة للمرة الاولى . ويتقدم بعد ذلك سريعا فى كل الاتجاهات ليتمتع بالاستقلالية تدريجيا الى أن يصل الي مرحلة الاعتماد على نفسه في معظم الوظائف اليومية الاساسية وهو يقترب من نهاية العقد الاول من عمره ، فيمكنه أن يبقى بمفرده ، بدون جليس ، فيعد طعامه وينظف مكانه ويشتري ما يحتاجه وينتقل الى مكان آخر بدون صعوبة تذكر .

مرحلة ما قبل الاستقلال إذن هى موطن التطويع الأوحد فى حياة

الطفــل . لانه سريعا ما يتمرد على الائتمــار بعــدها ، ســواء كانت الاوامر توجيها محفزا لقبولها لانها قدمت باسلوب متستساغ جذاب ، أو توجيها لا يترك مجالا لغير الطاعة . والراشد الذكى يدرك أن الادارة الحكيمة لحياة الطفل تتطلب منه الاهتمام المبكر بغرس ما يراه ضروريا لتنشئة سليمة . فالطفل لن يكون طوع ارشاداته لأكثر من أعوامه التي يقضيها كاملة بالمنزل . وبعدها تختلط مصادر الارشاد ، حتي وإن إنتمى الثقل الاكبر لموازينه الاساسية الى المنزل . لذلك ينتهز الراشد فرصة انفراده بالطفل فى هذه السنوات الاولى ، فيغذي شخصيته النامية بالقواعد والأصول الاجتماعية والدينية والأخلاقية باستفاضة وتوضيح لا يختزل . فوقت التخاطب والاتصال بينهما عند بدء المدرسة ، أو عند عودة راعيه الى العمل سيكون شديد الاختصار ، لان حياتهما ستكون أكثر شحنا بالمطالب والمتاعب والالحاحات .

الآخرون أولا :-

الطفل الوليد أناني لأنه فى الحقيقة لا يعرف الا نفسه الآن . ويظل أنانيا اذا ساعده الكبار على الاحتفاظ بالصفة . فقد يكون الطفل الاكبر أو الاصغر ، أو ذكرا أوحداً بين إخوة إناث ، أو عكس الحالة . وينال من كبار العائلة شكلا خاصا من المعاملة هى فى حد ذاتها تمييز بين الادوار يؤدى حتما الى اكتساب صاحب الدور المتميزخصوصيته ، سيئة النتائج تربويا واجتماعيا .

لذلك ، سواء كان الطفل وحيد أبويه ، أو كان أحسن إخوته من كل الاوجه ، فان الواجب التربوي الاول إزاءه هو عدم اشعاره بالتفضيل أولا . ولا يعني ذلك إهماله أو الإقلال من شأنه ، ولكنه يعنى أن هذا الطفل لا يجب أن يحس بالعظمة حتى لا يستمر فى التعالى على الاخرين في طفولته وفى رشده فيما بعد . وتتكون لديه شخصية

بارانويدية أو شخصية نرجسية من صنع أهله ، ليلجأ من يحيطون به فيما بعد الى علاجه أو الى إقصائه إجتماعيا .

كيف يتفادى الاهل مآلا من هذا القبيل لطفلهم ؟ الخطوات الاولي فى التطويع الاساسى للصغير النامي هى تلقينه كيفية محبة الآخرين . وعندما يحب الطفل الآخرين فانه يشركهم أولا فى أشياء أو أفعال يحبها. فهو يتقاسم معهم الحلوي التي تخصه (وهذه تضحيته الكبرى)، أو يدعهم يلعبون بما يقتنيه من لعب مفضلة (وهي تضحية تأتى فى المرتبة الثانية) . أما الحدث الاعظم فى حبه للآخرين فيظهر عندما يرضى الطفل الصغير بالتنازل كلية عن قطعة الحلوي الوحيدة لآخر ، حتى وأن آلمه الامر سرا . وهنا يكون الطفل قد تعلم العطاء ، لأن أهله أفهموه أن فردا مقابلا له أكثر عوزا منه فيشعر بالكرم تجاهه ، أو أن الفرد الآخر زائر فيحسن ضيافته .

ومع نهاية السنة الثالثة من عمر الطفل ، يصبح لزاما على الاهل أن يكونوا قد أتموا تعريف طفلهم بأن للاخرين حقوقا كثيرة عليه أن يراعيها. فأشياؤهم ملكهم ولا حق له في اقتنائها أو التعامل معها الا بإذنهم . وراحتهم حقهم ، فهو مطالب بالاقلال من الضوضاء ، وعدم المطالبة باللعب في منتصف الليل لأنه أفاق . وقدراتهم تحترم ، فلا ينتظر من الآخرين توفير أشياء يصعب توفيرها لندرتها أو لبهاظة ثمنها.

ويعرف الاهل أبناءهم بالقيم الدينية ، التى تتفق فى كل الاديان والمعتقدات . فكلها ينص على معاملة خاصة سخية تجاه المحروم والمصاب والمعاق . وكلها أيضا ينادي بالاخاء والتعاون والبر ، وينهى عن التجسس والكبرياء والعدائية والظلم والخيانة . أي أنه فى كل الحالات ، وبكل لغات الاديان ، تخصص للآخرين منزلة تحترم حدودها ، وتفضل أحيانا على الذات .

وقاية الطفل من الأنانية إذن (في طفولته وحتى رشده) مهمة تبدأ فى

مرحلة شديدة التبكير أثنا ء طفولته . وقد يرى بعض الاهل أننا اليوم نعيش فى عالم معظم مشكلات سكانه منبعها أنانية الافراد أو أنانية الجماعات أو الدول . نعم ، حدث ذلك لان جيل النصف الثانى من القرن العشرين هو حصاد تربية عائلات معظمها مفككة ، وأديان نساها من ينتمون اليها . ولا غرابة فى أن يصعد الرئيس الامريكى السابق جورج بوش الى منصات دعايته الانتخابية واضعا على قمة مسئولياته الوطنية اصحاح الاوضاع بالعائلة الامريكية ...لضياع الدين والانضباط الزواجى ورعايه الاطفال ، ليتفشى القتل والاغتصاب والادمان والهرجلة العامة فى حياة كثير من الافراد . فحتى وإن تفوقت التكنولوجيا والانجازات المبهرة ، فان الروابط الاخلاقية إن ذهبت ، فان تفوقا ماديا من هذا القبيل لابد وأن يتقوض اذا لم تسعف المثل . لذلك يصبح لزاما على الاهل اليوم ألا ينجرفوا مع تيار اللامبالاه . وعليهم أن يتأكدوا من أنه قوة وليس ضعفا أن يكون طفلهم على خلق منذ طفولته . و أطفال أمثاله يملأون العالم فى الحقيقة ، الا أن رؤية السوء تكون أكثر صعقا للعيون ، فيصبح السوء أشد وقعا حتى وإن ضؤلت حوادثه .

الطفل الاجتماعى:

يتصل الوليد بالعالم الخارجى بمجرد ميلاده ، عن طريق اشباع حاجاته الاساسية ، التي يوفرها له آخرون . وفي هذه المرحلة من الاتصال الاجتماعى (الحيوى الاهداف) يتعلم الطفل التعبير عن الغضب أو الالم أولا (اذا تأخر غذاؤه أو آلمته الاوضاع أو الاحوال البيئية) . ثم يتعلم التعبير عن السعادة بعد ذلك . ولا تكون سعادته نتيجة لشبع معدته فى كل مرة . وسيبش الصغير النامى لسماع صوت فرد يحبه ويحنو عليه . وسيسعد لأنه استرد لعبته . ويمارس بذلك استجاباته الانفعالية لما يحدث فى محيطه الضيق .

ولتجارب هارى هارلو Harry Harlow بجامعة ويسكونسن الامريكية وقع علمي خاص ، أثر على توجيه دراسة نمو الاتصال الاجتماعى فى الطفولة ، حتى وإن كان معظمها على القردة . واختياره لأطفال القردة كبديل لاطفال البشر (عملا بأخلاقيات التجريب طوال الثلاثين عام الماضية) تسانده معلومات ارتقائية تؤكد تقارب مدة الاعتمادية في طفولة الكائنين ، بالاضافة الى تشابه التطور الانفعالى لديهما فى معظم المواقف (Harlow , 1962) . ورأينا كيف فضلت القردة الوليدة إحتضان دمي دافئة كثيفة الغطاء لاطعام لديها ، على الاتجاه الى دمي هيكلها السلكي لاغطاء له ولكنه يحمل طعاما يشبع جوعها . واستنتج هارلو وزملاؤه أن التعلق الاجتماعى بآخرين لا يحدث لان الطفل ينال منهم شيئا ماديا فى كل الحالات (Harlow & Suomi , 1970) . وبذلك برهنت تجريبيا عمليات التفضيل والتحرك والتودد التي تمارس في الطفولة عند التفاعل الاجتماعى وعند الحرمان ، تماما كما جاء فى ملاحظات رينيه سبيتز قبل ذلك عند دراسة اللقطاء والايتام بالملاجئ (Spitz,1945) .

وسرعان ما يندمج الصغير فى محيط صاخب من إخوة وجيران وأصدقاء وأشياء ، لحسن حظ معظم الاطفال . لان البعض يظل منغلقا لبعده عن هذا النوع من المحيط ، أو لأنه مريض نفسى منذ طفولته المبكرة ليتبع التصنيف ف - ٨٤ لاضطرابات الطفولة (WHO,1992) .

ويتعلم الطفل الاتصال بالاخرين عن طريق اللغة ، ويتكامل اسلوبه اللفظى باستخدام مداخل أربع : (١) النظام الصوتى وكيفية ترتيب الوحدات الصوتية phonemes التي تكون الكلمة الواحدة ، (ب) والفهم أى النظام السيمانتيكى ويبدأ بالفهم العام للكلمات ليتطور الى التمييز في الفهم والمفارقة بينها semantic differential ، (جـ) ونظام تركيب الجمل syntax ، وأخيرا (د) النظام العملى والتطبيقى pragmatics حيث يصل الى حسن أو سوء إختيار لغته فى المواقف المختلفة والخاصة (الفت حقى ، ١٩٨٦)

كيف وأين تمارس الوقاية في كل واحدة من هذه الانشطة الاجتماعية في حياة الطفل ؟ لا يجب أن يحس الطفل بالوحدة أولا . فقد يمر الطفل بالخبرة وهو في عائلة مكتظة ، الا أنه بالرغم من كبر عددها فإن أواصر المحبة و الصداقة مفقودة بها . ويتزايد إحساسه بالاغتراب بمرور الزمن لان خصائص بيئته لا تتغير . ويقع عبء الاصحاح على الكبار ، إلا أن افاقتهم الى الوضع السيء لا تحدث تلقائيا . بل وقد يظل الطفل على الحال ذاته الى أن ينتقل الى بيئة المدرسة . واذا حسن حظه فانه سيقابل أطفالا آخرين ينتشلونه من وحدته ، أو مثلا أعلى فى القيادة والتوجيه والمثالية في شخص مدرسة فصله أو مدرسى إحدى المواد المتخصصة . ويقيه تغير البيئة من الاسترسال في احساسه بالانعزال . وتتم وقايته من الاغتراب عن طريق التحرك الاجتماعي (من المنزل الى المدرسة) وعن طريق الاندماج الاجتماعي (فى عينة من الافراد تختلف عن أسرته النواة) وعن طريق الاهتمام الاجتماعى (بانجذابه الى آخرين وأشياء جديدة) . يصح القول اذن بأن وقايته من الانسحاب والاحساس بالاغتراب لا تكون مخططة كما يكون العلاج الا أنها في معظم الحالات تجرى عن طريق التغير الذى يعتمد على السبرنتيكا الاجتماعية (أى الآلية الاجتماعية) . لاننا اذا قصدنا المسئولين الاول عن هذه المشكلة لوجدناهم أهل الطفل ، وهم في معظم الاحوال أفراد توقف تطورهم .

ثم على الراشد المسئول عن حياة الطفل أن يواظب على متابعة طريقة الطفل في تعامله مع اقرانه ومع الحيوان والنبات ومع الاشياء . لان هذه العلاقات تشير الى مدى رضا الطفل عن الحياة ومدى حبه لمحتويات بيئته . فلا يدير الراشد رأسه اذا ما رأي أى طفل يعبث بالنبات ، ولا يتظاهر بأنه لم يره يركل القطة الصغيرة أو يخط بقلمه على أسوار البيوت أو جوانب السيارات . فالتقويم أكثر وقعا فى الآونه ذاتها . ولا يثمر التقويم بالعقاب . فالطفل الذى ألف الاذى لا تهمه جرعة أخرى . فهو لذلك يؤذي الاشياء والآخرين ولا يقدر وقع التلف أو الخراب أو الألم .

بل قد تسره نتائجه . الاقتراب الامثل من هذا النوع من السلوك هو وضع الطفل المسيء فى الاتجاه المقابل . ماذا يحدث لو أن طفلا فعل شيئا من هذا القبيل بسيارتك عندما تكبر ، أو بحائط منزلك أو أتلف أيا من مقتنياتك التي تعزها ؟ واذا استجاب بأنه مقضى عليه ألا يقتنى شيئا ذا قيمة يخاف عليه ، فان في تشجيعه على الايمان بأن يسر حياته أكثر احتمالا من فقرها دفع لاحلامه ولايقاف حب الاذى في ميوله السلوكية .

وقاية الطفل من التقوقع الاجتماعى أو من الانحدار نحو سلوك ضد - اجتماعى تقع على عاتق الاهل . واصابته بواحدة منهما تعنى إهمالهما للخطوات الاولي في إحتوائه إجتماعيا من ناحية ، وفي تعليمه قواعد السلوك الاجتماعى من ناحية أخرى . ويبقي وجه ثالث من أوجة التفاعل الاجتماعى الذى يمارسة الطفل النامي وهو وسيلته فى الاتصال بالآخرين . التخاطب واللغة موطئان آخران يمكن أن يتعرقل عندهما الطفل النامي . فان لم يكن متخلفا عقليا أو أصما ، فإن فى تأخره فى الكلام مؤشر على تخلفه الاجتماعى . وتسبق قدرته على التكلم قدرة أخرى هى إصدار أصوات غير مفهومه ، الا أن الحاحها يشير الى أنه يقظ لما حوله من منبهات ، أو الى رغبته فى جذب الانتباه ، أو الى محاولته الوصول الى شيء أو الى خدمة . والراشد المتعاون كثيرا ما يحاول فهم هذه النداءات ليلبى رغبة الصغير . ويكون فى هذا الاهتمام إضافة كبيرة الى إحساس الصغير بأهميته وبحب عائلته له . أما اذا ما ترك ساعات ومطالبه التائهة هذه لا ملبى لها ، فانه سريعا ما يدرك أنه وحيدغير ذي أهمية . فيسكت عن المطالبة ويفقد شهيته للاستكشاف . وهذا هو ما يحدث عادة فى عنابر مؤسسات الايواء (للاطفال اليتامي أو اللقطاء) فى أى مكان بالعالم .

التخاطب المبكر اذن يشير الى أن الطفل يتمتع بمحيط يساعده على سرعة الاتصال بالآخرين ، علاوة على تمتعه أيضا بقسط متوسط أو متفوق من الذكاء . ولغته التي يتم بها هذا التخاطب هي الاخري

مؤشر سافر على مستوي عائلته الثقافى أولا ثم على مستوي ذكائه ثانيا. والثقافة هى مجموع ما أنجزته ثم طريقة حياة الجماعة . فإذا انتقى الطفل كلمات جديدة نظيفة فانه يختلف عن آخر غير جاد فى التعبير السليم أو بذىء الألفاظ . وهذا هو معني الاختلاف الثقافي . وقاية الطفل من الهبوط الي مستوي ثقافى منحدر نادرا ما يكون ممكنا . فهو طوع عائلته ، فاذا ما كانت لغتها هابطة أصلا ، فأمثلته المحيطة به لن تقيه . ويكون التدخل من خارج العائلة فيما بعد . وكثيرا ما يجئ التدخل متأخرا جدا ، فيصبح التقويم صعبا ومستهلكا للوقت والجهد . وتصبح الوقاية وظيفة جماعية بعد دخول الطفل المدرسة ، تتضمن في أحيان كثيرة أسلوب العقاب السريع .

وقايه الطفل من أخطاء التخاطب مسئولية أهله وأخوته الاكبر سنا . فالطفل الذي يستخدم حرف آللام بدلا من الراء مثلا ليقول « حانخلج فى العلبية ؟ » بدلا من حانخرج فى العربية ، ثم يجد استحسانا من أهله لهذه الاخطاء ، طفل لابد وأن يبالغ فى إعوجاج لغته وأن يطيل فيه . ثم ينتهى الامر الى تبنيه لشخصية مسرحية تمارس طقوسا أخري فيما بعد. ويستمر مدى الحياة معتمدا على الظهور بمظهر يختلف عن المألوف لانه وجد استجابات لسلوكه يحب وقعها لانهاتفرد له خاصة . ويصبح التدليل حقا يكتسبه فى كل المواقف الآن و فيما بعد ، الا أن معظم الناس لن يستمروا طويلا فى تقبل ثقل مطالبه فيصبح ممج إجتماعيا . ويكون الخطأ التربوي الاول ، الذى يؤدى الى عدم تقبله أجتماعيا فيما بعد ، هو إهمال تقويم كلماته فى الطفولة ، أو مداومة الا ستجابة لغير الصالح منها كما لو كان سليما .

وكثيرا ما تؤدى يقظة الاهل الى تدراك مواقف توتر الطفل أو تصيبه بالرهبة فيتهته أو يتلجلج فى كلامه . وهنا تكون وقايته نفسيا بتعديل اسلوبها أو اسلوب أحدهما فى التعامل معه . وقد يكون المحرض على

تعثره فى الكلام مواقف خارجية أخرى ، كتعسف مدرس بالذات ، أو قسوة أقران جدد ، أو تهديد من أى نوع آخر يكتشفه الاهل أو المعالج. وكثيرا ما يكون التهديد متخيلا ، فيصح تطبيق العلاج المعرفى المكثف لتحويل مخاوف الطفل أو لاثبات حقائق تزيحها . وتتم بذلك وقايته المبكرة من الاستمرار فى خوفه . ومن ناحية أخرى تكون اللعثمة أو اللجلجة أحيانا مماثلة للاسلوب المدلل الذي يستخدمه الطفل فى عوج لغته . ويؤدى الى نفس النتائج ، لذلك ينال نفس طريقة التقويم حتى لا يصل الي تأصل الشخصية المسرحية التي سبق الكلام عنها .

و أخيرا فإن فى إختلال لغة الطفل النامى موطئ آخر لوقايته من تفاقم حالته . فقد يكون الخلل ناجما عن تعرقل فى سمعه ، أو يكون نتيجة لاسباب وظيفيه أخرى يتغلب عليها الطبيب . لذلك يصبح لزاما على الاهل أن يميزوا بين ما هو طبيعى ارتقائيا وما هو غير مألوف . واسهل الطرق للوصول الى هذه المفارقة هي ملاحظة أطفال آخرين من نفس عمر طفلهم . ويكون اللجوء الى متخصصين فى أخطاء اللغة أو فى طب الاعصاب أمرا ضروريا منذ البداية ، حتي ينال الطفل الرعاية التي تلزمه . ومن أوضح الاعراض فى هذه الحالات إخفاق الطفل في المحاكاة السليمة للحروف التي ينطقها الكبار ، أو شروده وعدم تركيزه عند محادثته ، أو تركيزه لبصره على شفاه المتحدث فقط ، أو استجابته الخاطئة لكل الارشادات أو معظمها . ولكل واحدة من هذا الاعراض محرض يختلف من واحدة لأخري . فبعضها يتصل بقدرته على السمع ، وبعضها الاخر يتصل بعدم قدرته على التركيز attention deficit ، والبعض الاخر يتصل بنظامه الوجداني . وهنا يتحتم اللجوء أولا الى طبيب الاذن والانف والحنجرة لكى يشخص حالة الطفل . واذا كان سليما من هذه الناحية فان الطبيب النفسى هو المتخصص الاخير الذي يعرض عليه الطفل لتدارك الموقف منذ بدايته .

الرقيب المختار:

يمارس المربى واحدة من أساليب كثيرة لمتابعة سلوك طفله عندما يكون بعيداً عن سمعه وبصره . فالاهل كثيرا ما يضطرون لترك أطفالهم لساعات (وأحيانا لأيام) . وينتقل الطفل في هذه الحالة الى رعاية أفراد آخرين غير الاب والام ، نادرا ما تتكرر فيهم صفات الاهل البيولوجيين . ماذا يحدث فى نفس الطفل وقد تحرر من زمام أهله لينتقل الى نظام أكثر ليونة يسمح له بتخطى الحدود الواضحة التي رسمها له أهله ؟ وكلنا يعرف كم تتسامح الجدة فتقبل لحفيدها السهر مثلا ساعات تتعدى مواعيد نومه الاصلية ، أو تتجاوز عن عدد قطع الحلوي المسموح بها ، أو تقبل أن يشاهد أيا من برامج التلفاز بدون رقيب . وقد يكون المذنب مربيته أو أخوه الاكبر أو أى فرد يقوم بمجالسته أثناء غياب أهله .

وقايه الطفل الطليق من ممارسة الممنوعات أو الاسراف فى المسموح به أمر يتحقق عن طريق واحد من العديد من مجسمات الرقابة . وفي نظرية سيجموند فرويد حول مكونات الشخصية الثلاث : الهوا والأنا ثم الأنا الاعلى ، أساس منطقى لتربية الرقيب داخل الطفل . وهذا الرقيب ، أيا كان ، لا ينمو من فراغ . فالمربي الجيد يحبب الطفل فى السلوك الجيد. وسلوك الطفل اذا أمكنت ملاحظته تسهل مراقبته . والمراقبة هنا ليست عدائية أو تصيدا لأخطائه ، ولكنها حماية له من الوقوع فيها . ولهذا يتواجد المربي . فهو يهدف الى تحقيق أسلم الظروف لتكوين شخصية سوية فى طفله .الأنا الاعلى أو superego طاقة نفسية تلاحظ سلوك الفرد ذاتيا ، وتزنه ، وتقيمه ، وتحكم عليه بالرضا أو عدم الرضا . وهذا الانا الاعلى ينضج متأخرا ، إلا أنه ينمو مع الطفل موازيا لفهمه للخير والشر والصحيح والخطأ . وحيث أنه طفل مثله ، فهو كثيرا ما نجده يلجأ الي صيغة مجسمة يحتكم اليها ، تكون عادة من صنع الاهل . وأكثر هذه الصيغ شيوعا في الفولكلور الشرقي (والغربي أيضا) هي

العصفورة التى ترى كل شىء يفعله الطفل لتحكيه لأهله أينما كانوا . وحيث أنها عصفورة فهي لا تخيفه ولكنها توقفه عادة عند الحدود التي رسمها له أهله بوضوح ، حتي فى غيابهم .

ثم يتقدم الطفل في العمر ليصل الى مرحلة يمكنه أن يتعامل فيها مع التفكير المجرد . ويعتمد الآن ، وهو أقل سذاجة وأوسع ادراكا ، علي رقيب آخر هو الله . هذا اذا كان مربوه ممن يعتنون بالدين فيشربون أطفالهم بعقائدهم الدينية ، ولا يألون جهدا فى توضيح المسموح به وما هو غير مقبول . وترسخ فى الطفل النامي فكرة الرقيب الاعلى الذى يرى كل بادرة ، حتى وإن غاب أهله ، فيثيب ويصحح ويرد . وتكرر الكاتبة فى هذا المقام أن الشرق وكثير من المجتمعات الاوروبية مازالوا يتمسكون بعقائدهم الدينية ، مما يبشر باستمرار شىء من الانضباط بدلا من فوضى التسيب الاخلاقي الذي يتبع التسيب الديني الذى يغطى عددا من المجتمعات الغربية اليوم .

واذا ما توصل الاهل الى غرس أصول عقيدتهم فى طفلهم ، فانه نادرا ما يتخلي عن هذه الرقابة ، ذات التحكم من بعد . وتبقي هى الجزء الراصد المراجع فى عالمه النفسى ، فتقيه من الوقوع في الخطأ . وأهم من ذلك فهى تعلمه كيف يزن الامور قبل أن يختار ما يفعله . وهو بذلك يصبح أقل تلقائية وأخف ميلا للنزوات أو النزعات الطارئة . واذا ما قارنا هذا التقيد المطلوب إجتماعيا ومثاليا ، لوجدناه يخالف فى كثير من الاحوال ما يطالب به رجل الشارع والمعالج النفسى في عدد من المجتمعات الاخري . فهناك يصبح حقا للفرد أن يزيل القيود التي توتره، بما فيها أخلاقيات الجنس والزواج والانجاب واقتحام الخصوصيات الشخصية والتحرر من كثير من السلوكيات التى تعارف عليها المجتمع الانساني لقرون كثيرة .

وأخيرا قد يضيف الطفل رقيبا من البشر . فينتقى شخصية يحبها

ويضعها مثلا أعلى لسلوكه . هل يرضى معبوده اذا رآه وهو يفعل هذا الشيء الجيد ؟ وهل يغضب منه لانه كذب أو غش ؟ وهل يريد له أن يحسن من نفسه ، وأن يتفوق على الاخرين فى الانجاز أو في الابتكار أو فى الكمال ؟ وهذا المعبود idol يكون شخصا حقيقيا فعلا ، وتظل هويته سرا بين الطفل ونفسه . وفي البداية قد يكون الاب أو الام ، ثم الاخ الاكبر أو الاخت الكبرى . وينتقل بعد ذلك الى خارج نطاق العائلة ، لانه سيختار مدرسا أو مدرسة ولا يفصح عن التغيير ولا عن الشخصية . ثم تتوقف هذه الممارسة بعد المراهقة ، لتعاود الظهور فى مرحلة الرشد المبكر . وهنا ينتقل شخص الرقيب المختار الى فرد من الجنس الآخر ، وتكون هذه هي بداية مرحلة جديدة فى عمر الفرد ، ينفصل فيها عن طفولته ، ويتهيأ أثنائها نفسيا للدخول فى عالم الكبار ، فيكف عن التخيل الذي مارسه قبل ذلك . الا أنه الان يفرض على نفسه رقابة دينه ومثله الاجتماعية ، اذا كانا أصلا جزءا من تعاليم طفولته .

الصراحة والوضوح:

تربية الطفل عملية ثنائية الاتجاه ، فهى علاوة على إعتمادها على إرسال المربى من ناحية ثم على استقبال الطفل من ناحية أخرى ، الا أنها في الحقيقة طريق تعامل ذو اتجاهين . فالطفل اذا ما استقبل أمرا أو توجيها وفهمه ، فانه في داخله يقارن بين ما هو مطلوب منه وما يمارسه الكبار . ولا يصح دائما أن نقول له أن الاطفال لا يفعلون هذا لانه قاصر على الكبار فقط ، لان معظم ما يفعله الكبار فقط لا يشاهده الصغار أصلا . لذلك اذا أصر الراشد علي التدخين أمام أطفاله ، أو أساء الى أحد علانية ، أو أغتب الاخرين أو كذب في حضور أولاده أو ساءت لغته تحت سمعهم ، فلا يحق للراشد بعد ذلك أن يعطى دروسا أخري فى واجبات الطفل ومحرماته .

فى إهتمام الراشد بسلوكه الشخصى اهتمام أعمق بتربية طفله (أو

أطفال الآخرين) . فاذا بدرت منه بادرة ينهى عنها أطفاله أصلا فعليه أن يعتذر لهم . ولن يكون فى اعتذاره إقلال من شأنه . بل فيه اعظام لقدره لانه أراهم أنه أخطأ ولم تنقصه شجاعة الاعتراف . ويكون لصراحته وقع تربوى لا يضاهي . لان طفله (أو تلميذه) سيحتذى حذوه ولن يجد ضرورة للكذب أو المواربة إن هو أخطأ أو اقترف ذنبا . وتبنى الصراحة بين الاثنين دعائم لا تزعزع ، تنتهى بأن تعلوها أواصر صلة متينة البناء ، لن تقوضها الهزات التى تتعرض لها حياة كل واحد من أفراد البشر . فليست كل أحداث الحياة وردية ، وليست كل المواقف واستجاباتها مثالية . لذلك تكون الحقيقة أوضح الطرق وأسلمها فى المعاملات بين المربى والطفل وبين الطفل والمربى ، وستكون بين الراشدين وبعضهم فيما بعد .

معظم المعلومات التى يلقنها الراشد للصغير قابلة للتعريف الواضح . بل وكثيرا ما يجد الراشد فى كتب الاطفال المصورة معينا جيدا لتوضيح الأمور بطريقة علمية . لذلك تزخر الاسواق والمكتبات بالعديد من الوسائل التوضيحية التي تسهل مهمة المربى . وللأطفال أحيانا أسئلة محرجة ، أو أسئلة يعجز الراشد عن الاجابة عليها لانه لا يعرف الحقيقة. وقاية الطفل من الشك فى قدرة الراشد المعرفية لن تجىء عن طريق المراوغة في الاجابة أو عن طريق إختلاقه لمعلومات يصنعها لانه لا يريد أن يقول « لا أعرف » أو « لنفتش عن الاجابة معا » . لذلك يتحتم على المربي أن يقف بجوار الصغير ليشتركا سويا فى تقصى الحقائق التى تستعصى عليه . فلن يسىء الى الراشد شىء فى مثل قسوة سقوطه من عين صغيره لانه كذب (الفت حقى ، ١٩٧٩)

للطفل أن يقول لا :

دستور الراشد الذى يدير حياة طفله تؤسسه الطاعة فى كل الاحوال تقريبا . ولا شك أن المربى الذى يسمح لطفله أحيانا بأن يرفض شرب أو

أكل شئ بالذات ، أو يسمح له بارتداء حذاء آخر غير الذى أملى عليه أن يرتديه دقائقا قبل ذلك ، لا شك أنه مربى يعطى الطفل فرصة صنع القرار ولا يضره . بل هو يعطيه الفرصة أيضا للتعبير عن ميوله الفردية الضرورية . نحن اذن نقى أطفالنا من المعاناة من الدكتاتورية ومن الاحكام المطلقة اذا اتحنا للطفل فرص الاختيار أحيانا على ألا يضره أو يضر الآخرين .

إذا قرر الطفل أن يقول « لا » لشطيرة لا يريدها ، أو أن يقول « لا » للون قميصه الجديد وهم بصدد شرائه ، فلابد وأنه لا يميل الى أى منهما فعلا . ليس من حق الكبير اذن أن يصر على ما لا يريده الصغير ، لانه ليس دواء عليه أن يتجرعه رغما عن أنفه ، أو ليس رداء يقيه من البرد أو من البلل الآ ن .

وتقودنا « لا » هذه الى مواقف أخرى سيكون على الطفل أن يستخدمها أثناءها والا وقع فى الخطأ أو فى الخطر . فالرفض يشير الى أن للصغير القدرة على التمييز بين ما يريده وما لا يريده . فهو رافض عادة لعدم ميله لشىء أو عمل . وبذلك تنمو لديه قدرات أخرى ، أكثر نضجا ، عندما يتقدم فى العمر شهرا بعد شهر . فإذا كان الطفل قد مارس التمييز العام أولا (وهو ما يخص المأكل والملبس واللعب) فانه بتقدم معارفه سيمارس التمييز الخاص . ولنأخذ على سبيل المثال موقفه من أقرانه ، بعيدا عن أنظار الكبار .والأقران يجيئون من كل الثقافات وفى العديد من الصيغ الاخلاقية . ماذا يفعل الصغير عندما تعرض عليه سيجارة (أو أسوأ منها) خلف المنزل ؟ ماذا يقول اذا ما اتفق معظم أقرانه على حبس القطة الصغيرة داخل كيس قمامة يحكمون ربطه ؟ كيف يستجيب الطفل اذا قفز اصدقاؤه فوق سور حديقة ليشاكسوا صاحب الدرا الكفيف ؟ ماذا يفعل اذا ما تقدم اليه غريب بحلوى مغرية ؟

« لا » فى أى من هذه المواقف دليل على فهم الطفل لما هو مهدد وما هو

غير لائق ، خاصه في غياب الملقن الغيور على مصلحته وأمانه . وتعليم الطفل متى يرفض يوازى تعليمه الطاعة . ومن هنا تظهر أهمية العامل الوقائي الذى يغيب عن كثير من الاهل عند توجيه سلوك الطفل واستجاباته . فاستقرار المحظورات في ذهن الطفل قد يستمر أمرا نظريا لا جدوى من تعليمه اذا لم يفهم الطفل كيف يكون التطبيق ، سواء لأمور مرت على مسمعه في بيته أو لأمور يخبرها للمرة الاولى في حياته خارج بيته .

أن يتعلم الطفل التخطيط :

عندما يعد الأهل أولادهم بأنهم ذاهبون الى الشاطئ أو الى حديقة الحيوان ويتركون التاريخ والزمان معلقين ،فإن للاطفال الحق في التساؤل (من وقت لآخر) « متى ؟ » . واذا أطال الأهل في التأجيل أو تذرعوا بغد (بكره) مرات عديدة ، فان الصغار يربطون الغد بالمستحيل من الآن فصاعدا . بل وتصبح الوعود موضع شك ويصير أسلوب الحياة مرتجلا غير منظم ، خاصة عندما تطبق الطريقة ذاتها على الوعد بزيارة اصدقاء أو شراء حاجيات .

الطفل المهرجل ناتج بيت مهرجل أيضا . ولا يعني ذلك أن أثاث منزله غير مرتب ، أو أن محتويات دواليبه وادراجه مبعثرة ، ولكنه يشير الى أن نسق الحياة اليومية في ذلك البيت ينقصه التنظيم . فالاب لا يعرف متي يعود ، والام تخرج الى صديقاتها وتطول الزيارة ، ولا يعرف أحدهم متى يجتمعون الى الغذاء ، أو الى النزهة . ويبقى الاطفال حياري بين ما يريدونه وبين كيفية قيادة أهلهم لحياتهم العشوائية .

الراشد القائد الجيد لم يكن أبدا طفلا يفتقد النظام وحب التخطيط . وليست القيادة هنا رئاسة مدرسة أو جيش أو دولة ، ولكنها قيادة الحياة. لذلك يتحتم على الاهل أن يوضحوا الطريق لاطفالهم . فالجلوس سويا

مرة فى الاسبوع للتخطيط لما ستفعله العائلة ، كفيل بأن يعلم الصغير مفهوم الزمن والانضباط و تحديد أهدافه . ومن هنا يبدأ بأن يكرس نصف ساعة قبل أن ينام لكى يعيد لعبه وأقلامه وحاجياته الى أماكنها الاصلية . واذا كان مندرجا بمدرسة ، فانه يتعلم كيف ينسق وقته بحيث يؤدي واجباته أولا خلال ساعات محددة ، يرفه بعدها عن نفسه بأى اسلوب عوده أهله على استساغته . وأخيرا يتعلم كيف يعد حقيبته للصباح الباكر حتي ينام مطمئنا الى تنظيم كل ما يتعلق ببداية يومه التالى .

ويشب الطفل على النظام المريح ، ويتعلم أن الفرد المنجز فى ا لحقيقة انسان تعلم كيف ينظر الى الامام بحيث يري ما سينتهى منه قريبا وما سيبدؤه لاحقا . ولم تنجح شعوب يشب أبناؤها على التواكل وقصر البصيرة . بل تقدمت مجتمعات تقدما أسرع من أخريات لان القواد والمنقادين فيها آمنوا واعتنوا بالتخطيط المدروس الواقعى ، ولانهم نمت لديهم بصيرة بعيدة عميقة منذ الصبا ، فاصبحت طريقتهم فى ا لحياة فى الرشد لتتواتر جيلا بعد جيل بدون تنازلات أو انحرافات تضعف من قوتها أو من ثباتها .

الوقاية من اضطرابات تحرضها تغيرات جسمية

وقاية الطفل من الاصابة بالاضطراب النفسى يعتمد في المقام الاول على حمايته من التعرض لمواقف مستمرة أو عابرة تؤدى به الى القلق أو الخوف أو الرهبة من ناحية ، أو الى الامبالاة أو العدائية من ناحية أخري. وتتصل الفئات السابقة باضطرابات نفسية تحرضها معجلات

نفسيه أيضا . الا أن للاصابة النفسية أحيانا محرضات جسمية ، بعضها جرثومي الاصل والبعض الاخر كيمائى المنشأ .

التخلف العقلي الغير ولادى:

التخلف العقلي الولادى اصابة تشير الى ولادة طفل لن يكتمل نموه العقلي . أي أنه معرقل عصبيا ومتخلف المهارات منذ البداية . وتتفاوت إصابته من تخلف بسيط (ف - ٧٠) الى تخلف عميق (ف - ٧٣) ، بحيث تؤثر درجة تخلفه هذه على قدراته الحركية والسلوكية واللغوية والاجتماعية ، لتظهر بوضوح أكبر كلما تقدم شهورا أو سنوات من العمر . وتزداد فجوة التفاوت بين الطفل وأقرانه (من العمر ذاته) بمرور الزمن .

ولا تظهر كل فئات التخلف العقلى بنفس الاسلوب . فبينما المذكور أعلاه يشير الى تكوين مرضى للجنين قبل ولادته ، نجد أن طفلا آخراً يولد سليم الجهاز العصبى ولا يعاني من أى من أعراض التخلف العقلى، الا أنه بتعرضه لجديد ضار ببيئته ، يبدأ رحلة التدهور العقلى بسرعة تتفاوت بين المفاجأة والبطء .

الحميات تعد من أولى المعجلات الحادة التى تؤدى الى اتلاف دماغية شديدة ، إن هى أهملت أو طالت مدة ارتفاع حرارة الطفل أثناءها الى ما يتعدى ٧٢ ساعة (فوق درجة ٤٠ سنتيجراد) بدون تخفيض . والسبب فى ذلك هو انحدار منسوب السائل بخلايا الجسم بسبب ارتفاع حرارة الدم ، بما فيها خلايا الجهاز العصبى . وجفاف الخلية العصبية آثاره أكثر تدميراً عن جفاف خلايا الجسم الأخري .

السموم فئة أخرى تؤدى الى تدهور القدرات العقلية بنسبة ثابتة اذا ما استمرّ الطفل فى التعرض لها ، ومنها الرصاص والبنزين مثلا .

ومادة الرصاص من أهم السموم فى حياة الطفل ، لانها جزء من الالوان المستعملة في طلاء الخشب (بما فيه الاقلام واللعب) ، وفى مواد التلوين باليد والفرشاه وفى الوان الصباغة المستعملة فى الحلوى وكثير من الاغذية ، وأكثرها فى أحبار الطباعة (خاصة الجرائد والمجلات) . والطفل دائم التعرض لهذه المواد ، وهو سريع الزج بها فى فمه أو قرقضتها . لذلك يمنع من وضع أى من هذه الادوات فى فمه حتي لا يتسمم ببطء .

وللعقاقير نفس الاثر الا أن سميتها تكون حادة . فالطفل لن يتناول أى منها الا دفعة واحدة . ويكون تسممه واضحا وسريعا ، لذلك يمكن علاجه سريعا خاصة عندما يعرف الطبيب نوع المادة الكيماوية التي تجرعها الطفل . والمواد الحارقة والكاوية تكون شديدة الوطأة فى اصابتها ، ونادرا ما يعود الطفل الى حالته الجوفية الطبيعية بعدها . وتبقى لديه رواسب الاصابة النفسية زمنا طويلا لاستمرار الاصابة الجوفية التى تغير مجري حياته اليومية .

ولبعض العقاقير أثر سيء دائم علي قدرة الطفل العقلية واستقراره الوجداني . ومن هذه المهدئات ورافعات الاكتئاب وخافضات ضغط الدم، فهي تؤذى جهازه العصبى المركزى ، إن لم تقض عليه أولا . لذلك يتحتم على المربى أن يتوخي منتهي الحذر عند خزن العقاقير ، أو عند تركها فى متناول اليد للاستعمال اليومي . ومعظم المنازل اليوم مزود بخزانة خاصة للعقاقير . ومع ذلك فأمام الطفل كرسى يتسلقه ليصل الي الحبوب جذابة - اللون في غفلة دقائق . وتقع الحادثة . الوقاية المثلى هي استعمال خزانة لها مفتاح ، حيث أن الاهل عاجزون عن مراقبة الصغير الجاهل كل دقيقة من ساعات صحوه ، بالاضافة الى عدم ترك مواد التنظيف الكاوية في متناول يد الصغير .

النقص الغذائي :

بريبري beriberi مرض سببه نقص التغذية ، خاصة في الطفولة . يظهر فى الدول التي تعتمد على الارز فى غذائها ولا تتناول أيا من البروتينات الحيوانية أو النباتية . وحتى منتصف القرن كان متفشيا فى دول الشرق الاقصى وجنوب الولايات المتحدة الامريكية (خاصة ولاية لويزيانا) . أما البلاجرا pellagra فهي مرض آخر يسببه نقص البروتينات فى أقطار تعتمد بكثرة على الذرة فقط . ومنها الاقطار العربيه (بما فيها مصر) وجنوب الولايات المتحدة (ولايات حزام الذرة). وفى هذه الحالة يعاني الطفل والراشد من تعرقل وبطء العمليات العقلية بالاضافة الي عدد كبير من الاعراض الجسمية الاخري . وتقع تحت نفس الفصيلة أمراض أخرى كالاسقربوط scurvyوالكساح rickets والانيميا الوبيلة ، التي تتسبب فى اصابات نفسية فقط دون العقلية .

وينجم عن نقص واحد أو أكثر من بعض الفيتامينات فى غذاء الطفل (والراشد على السواء) لمدة طويلة بدون تعويض ضرر خاص بعمليات عصبية بالذات . ويتفاوت الضرر من هبوط الحيوية والتبلد العقلى فى الحالات البسيطة ، الى تدهور النشاط العضلى وتعرقل العمليات العقليه المركبة كالتذكر والاستدلال والاستنتاج . فنقص فيتامين (أ) يؤدى الى تدهور الرؤية الليلية وعدم مرونة أنسجة الجسم . وقاية الطفل من نقصه اذن تكون بتزويد الصغير (من وقت لآخر) بمواد غذائية طبيعية تتضمنه ، مثل الكبد و البيض و الزبد والجزر و الخضر الطازجة على وجه العموم ، بدلا من إعطائه الفيتامين مصنعا . أما نقص فيتامين (د) فيؤدى الى الكساح rickets ، والوقاية من نقصه فى متناول معظم المجتمعات ، وهى عن طريق تعريض الطفل لأشعة الشمس المائلة من وقت لآخر (مباشرة : أى بدون حاجز زجاجى بين الاشعة وجلد الطفل) ، بالاضافة الى جرعات ضئيلة من فيتامين (د) .

أما عندمجموعه فيتامينات (ب) فيؤدى نقص ب - أ (ثيامين) الشديد الى الاصابة بمرض بريبري ، والثانوى الى تغيرات بالانسجة العصبية التي توظف الانسجة العضلية . وينهك الجسم بسرعة ، ويتعرقل التذكر والنوم والشهية وحركة العضلات . وعادة ما يصاحب هذا نقص عام بكل أنـواع فيتاميـنات (ب) المركـبة ، مثل ب - ٢ (ريبوفلافين) الذي يكثر فى الالبان ومنتجاتها وفي البروتينات الحيوانية ، أو نياسين (حمض النكوتين) الموجود فى الخميرة الجافة والكبد واللحوم والاسماك والخضر والحبوب الكاملة ، التي تحتوي أيضا على فيتامين ب - ٦ وأخيرا ب - ١٢ الموجود بغزارة في اللحوم والالبان والبيض .

ولنقص فيتامين (جـ) أثر سَيء على العظام وتجلط الدم ، فيؤدى الى أمراض اللثة والاسنان فى الحالات البسيطة ، والى الاصابة بالاسقربوط فى الحالات المتقدمة . وفى تناول الموالح والطماطم الطازجين والبطاطس وقاية طبيعية من الاصابات الناجمة عن نقصه .

وكل أنواع المعادن الحيوية ، كالحديد والكالسيوم واليود ، ضرورية هي الاخرى كجزء مكمل لغذاء متكامل يقى الطفل من النقص الذى يؤدى الى ضعفه الجسمى وتدهوره العقلى واضطرابه الوجداني . وفى كل الحالات يكون من الاوفق أن يتناول الطفل هذه الاغذية المجهرية micronutrients المكونة من الفيتامينات والمعادن عن طريق الاغذية الطبيعية التي تحتويها ، بدلا من وصولها الي جسمه مصنعة فى صورة أقراص أو شراب (الا فى حالات النقص الحاد) .







مراجع اضافية

ليس بداخل هذا المؤلف أي نص منقول من أي من المراجع التالية فيما عدا ما ألفته الكاتبة. لذلك عملا بالاسلوب الحديث في تبويب المؤلفات، تجيء كلها حسب الحروف الابجدية ولا يشار اليها داخل صفحات هذا المؤلف، ولكن وجودها يعنى انتماء بعض موضوعات هذا الكتاب اليها بحيث تصبح هي مرجعا اضافيا يمكن اللجوء اليه للاستزادة.

اسماعيل ، د . عماد الدين وزملاؤه (١٩٦٨) ، الاتجاهات الوالدية في تنشئة الأطفال ، دار النهضة العربية القاهرة .

السيد ،د . فؤاد البهي (١٩٧٥) . الأسس النفسية للنمو . دار الفكر العربي. القاهرة .

الغريب ، د. رمزية (١٩٦٧) . العلاقات الانسانية في حياة الصغير ومشكلاته اليومية . مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة.

حقى ، الفت (١٩٩٥) . الاضطراب النفسي . توزيع دار الاسكندرية للكتاب .

حقى ، الفت (١٩٨٦) . سيكولوجية النمو . دار الفكر الجامعي . الاسكندرية .

عكاشة ، د. أحمد (١٩٩٢) . الطب النفسي المعاصر . مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة .

معوض ، د. خليل (١٩٩٢) النمو النفسي . دار الفكر الجامعي ، الاسكندرية .

References

Ainsworth, M. Infancy in Uganda. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1967.

Aronson, E., and Rosenbloom, S. Space perception in early infancy: Perception within a common auditory-visual space. Science, 1971, 172, 1161 - 63.

Bandura, A. and McDonald. F. J. Influence of social reinforcement and the behavior of models in shaing childern's moral judgments. Journal of Abnormal and Social Psychology, 1963, 67, 274-81.

Belmont, J. M. and Butterfield, E. C. What the development of short-term memory is. Human Development, 1971, 14, 236-48.

Bowlby. J. Separation anxiety. Internaional Journal of Psychoanalysis, 1960. 41, 89 - 113.

Clark, H. H. Space, time, semantics, and the Child. In T.E. Moore (Ed.), Congitive development and the acquisition of language. New York. Academic Press, 1973.

Erikson, E. H. Toys and reasons. New York: Norton, 1977.

Gardner, R. A. and Gardner, B. T. Teaching sign language to a chimpanzee. Science, 1969, 165, 6446 - 72.

Gesell, A. Ilg, F., and Ames, L. Infant and child in the culture of today: The guidance of development in home and nursery school. New York: Harper and Row, 1974.

Harlow, H. Learning to love. New York: Ballantine Books, 1971.

Lorenz, K. On aggression. New York: Harcourt, Brace, and World, 1966,

Piaget, J. The Child's conception of the world. Totowa, N.J., Littlefield, Adam, 1965.

Sherif, M., and Sherif, C. Reference groups: Exploration into conformity, and deviation of adolescence. New York: Harper and Row, 1965.

Spitz, R. A., and Wolf, K. M. Anaclitic depression. Psychoanalytic Study of the Child, 1946, 2, 313-42.

رقم الايداع : ٤٦١٦ / ٩٦
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977 - 5682 - 02 - 9

